قَارعة المُستوطنين

السود بين الموروث الجاهلي والأيديولوجية الفكرية

ياسر جمعان الكناني

قَارعة المُستوطنين

ياسر جمعان الكناني

اسم الكتاب : قَارعة المُستوطنين

اسم المؤلف : ياسر جمعان الكناني

الطبعة الأولى : 1436هـ - 2015م

تصميم الغلاف : كرم شعبان

طُبع في مصر

رقم الإيداع : **٢٣٥٧١ - ٢٠١٥م**

الترقيم الدولي : 7-33-56-23-679-687

مؤسسة روائع للنشر

١٥ ش أسامة بن زيد ـ الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف :
٠٠٢٠١١٤٠١٧٨١٤٤

مدير عام : هبة الشرقاوي

للذين لم يُولدوا بعد ..

عندما مالت طائرة الخطوط الجوية السعودية، ملت في مقعدي وحدقت خارج النافذة الدائرية من تحت الجناح الأيمن وحينها أتأمل البراعة الهندسية العمرانية التي تحظى بها مدينة الرياض عن بقية مدن المملكة، وما هي إلا لحظات من التأمل ودقائق وإذا بكابتن الطائرة يبلغنا بسوء الأحوال الجوية بالعاصمة، هبطت الطائرة المدرج وفتحت لنا الأبواب، حين خروجنا نتفاجئ بحرارة الجو اللافحة وعلى موجات الغبار والأتربة. وما أن دخلنا صالة المطار، وإذا بمؤشرات العبرة تطرق الأبواب حين تشاهد العناق بين الأحبة والأصدقاء والأقارب وتبادل الفرح والسرور، وليس لي إلا صاحب التاكسي الذي طلبت منه أن يوصلني حي البطحاء الواقع جنوب الرياض.

نزلت أحد الفنادق وتناولت وجبة العشاء وأديت واجبي الديني، وخلدت إلى النوم وعلى مناداة المؤذن لصلاة الفجر استيقظت، وبعد الانتهاء من الصلاة ذهبت حاملا ملفي الأخضر قاصدًا (الحائر) جنوب الرياض للتقديم على مركز التدريب التابع للمباحث، وحين الوصول تفاجأت بآلاف الشباب بملفاتهم، ولا

أنسى ما قاله لي العم سائق التاكسي : «يا ولدي إذا ما عندك واسطة لا تتعب نفسك على غير فائدة» .

ترجلت من السيارة وأنا أضمر القلق جراء كلمات سائق التاكسي التي أحدثت شرخ في رغبتي وأضعفت حماسي ، وظللتُ أرددها مع نفسي دون ما أشعر ، توجهت حيث يعتكف الآلاف من مختلف شرائح المجتمع أمام البوابة الرسمية للإدارة ، وأنا بين ضجة الناس ترامى إلى مسامعي تراشقات لفظية بين فئة من الشباب يملؤها العنصرية وتبادل الصفحات الماضية التي لا تقبلها المبادئ الإنسانية ، وبعد لحظات إذا الأبواب فتحت وظهر علينا منسوبو المركز منادين بتوحيد الصفوف والتذكير عبر المكبرات بالأوراق المطلوبة ، ثم تسليمها بعد التأكد منها ، وبعد عناء من الانتظار وقفت أمام أحدهم وبدأ التأكد من صحة الوثائق ، لكن قرأت في ملامحه ونظراته ما عاد بذاكرتي لحظة وقوع الخلاف بين الشبان ، أفادني بكمالية الملف ، وأن أستمر بالبحث والتقديم على وظائف أخرى إن أحببت !

عدت للفندق وأنا أعاني من تزاحم أفكاري نتيجة الساعات التي قضيتها أمام المركز ، والألفاظ التي سمعتها والملامح التي

قرأتها على وجوه بعضهم ، وموعد رحلتي في تمام الساعة الثامنة مساء وبدأت بتجهيز حقيبة السفر للتوجه إلى المطار .

بينما أنا في الطائرة اطلعت على بعض المجلات ، واستوقفتني إحدى المواضيع بعنوان «ذكرى رحيل المناضل السياسي مارتن لوثر كنج» يسرد الكاتب قصة حياته ابتداء بطفولته والرماح العنصرية التي اخترقت أجساد السود بالولايات المتحدة آنذاك ، والسماح بدخول الكلاب للمطاعم وتفضيلهم عليهم ، إلى حين طرد «روزا باركس» بسبب لون بشرتها من الباص وترجيح الآخرين عليها ، بعدها بدأت البنية العقلية لمارتن لوثر بالانفتاح عقب صبر سنوات ، وتحمل مرارة الألم ، اجتهد بالمطالبة بحقوق السود وتجديد مفهوم الإنسانية ، والوقوف صامدًا في وجه الأفكار العبودية لبني الإنسان بكل حزم ، والتحرر من الاسترسال خلفها .

تأملت أحد مقولاته الشهيرة التي لا زالت تتردد في ذاكرة التاريخ :

«لقد تعلمنا أن نطير في الهواء كالطيور ، وتعلمنا أن نسبح في

البحار كالأسماك ، ولكن لم نتعلم حتى الآن أن نمشي على الأرض كالإخوة» .

ومن خلال تنقلي بين أحلام مارتن لوثر استذكرت «مالكوم اكس» والذي يتفق معه في المطالبة بالحقوق وكرسا حياتهما في مكافحة سبل التمييز العنصري وذهبا ضحايا على يد المتعصبين .

دقائق وكابتن الطائرة أمرنا بالتقيد بربط الأحزمة ، وأغلقت الكتاب الذي يحمل في طياته ما يستلزم على أسرى الأعراف المتحجرة ومن يعانون التصلب الفكري والفقراء أعظم درس تعلمناه من الإسلام ، ألا وهو الأخلاق أن يعملوا وفق ما همس به أحرفه ، وأنه في أقوالهم وأفعالهم عبرة للمؤمنين .

وبعد توجهي للمنزل مكثت أيامًا أنتظر اتصالًا يزف لي خبر قبولي ، وأدفع بذاكرتي كبائع الخبز بين أروقة الساعات التي قضيتها أمام المركز ، ما بين صاحب التاكسي والألفاظ والملامح التي يتكأ خلفها الاستفهام ، وبعد أن اشتدت بي وطأة الهم ، لم يحصل ما كنت أحن إليه .

أيعقل أن بعضهم مازال يؤمن بمسلمات سالفة دون تأمل أو تفكير ، أما زال من يقف هناك تحت الأسقف الجاهلية وقد تبرأ الإسلام مما كانت تصبوا إليه ، أما زال هناك من تبنى مفهوم التقدم والرقي الحضاري بطريقة ضحلة وهشة ، وعزفوا بعيدًا عن الصحوة واليقظة ، ألا يدرك الثلة من الناس أن هذا الدين أضاء لنا الطريق ، وكان هو الزاد الروحي الذي أعاننا على المسير .

عقول ظلت خاوية على عروشها ، تجتاحها الحقائق ولا تجد لها مأوى ومستقرًا ، نتيجة تكدس المكتسبات والمفاهيم الخاطئة ، وغادرت دونما هدف تحلق إلى المجهول ، بل في محيط التفاؤل والأمل لتساهم في تجفيف الينابيع المتدفقة منذ ذاك الزمان .

ياسر جمعان الكناني

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلق فاختار منهم العرب ، واختصهم بأن جعلهم قبائل وشعبًا ، وميزهم بأن رفع بهم منار الأدب ، فحازوا قصبات السبق في مضمار الفخار والمحبوك بأعلى الحسب ، لاسيما وقد اصطفى نبيه من خير قبائل العرب وانتخبه من أشرف عشائرهم ، فهو أطهرهم أرومة ، وأزكاهم فرعا ، وأسماهم قبيلة ، وأوفاهم فصيلة ، وأطيبهم عشيرة .

اللهم فصل وسلم عليه صلاة وسلامًا يليقان بجنابه الأعلى ، ويحيطان بكمال ذاته الأسمى ، وعلى آله أولى الشرف والبراعة وأصحابه ذوي الصولة والشجاعة .

روى أحمد في «المسند» عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك» .

الإنسان ابن بيئته وينشأ وفق المعطيات والأحداث التي تحيط به ، وأهمها الثقافة والتربية ، حيث نجد أن معظم المجتمعات العربية خصوصًا المجتمع السعودي ، لا زالت تتعامل مع عقلية القرون الغابرة في التعامل مع أصحاب البشرة السوداء على حسب الفهم القديم ، وذلك أيضًا على مستوى العقليات المتعلمة والنيرة .

وأنا عاتب على المجتمعات العربية والخليجية على الرغم من تقدمها الحضاري والمعرفي إلا أنها لا زالت تحت نير المفاهيم العقيمة .

ولا شك أن مجتمعي يقف على حافة التطور والتقدم الحضاري والثقافي ، وأن هناك قبائل عدة اتخذت العادات الجاهلية مبدأ لها ، ويؤرقني عندما أسمعهم يقولون : عادات وتقاليد .

التفرقة على أساس اللون متغلغلة في أرجاء البلدان العربية ، وهذه النظرة الدونية تجاه السود تنم عن عنصرية بغيضة واعتقاد من قبل ذلك المستوطن الذي نسي تعالي الغربي عليه ، أشعر بالأسف عندما أرى الخليجي أو الجزائري أو الموريتاني من هم ذوات البشرة السوداء يعيشون في بلدانهم ووطن أجدادهم وكأنه مواطن من الدرجة العاشرة . ودائما يفضل عليه المستوطن أو المستعرب .

ومن الطبيعي أن يُعامل السود في بلادنا معاملة سيئة، فالأعراق لدينا إما من أصول تركية أو فارسية أو أوروبية بيضاء.

والعرب بشكل عام يتساءلون عن خلفية نظرة الغرب لهم بدونية، ويبذلون ويسعون جاهدين لإزالة تلك الصورة السلبية عنهم، ويصفون كل ما يروج عنهم في الغرب من تصويرهم أنهم همج وإرهابيون، أو بدو غير متحضرين، على أنها حملات مغرضة تهدف إلى النيل منهم، إن معاملة العرب ونظرتهم إلى السود أسوأ بكثير.

إذا كنا ندين العنصرية الإسرائيلية تجاه الإخوة الفلسطينيين، فلابد أن ندين ذلك بشكل مبدئي دون كيل بمكيالين، وليكن الإسلام والقانون الدولي فيصلًا حيال هذا الموضوع.



أصل الجنس البشري

وجد باحثون سويديون أدلة تثبت النظرية القائلة أن أصل الإنسان من أفريقيا ثم هاجر وانتشر في كل أرجاء العالم . وأجرى علماء في جامعة أوبسالا السويدية اختبارات على مجموعة من ثلاثة وخمسين امرأة من مختلف المناطق الجغرافية والأعراف البشرية ، لتحليل مادة موجودة في الحامض النووي في الجسم تنقلها الأم عادة إلى أولادها وتتطور عبر التاريخ والأجيال .

فوجد العلماء أن أفراد المجموعة جميعهم يشتركون في النشأة من أصول جينية أفريقية ، تطورت على مراحل منذ حوالي مائة ألف إلى مائتي ألف عام ، كلها ظهرت عند الأجناس الآسيوية والأوروبية قبل خمسين ألف عام .

ويعتقد العلماء أن أول موجة من البشر هاجرت لأول مرة من أفريقيا في اتجاه الشرق إلى جنوب آسيا والصين وأستراليا .

وحسب هذه النظرية ، فإن آخر المناطق التي استوطن فيه الإنسان كانت في أوروبا وأمريكا الشمالية وأخيرا أمريكا الجنوبية :

نظريات متنافسة :

يؤكد العلماء على وجود نظريتين متنافستين تفسران كيفية انتشار الأعراق البشرية في العالم .

النظرية الأولى :

أن الإنسان الحديث أو ما يسمى «هوموسابينس» انطلق قبل ما بين مائة ألف عام إلى مائتي ألف عام من أفريقيا إلى العالم وحل محل الأجناس التي كانت منتشرة في ذلك الحين .

النظرية الثانية :

أن البشر الحديثين نشئوا بشكل متزامن في أفريقيا وأوروبا وآسيا من الإنسان القديم المسمى «هوموسأريكتوس» الذي غادر أفريقيا قبل مليوني عام .

ودعمت الدراسات التي أجريت في السنين الأخيرة النظرية

الأولى التي تعتمد على تحليل الحامض النووي الموجود في تركيب الخلايا البشرية الذي تورثه الإناث فقط لأطفالها .

إلا أن العلماء يؤكدون أن أهمية الدراسة التي جرت بجامعة أوبسالا لا تكمن في أنها تغلبت على هذه الصعوبات بشموليتها وعمل تحليلها ، لأنها حللت خارطة «جينوم» الحامض النووي إم تي عند ثلاثة وخمسين عرقًا ، وهذه هي المرة الأولى التي تتبع فيها هذه الطريقة .

ومن المثير للاهتمام أن الدراسة بينت أن تنوع الحامض النووي إم تي بلغ الضعف عند العرق الأفريقي عما هو موجود عند العرق غير الأفريقي .

وأظهرت الدراسة كذلك بعض الأدلة على حدوث ندرة سكانية في تاريخ نشوء البشر قبل أربعين ألف عام ، عندما وصل تعداد سكان العالم إلى أربعين ألف شخص فقط ، أي أقل مما يمكن أن يستوعبه أي ملعب رياضي كبير في الزمن الحاضر .

وأفاد الباحثون بحسب ما توصلت إليه الدراسات أن جميع البشر اليوم ينحدرون من أصل واحد ، وهو الإنسان القديم في أفريقيا الذي عاش قبل مائة وعشرين ألف عام إلى مائتي ألف عام .

السود في المجتمعات العربية

مما لا شك فيه أن السود مروا من خلال تاريخهم الطويل بأزمات شديدة وأهمها التفرقة العنصرية .

وغالبًا ما تكون النظرة للبشرة السوداء دونية خصوصًا في مجتمعنا ، أما الغرب فنلاحظ أن مؤشرات تلك النعرات العنصرية تختفي تدريجيًا خصوصًا بعد تولي الرئيس أوباما مقاليد الرئاسة الأمريكية .

أما مجتمعاتنا فلا يزال فيها المستوطنون والمهاجرون يطلقون على صاحب البشرة السوداء «عبدا أو خادما» بسبب أنه في زمن ليس ببعيد ، كان ذوو البشرة الداكنة خدمًا وعبيدًا مملوكين للتجار وغيرهم .

الظاهرة موجودة ، ولكن لا يمكننا عزلها عن كم من المظاهر السيئة في مجتمعاتنا العربية ، فعلى سبيل المثال هناك تمييز شديد

ضد ابن الأسرة الفقيرة ما يقابله من الأسر الغنية ، وهناك تمييز شديد ضد ابن العائلة الصغيرة مقابل العائلة الكبيرة ، وأيضا هناك تمييز حسب مهنة الشخص ومنصبه ، وهذا غيض من فيض التمييزات المريرة التي يواجهها أي شخص في المجتمع العربي .

التمييز بخصوص لون البشرة ، إضافة مريرة لتلك الأمراض الاجتماعية والعادات البالية ، سيظل العرب يحتقرون الإنسان الأسود دون بقية شعوب العالم ؛ لأن عقلية العبودية لازالت تتربع في أذهانهم ، ومع استمرار تلك النظرة الدونية ، يسقطون طواعية الوضع الأخلاقي في اتهام الغرب بالتعصب ضدهم .

إن من يحاول الادعاء بعدم وجود تمييز ضد السود في المجتمعات العربية هم من أشاهد فيهم قوله عز وجل :

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾[1] .

فالجميع يعلم بوجود مثل هذا التمييز ، بل إن التمييز وصل

---

(١) البقرة : (٩) .

إلى شعور دائم يعيب ذوي البشرة البيضاء ، القوقازيين ، (بحسب تصنيفات الأصول) أنهم دائم في القمة ، والسود لا يسعهم إلا الدرك .

هذه الترسبات التي يتمتع بها الغالبية هي من علامات الجهل والعنصرية ، وكم من فئة بمجتمعنا لديها كره وتمييز بارز ضد السود ، وضعوا سدًّا اجتماعيا دون الامتزاج بالأسود ، وينعتونه بأنه (دخيل عليهم) .

الإسلام دين مساواة في جميع مجالاته ومعاملاته ، لكن سوء فهمه وسوء فهم تفسيره الصحيح واختلاط العادات والتقاليد والثقافة الاستعلائية عند بعض العرب ، الذين يرون أن الشخص ذا البشرة السوداء خُلق في الأصل ليكون عبدًا لغيره ، وتفشى هذا الفكر بينهم ، وفي المقابل لم تكن هذه لدى العرب فحسب ، بل حتى في الغرب .

العرب المسلمون الحقيقيون لا يؤمنون بهذه التفرقة التي تنقص من إسلامهم ، أما العرب المتخاذلون في إسلامهم فمن الممكن أن نجدهم محتضنين هذا التعالي على أصحاب البشرة السوداء .

من ذا الذي يغير حكمة الله على الأرض ، ومن ذا الذي يضع السدود والحواجز أمام فطرة الله التي فطر عليها الخلق ؟

بلا شك إنه جاهل ومفترٍ على خلق الله ، وجاحد على الإنسانية .



العنصرية

ورد تعريف داء العنصرية بأنها مذهب المتعصبين لعنصرهم ، والمقصود هنا جنسهم ومذهبهم ، والتمييز العنصري مذهب قائم على التفرقة بين البشر بحسب أصولهم الجنسية ولونهم ، وتُعرف العنصرية في سطور المنظمة الدولية على أنها أي تمييز أو استثناء أو قيد أو تفضيل مبني على الجنس أو اللون أو الوراثة أو القومية أو الأصل العرقي .

فلا شك أن العنصرية : هي التعصب للقبيلة أو النسب أو اللون ، مع احتقار الطرف الآخر ، والعنصرية تجر بصاحبها إلى الإيمان والتصديق بتفوق جنسي معين أو مجموعة عرقية معينة ، سواء من الناحية الأخلاقية أو الحيوية على باقي الأعراق والأجناس ، وأن المعاملة الطيبة يجب أن تقتصر على فئة معينة دون سواها ، وقد يبلغ التعصب حدًّا متطرفًا فيولد الاضطهاد والازدراء لأفراد أو فئات أخرى .

والذي يحز في النفس أن أغلب مجتمعاتنا العربية ما تزال العنصرية القبلية والعرقية متغلغلة فيها ، لأنها الظاهرة الأساسية التي تتحكم في حركة هذه المجتمعات وهي بلا شك ظاهرة لها عواملها ومسبباتها وأصولها ... ولها دورها ووظيفتها الفردية والاجتماعية .

ترتبط العنصرية في مجتمعاتنا ارتباطًا وثيقًا بنزعة الإنسان نفسه ، بصفة عامة إلى التفاخر والتملك ، الكل يقول : أنا الأساس ، أنا المرجع ، أنا الأسمى ، وهذا هو أساس العنصرية والطائفية والقبلية والتمييز ، وهو أصل ومرجع لأغلب الصراعات بين فئات هذا المجتمع للسعي والتفوق على الآخرين من أبناء نفس المجتمع .

العنصرية ضد اللون أو الجنس أو القبيلة ، تنتشر في الأوساط الاجتماعية في مجتمعاتنا العربية التي لا يرضاها الشرع ولا يقرّها ، ولا شك أن ديننا يؤكد أن قيمة الإنسان عمله وتقواه ، بل تتنافى مع سنن الكون في تحقيق الوحدة والتعايش بين الناس وتناقض كلام الله عز شأنه في كتابه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[1] .

إذن فكم من ضعيف متعصب أو عنصري يقرأ هذه الآية ولا يتمعّن بها ، ألا يعلم أنه إذا ظل متمسكًا بالتفاضل والتفرقة يعتبر مخالفًا لصريح القرآن الكريم .

قد تطبق مسلمات العنصرية وهم لا يشعرون ، فالعنصرية ليست حصرًا على أنساب وألقاب وحضارات ، إنما هي كل ما يُتلفظ به أو يعامل به الطرف الآخر .

ولاشك أن العنصرية جزء لا يتجزأ من أدبيات أغلب المجتمعات العربية ، فهي جزء من العادات والتقاليد التي هي واجب على الأبناء أن يتوارثها من الآباء ، تلك الأفكار الموروثة والمترسبة من زمن بعيد والتي اغتالت مكارم الأخلاق في المهد وما زالت تلازمنا حتى اللحد .

وبعض القنوات الفضائية تفعل وتنمي داء العنصرية ، سواء

---

(١) الحجرات : ١٣.

القنوات الشعبية أو الرسمية ، كالتي تهتم بالشعر والتراث الشعبي ، أصبحت هذه القنوات تستخدم في التفاخر والتمييز والتعصب ، ومن يمثلها مع الانتقاص من الآخرين ويبث التفرقة ويولد العداء .

تطرق البروفيسور (يهودا شنهاف) إلى هذا الداء قائلًا : في كل مجتمع هناك فروقات بين بني البشر ، على أساس البشرة أو تقاسيم الوجه ، أو الجسم ، إلا أن الفروقات لا يمكن أن تكون أساسًا لدونية اجتماعية أو تخلف ثقافي ، تبدأ العنصرية من النقطة التي نبدأ فيها بتصنيف الناس على أساس خصائص بيولوجية ، وحين تنسب إليهم صفات ومواهب متدنية أو راقية .

وأضاف أن العنصرية : هي فعل تخيل إنساني بواسطة خصائص بيولوجية مثل «لون البشرة»، واجتماعية مثل «الفقر» والبلاد الأصلية والطبقة الاجتماعية أو ثقافية مثل «مدى التدين أو كبر العائلة» .

أليست هذه العنصرية والمناطقية في مؤسسات المجتمع ستكون في جانب كبير منها على حساب الكفاءة الوظيفية والأهلية .

إذن أصبح المعيار والمحك هو المناطقية لا الجدارة

والاستحقاق ، وهو ما سينعكس سلبًا على الإنتاج والتنمية في مجتمعاتنا ، التي يجب أن تكون مصلحة الوطن فوق كل هذه الاعتبارات المناطقية ، ناهيك عما ينجم عنه ابتداءً من الظلم وبخس حقوق الآخرين !

من خلال ما سبق يتحتم علينا مجتمعات وحكومات أن نعترف بأن وجود العنصرية كظاهرة بيننا هي داء لا يقل خطره عن بقية المشاكل الأخرى ، كالبطالة والفقر وغيرها ، وهناك عدة أسئلة تراودني ، ولو علمنا بحلولها لنجحنا بالقضاء على ظاهرة العنصرية والنظرة الدونية لذوي البشرة الداكنة :

١ ـ لماذا لا نعمل على تعزيز قيم التسامح ونبذ العنصرية بجميع اتجاهاتها في مختلف مستويات الحياة الدراسية ، وإحداث تغييرات جوهرية في المناهج وطرق التدريس لحماية النشء من خطر العنصرية بشتى صورها ؟

٢ ـ لماذا لا نعمل على توظيف ثقافي وتربوي للإعلام وطاقاته في مواجهة هذا التحدي الخطير الذي يواجه المجتمع إزاء مظاهر العنصرية .. وصوغ قيم تعمل على إيجاد الاحترام الكامل بين

كافة فئات المجتمع لمختلف الثقافات ؟

٣ ـ لماذا لا تُحارب الشعارات التي تُبنى على أسس عنصرية ، ومعاقبة من يرددها وينشرها ، أيًّا كانوا ، أشخاصًا أو جماعات ؟

٤ ـ لماذا لا تعقد ندوات أو مناقشات جماعية لمواجهة ظاهرة العنصرية القبلية وبيان آثارها ، ومن خلالها حل مشاكل المواطنين بصرف النظر عن انتمائهم القبلي أو العشائري ، لتحقيق الاستقرار المنشود بين كافة عناصر المجتمع والقضاء على التوتر والاضطراب ؟

٥ ـ لماذا لا تُدعم نشاطات الأُسر والاتحادات الطلابية .. ويتم تفعيلها داخل المؤسسات التعليمية بالمجتمع ، بحيث تعالج مثل هذه القضايا والمفاهيم الخاطئة عن العنصرية ؟

٦ ـ لماذا لا يتم العمل على تعديل أساليب التنشئة الاجتماعية ، التي تقوم بها الأسرة ، وإكساب الأبناء الاتجاهات الإيجابية تجاه الجماعات الأخرى لتساهم في توقف توارث هذا الداء بين الأجيال ؟

٧ ـ لماذا لا يتم العمل على تشجيع المصاهرة بين القبائل

المختلفة للتخفيف من حدة العنصرية ، وتعميق روح التعاون بين الفئات المختلفة ؟

التفرقة العنصرية :

تقوم التفرقة العنصرية على ادعاء أن شعبًا من الشعوب ، أو جنسًا من الأجناس البشرية ، أو قومًا من الأقوام ، أو قبيلة من القبائل تتميز في صفاتها الجسمية والعقلية عما عداها ، وأنها لذلك صاحبة الفضل في بناء الحضارة الإنسانية والمدنية ومؤهلة من أجل هذا السبب للقيادة والإمارة على الآخرين .

وظهور النزعة العنصرية في وقت ما ، أوفي مرحلة ما .. عند بعض المسلمين لا يدل على أن الإسلام يهادن العنصرية لسبب من الأسباب ، وإنما يدل على ضعف بعض المسلمين ، أو على أن المجتمع يأخذ طريقهُ شيئًا فشيئًا بعيدًا عن الإسلام ومبادئه .

١ ــ التفرقة العنصرية في العرق الحديث :

هو تمييز بين الأجناس في القوانين والمعاملات على أساس الدم والخصائص البيولوجية المعلقة بتكوين الجسم البشري ، وما يتبع

ذلك من الحياة الفكرية ومظاهر السلوك الاجتماعي .

لقد صنف العلماء والباحثون في العلوم الإنسانية الأجناس البشرية إلى جماعات تجمع بين كل منها خصائص ومميزات طبيعية متوارثة ، وإن كان هناك مجال للاختلاف البسيط بين أفرادها ، ومن أبرز هذه الخصائص : لون البشرة وشكل الجمجمة وملامح الوجه وطول القامة .. قالوا : إن هذه الطبيعة يتبعها اختلاف في المواهب العقلية والقوى النفسية وما إليها .

ورأى بعضهم ، أن تقسيم البشر إلى أجناس يرجع إلى الدم نفسه على خلاف فيما بينهم على مقدار نسبة ما يوجد من دم الآباء والأجداد في الإنسان حتى ينسب إلى هذ الجنس ، وعلى أساس هذا التقسيم العنصري قرر الباحثون أن هناك امتيازًا لبعض الأجناس الأخرى التي لا ينبغي أن تدخل معها [illegible] ذه القوانين وتلك المعاملات .

٢ ـ التفرقة في النظم القديمة :

إن فكرة التمييز بوجه عام بين بني الإنسان فكرة قديمة ، ضرورة اختلاف الناس بعضهم عن بعض ، في القوة الجسمية ،

والمواهب العقلية ، والمظاهر المادية ، والتي كان من أثرها استعلاء بعضهم على بعض ، واستغلال القوي منهم الضعيف ، وتحكّم الغني في الفقير ، وسيطرة العالم على الجاهل ، والتي كان من أكبر مظاهرها الرق .

أ ـ الهند كانت كتبهم المقدسة تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم التي خلقوا منها في زعمهم ، جاء فيها أن «الشانري» من ذراعه ، وهم الذين يتولون الوظائف الحربية ، وخلق فصيلة «الفيشائيين أو الفشا» من فخذه ، وهم الذين يقومون بالتجارة والإنتاج . وخلق فصيلة «السود» رائبين و«المنبوذين» من قدمه . وهؤلاء لهم خدمة واحدة هي خدمة الطبقات السابقة .

ب ـ كان اليونان يعتقدون أنهم شعب مختار ، خلقوا من عناصر تختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى ، التي كانوا يطلقون عليها اسم «البربر» وقد قرر أرسطو في كتابه «السياسة» أن الآلهة خلقت فصيلتين من الأناسي : فصيلة زودتها بالعقل والإرادة ، وهي اليونان . فطرتها على هذا التكوين الكامل لتكون خليفتها في الأرض وسيّدة على سائر الخلق .

وفصيلة لم تزودها إلا بقوة الجسم وما يتصل اتصالا مباشرا به ، وهم البرابرة ، أي ما عدا اليونان في بني آدم ، وقد فطروا على التقويم الناقص، ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة . وكانوا يقرون الرق الذي يقول فيه أرسطو : إن الرقيق آلهة ذو روح ، أو متاع تقوم به الحياة ، منهم لا يدخلونه في عداد المخلوقات الإنسانية .

ج ـ كان الرومان يعتقدون كما يعتقد اليونان أنهم سادة العالم ، وأن غيرهم برابرة خدم لهم وكانت قوانينهم تقر الرق ، وتعامل الرقيق على أنه متاع ، مدعين أن استعباده رحمة به من القتل الذي تتعرض له الحيوانات ، ولم تكن للرقيق حقوق قانونية ولا مدنية ، ولا يستطيع أن يقاضي سيده أو يتظلم من معاملته ، بل إن لسيده الحق في قتله دون مجازاة ، ولم يخفف من حدة هذه المعاملة الدين المسيحي الذي اعتنقه الرومان فيما بعد .

د ـ العرب في الجاهلية كانوا يعيشون على التفاخر بالأحساب والأنساب ، ويعتقدون أنهم أفضل من غيرهم الذين كانوا يطلقون عليهم اسم العجم ، ولعل ذلك كان أساسه اعتزاز

العربي بلغته الفصيحة التي لا يوجد لها مثيل بالعالم .

وكانوا بناء على ذلك يكرهون أن يتلوث دمهم العربي النقي بدم غيرهم عن طريق الزواج ، ويأنفون أن يزوجوا بنتًا من بعض قبائلهم كباهلة وسلول إلى أعجمي حتى لو كان (كسرى) نفسه .

المسيحية أقرت الرق كما أقرته اليهودية ، وقد جاء في المعجم الكبير للقرن التاسع عشر (لاروس) : لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستقراره بين المسيحيين إلى اليوم ، فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته . وجاء فيه :

الخلاصة أن الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق تماما إلى يومنا هذا ، ويتعذر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله . كما أثبت ذلك أيضا في (قاموس الكتاب المقدس) .

٣ ـ العلم والتفرقة العنصرية :

إن تقسيم البشر إلى أجناس على أساس الدم أو التكوين الطبيعي للجسم قد قرر العلماء المنصفون أخيرًا أنه تقسيم باطل ، فإن مظاهر التقدم والرقي الموجودة عند بعض الجماعات لا يرجع سببها إلى ذلك ، وإنما يرجع إلى عوامل البيئة الطبيعية والظروف

السياسية والأوضاع الاقتصادية والإجراءات الثقافية ، وقرروا أنه لو وضع شخصان من جنسيتين مختلفتين في بيئة حضارية وثقافية واجتماعية واحدة ، ما كان هناك فرق يذكر بينهما في الفكر والسلوك ، وكم تقدم أفراد من أناس ملونين على أفراد من البيض في الجامعات ، وفي النشاط الاجتماعي العام ، وذلك عندما تهيأت لهم الظروف التي تهيأت لغيرهم من الناس ، ومن هنا لا تكون وراثة الخصائص البيولوجية مانعة من التقدم والحضارة عندما تتوافر الظروف للتطور والنهوض ، فإذا كان هناك تخلف حضاري عند سلالة من السلالات فمردّه إلى العوامل الطبيعية والاقتصادية والثقافية والسياسية وما إليها .

٤ ـ الاهتمام بالأبحاث العنصرية :

إن الاهتمام بالبحث في الأجناس وخصائصها ومميزاتها لم يأخذ شكلا واضحًا إلا في العصور المتأخرة ، حيث غلبت على بعض الأمم القوية نزعة الاستعمار والاستغلال للأمم الضعيفة المتخلفة ، أرادت به الدعاية لجنس معين ، أو لفكرة سياسية يمكن عن طريقها التحكم في الأجناس الأخرى ، وكثيرا ما لجأت هذه

الأفكار إلى الدين تستمد منه تأييدا لها ، كالصهيونية التي ادعت أنها شعب الله المختار ، ولقد ظهرت هذه النغمة بالذات في أوروبا في العصر الحديث ، فبعد أن كانت دولها لا تفرق بين مسيحي وغير مسيحي ، وبعد أن كان يفاخر بعضها على الآخر بالأخلاق والآثار ، أصبحت تتحدث عن الأجناس وخصائصها .

٥ ـ آثار النزعة العنصرية :

لقد سخر المستعمرون والمستغلون علماءَهم لتبرير نقاء الجنس الأبيض ، وإثبات خصائص للألوان والأجناس ، فزعموا أن الأجناس أربعة هي : البيض والسود والصفر والحمر ، وأعلاها جميعا الجنس الأبيض . ولقد علمت أن العلماء المنصفين أثبتوا أن هذه الأجناس لم يعد لها وجود متميز الآن ، فقد تداخلت وتلاقت بعوامل مختلفة ، وانتقلت خصائص بعضها إلى بعضها الآخر ، ولم يبق في الأجناس الصافية إلا قلة ضئيلة في الهنود الحمر ، وفي وسط أفريقيا ، وحوض الأمازون ، وبعض جزر الباسفيكي ، وأهل أرض النار في جنوبي قارتي العالم الجديد .

قال المستعمرون : إن السود والهنود الحمر ليسوا من نسل

آدم ، فروحهم مشتقة من أصل أقل من الإنسان ، وفي معمعة التطور الصناعي ومعاملة الطبقات العاملة نشأت نظرية «داروين» في تطور النوع وبقاء الأصل ، وسادت نظرية «مندل» في الوراثة ، وظهرت مؤلفات كثيرة تبحث عن فكرة عدم المساواة بين الأجناس البشرية وعن سيادة الجنس (الآري) .

وتكونت مدرسة لها نظرياتها تزعمها الكونت «جوبينو» الفرنسي ، وكذلك «فانجر» الموسيقي الألماني ، ومثله «ستيوارت شامبرلين» الإنجليزي ، وأيضا «لوترو بستودارد» الأمريكي ، وهؤلاء قالوا : إن الجنس الأبيض وحده منشئ الحضارة ، وهو الجنس الآري المنحدر من شمالي الهند والقوقاز ، كما ظهرت نغمات : الشرق شرق ، والغرب غرب . ولن يلتقيا .

من هذا التزييف للحقائق العلمية والتحيّز الظاهر في الأحكام على الأجناس البشرية الذي كان أثرًا من آثار النزعة العنصرية ، كانت هناك آثار واضحة تطبيقية لهذه النزعة .. من أهمها :

أ ـ استعمار البيض للملونين ، وكسبهم مزايا سياسية واقتصادية انتعشت بها أوروبا ، وفكت بها أزمتها ، وكثرت تبعًا لذلك رءوس

الأموال الأجنبية في البلاد المستعمرة ، واستنزفت ثرواتها . كما كان من لوازم الاستعمار تخصيص محاكم ومصحات ونوادٍ وغير ذلك للسادة المستعمرين لا يتمتع بها الملونون .

ب ـ احتقار البيض لغيرهم واستخدامهم المزري لهم ، كما كان يحدث في الهند ؛ فقد كان الإنجليزي يركب على ظهر الهندي ليستطيع أن يمتطي جواده ، وفي الصين كان يجبر الصيني على جر العربة بالسائحين كالدابة سواء بسواء ، وقد كتبت لافتات على بعض الحدائق العامة في (شنغهاي) مدينة الامتيازات الأجنبية عبارة : «محظور على الوطنيين والكلاب دخول هذا المكان» .

ج ـ العزل الاجتماعي والسياسي لأهل البلد ، وعدم تمكينهم من ممارسة نشاطهم في هذه المجالات كما يظهر ذلك في جنوبي أفريقيا وروديسيا .

د ـ إبقاء المواطنين على التأخر والجهل والانحطاط ، وذلك يمكن للأجنبي التسلط عليهم ، فإن من المقرر عند المستعمرين أن تقدم الأهالي يخلق فرصة للمطالبة بالحرية والاستقلال ، ولا شك

أن ذلك كله يهدد الأمن الداخلي للبلاد في أن تمارس التفرقة العنصرية ، ويزعزع أركان السلام العالمي ، ويثير الفتن والحروب بين الدول .

٦ ـ أمثلة من مظاهر العنصرية الحديثة :

على الرغم من إصدار القرارات ضد التفرقة العنصرية في المؤتمرات الدولية المتعاقبة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، كان آخرها اتفاق عصبة الأمم سنة ١٩٢٦م ، الذي وقعه ثمان وثمانون دولة ، وعلى الرغم من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أعلنته الأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨م . فإن التفرقة العنصرية ما زالت تمارس في بعض الدول الحديثة .

ومن أبرز مظاهرها ما يوجد في أمريكا وجنوب أفريقيا ..

أ ـ في أمريكا الآن حوالي عشرين مليونا من الملونين :

ويقطن أكثرهم في الولايات الجنوبية ، وقد قامت حرب أهلية بين الشمال والجنوب منذ سنة ١٨٦٠م إلى سنة ١٨٦٥م

بزعامة «لنكولن» صاحب فكرة تحرير العبيد ، وقد قتل لنكولن على يد عنصري متعصب اسمه «بوث» في ١٤ من أبريل سنة ١٨٦٥م ، كان الجنوب مصرًّا على الإبقاء على التفرقة العنصرية لضمان استخدام الرقيق في مزارعه ، وكان الشمال يصرّ على تحريره ، ليتمكن من الهجرة إلى الشمال ويعمل في مصانعه ، ومن هنا يُعرف أن هذه الحرب كانت اقتصادية استغلالية ، وليست ثورة من أجل الكرامة الإنسانية .

وإذا كانت الحرب قد انتهت بتقرير المساواة ، فإن التفرقة مازالت تمارس عمليًّا ومنصوصًا عليها في قوانين بعض الولايات ، ففي دستور ولاية «مسيسبي» في الفصل الثامن في التربية والتعليم (مادة ٢٠٧) :

يراعى في هذا الحقل أن يفصل بين أطفال الزنوج ، فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة :

وفي الفصل الرابع عشر أحكام عامة ، مادة ٢٦٣: أن زواج شخص أبيض من شخص زنجي يعد غير شرعي وباطلًا ، بل جاء في قانون هذه الولاية أن الذي يطالب بالمساواة الاجتماعية والتزاوج بين البيض والسود بالطبع أو النشر أو أية وسيلة يعتبر عمله

جرمًا يعاقب عليه القانون .

وهذه التشريعات تطبق في عدة ولايات أمريكية ، كما جاء في تقرير قدم إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، تحت عنوان «نداء إلى العالم» .

على أن الكنيسة نفسها شاركت في إقرار هذا الظلم ، فإن للزنوج كنائس خاصة ، ولا يصح أن يعبدوا ربهم في كنائس البيض ، مع أن الذي خلقهم جميعا واحد هو الله سبحانه .

وقد تأسست في الجنوب جمعية (كلوكس كلان) لإرهاب الملونيين ، وانتشرت في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، وهي قائمة على أنقاض جمعية لإرهاب الكاثوليك ومنع هجرتهم .

(ما زالت حوادث التفرقة في أمريكا دليلا على أن هذا العالم الذي يدّعي حماية الحريات ويعيش على النفاق والخداع ، بعيدًا عن مقررات الأمم المتحدة وعن قواعد الأخلاق والإنسانية)

ب ـ في جنوب أفريقيا تفرقة عنصرية جارفة :

أحتل الهولنديون الذين يطلق عليهم «البوير» أي الفلاحون ، وأسسوا مدنية رأس الرجاء الصالح سنة ١٧٥٢م ثم احتلها

الإنجليز سنة ١٨٠٦م، وطاردت البوير إلى ناتال ثم أورانج والترنسفال، وكان البوير قد جلبوا عمالًا من الملايو والهند للزراعة ولا يعترفون لهم بحقوق كحقوقهم، ولما غلب الإنجليز على هذه البلاد مكّن رجالهم لاستعمارهم حتى تكون اتحاد جنوبي أفريقيا سنة ١٩١٠م بعد حروب طويلة كان من أشهر رجالها «سيسل رودس» الذي حاول خلق حياة أفضل للبيض على حساب الأفريقيين، فكانت التفرقة العنصرية التي تحاول إنجلترا أن تعمل شيئًا للحد منها.

لقد كان في جنوبي إفريقيا حسب إحصاء سنة ١٩٥٢ نحو ١٤ مليونا، منهم ١٠٪ أفريقيون، ٣٪ أوروبيون، ومليون من الملونين، ونصف مليون من الآسيويين..

ومع ذلك يتحكم الأوربيون في بقية السكان، مطبّقين التفرقة العنصرية بأشد مظاهرها، تلك المظاهر التي تبدو في: تقييد حرية التعاقد على العمل للملونين، وعدم زيارتهم للمدن إلا لمدة اثنتين وسبعين ساعة.

ووجوب الحصول على إذن فيما زاد على ذلك، وتحديد عدد

المقيمين في المدن ، ومنع دخول كنائس البيض ، ومنع التزاوج بين الأوروبيين وبينهم ، وتحديد عدد تلاميذ المدارس من الأفريقيين ، وحرمانهم من الحقوق السياسية .

وقد أثيرت مشكلة هذه التفرقة في هيئة الأمم سنة ١٩٤٧م ، غير أن إنجلترا وأمريكا ضغطتا على الأعضاء فلم يفز القرار بالأغلبية المطلوبة ، وقامت ثورات تطالب بمنع هذه المعاملة القاسية ولكنها لم تجد أذنًا مصغية .

في أول أبريل سنة ١٩٦٠م أصدر مجلس الأمن قرارا بدعوة جنوب أفريقيا لنبذ سياسة التفرقة العنصرية ، كما أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١١ من أكتوبر سنة ١٩٦١ قرارا بلومها ، ومع ذلك لم تستجب الحكومة لهذا كله ، وقد دعا إلى إصدار هذه القرارات توالي حوادث العنف ، وكان من أهمها حادث (شارب فيل) في ٢١ من مارس ١٩٦٠ عندما احتج الأفريقيون على نظام تصريحات المرور ، فأطلق البوليس النار عليهم وقتل منهم عددًا كبيرًا .

فلسفة الإسلام في رفضه للتفرقة العنصرية :

أ ـ أقر الإسلام أن الناس جميعهم مخلوقون من أصل واحد ..هو التراب قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1] وقال : ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[2]. وجعل حياتنا كلها ونشاطنا في جميع المجالات مرتبطًا بالأصل الذي خلقنا منه وهو الأرض ، ووثق صلتنا بكل ما يعيش عليها من حيوان ونبات ، فهي أُمّنا جميعًا ونحن لها أبناء ؛ لم يُخلق واحد منها من غير تربتها ، ولم يعش واحد منا على غير خيرها ، ولم يدفن واحد منا في غير بطنها .

ب ـ أقر الإسلام أيضا أننا مولودون من أب واحد هو آدم ، ونحن إخوة في هذه الأسرة الإنسانية الواسعة ، وإذا كان لبعض أفرادها نوع امتياز بلون أو شكل أو نشاط ، فذلك لا يفضي من

---

(١) نوح : ١٧، ١٨.
(٢) طه : ٥٥.

قيمته في أنه يشكل ركنا أساسيًّا في تآلف هذه المجموعة وتضامنها في عمارة الكون وتحقيق الخلافة في الأرض، كما يعبر بعض الكاتبين عن ذلك بقولهم : الإنسانية كلها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها وما يفوح منها من عطر دون أن يكون للون أو رائحة انفصال عن الآخر في إبراز بهجة هذه الحديقة، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾[1] .

وقال النبي ﷺ : «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب» . رواه أبو داود والترمذي وحسنه .

ج ـ أقر الإسلام أن الناس جميعًا مخلوقون لخالق واحد هو الله سبحانه، فمبدؤهم منه خلقًا، ونهايتهم إليه بعثًا وحسابًا ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] .

---

(١) النساء : ١.

(٢) يس : ٨٣.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾(١) . فهو وحده المحيي والرازق والمميت وإليه النشور ، ونحن مدينون له بهذا كله وليس له شريك فيه ، ومن هنا لا يكون لأحد فضل على الآخر في هذه النواحي الجامعة لمسيرة الحياة من مبدئها إلى منتهاها وما يجري بينهما .

د ـ جعل الإسلام الناس موزعين إلى مجموعات نسبية على الرغم من اتفاقهم في هذه الأصول ، وذلك ليتميز بعضهم عن بعض ، ولتُعرف الحقوق وتحدد الواجبات ، ويسهل تنظيم أمر الجماعة . فهذا الإجراء تنظيمي بحت ، لا يمس جوهر المساواة الحقيقية في الأصول المذكورة ، وهذا التوزيع نعمة من نعم الله ، لأنه مقتضى النظام ، والنظام تستريح له النفس ويطمئن إليه القلب قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢) .

---

(١) الروم : ٤٠.

(٢) الحجرات : ١٣.

كما أن تقسيم الشعوب إلى ألسنة وألوان دليل على قدرة الله وتمام إرادته وامتيازه في خلقه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] .

هـ ـ جعل الإسلام هناك تفاوتًا في المعاملة بين البشر ، لا على الجنس أو اللون أو اللسان ، بل على أساس الكماليات النفسية ، والأخلاق الطيبة ، والعمل الصالح ، القائم على الإيمان بالله ، فالطبيعة البشرية واحدة وإن كان هناك اختلاف فهي أمور عارضة كتأثير البيئة ، وعدم إتاحة الفرصة للبعض أن يكمل نفسه .

حارب الإسلام أن يكون هناك تفاوت في المعاملة على غير هذا الأساس كما تدل عليه آية «الحجرات» السابقة وحديثه ﷺ : «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» رواه مسلم . وحديث : «ليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية» رواه أبو داود . وحديث : «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» رواه البخاري ومسلم . والنصوص في ذلك كثيرة .

تطبيقات عملية للقضاء على العنصرية :

من التطبيقات العملية لجعل التفضيل بين الناس على أساس المزايا الدينية والخلقية بعيدا عن اعتبار الجنس والنسب تساوي الناس في التوجه إليهم بالخطاب للقيام بالتكاليف الدينية، ووقوفهم متساوين في الصلاة أمام الله دون تميز على أساسها يفرقون بين قبيلة وقبيلة، ومن ذلك وقوفهم بعرفة بعد أن كان بعضهم في الجاهلية يقف في المشعر الحرام ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[1] .

ومنها أن أعظم المناصب الدينية في المسجد النبوي أوكلها النبي ﷺ لبلال الحبشي، حيث جعله رسول الله ﷺ مؤذنا للصلاة .

ومنها قول النبي ﷺ عن سلمان : «سلمان منا أهل البيت» . مع أنه فارسي، لكن شرفه عمله وإيمانه وإخلاصه، وذلك لما رأى المسلمون قوّته في حفر الخندق، وقال المهاجرون : سلمان منا .

---

(١) البقرة: ١٩٩.

وقال الأنصار : سلمان منا[1] .

ولما رَمَى مسلم مشركًا يوم أحد وقال : خذها وأنا الغلام الفارسي . نهاه النبي ﷺ عن هذا القول الذي يشعر بالعصبية الجاهلية ، وأرشده إلى قول مستمد من وحي الدين فقال له : «هلا قلت : وأنا الغلام الأنصاري» رواه مسلم .

ومنها تولية زيد بن حارثة قيادة الجيش ، وكذلك تولية ابنه أسامة أيضًا ، وفي حينها كان خيار المسلمين من العرب ، وزيد كان رقيقًا ثم أعتقه النبي ﷺ وزوجه من زينب القرشية التي صارت بعد ذلك من أمهات المؤمنين .

ومنها قوله : «اسمعوا وأطيعوا وإن ولّي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» رواه البخاري . **وتطبيقًا لذلك قال عمر : (والله لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا ما جعلتها شورى)** . أي : لأسندت الخلافة إليه . وسالم كان مولى لأبي حذيفة ، وأمر أن يتولى الصلاة صهيب الرومي ، وكان صهيبًا عبدًا أسر في بلاد الروم ثم بيع في بلاد العرب .

---

(١) الزرقاوي على المواهب .

وتزوج بلال من أخت عبد الرحمن بن عوف وهي قرشية .

وأعتق الحسين بن علي جارية ثم تزوجها ، وعندما علم معاوية بذلك عاب عليه ، فرد عليه الحسين بقوله : (قد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنه النقيصة ، فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر مأثم وإنما اللوم لوم الجاهلية) .

وقد كان أكثر العلماء الأفذاذ الذين خدموا الإنسانية من غير العرب ، ومن العناصر المختلفة ، والألوان المتباينة التي صهرها الإسلام ، وأخرج منها نماذج موحدة للمسلم الكامل الذي يردد هذا الشعار :

أبي الإسلام لا أب لي سواه　　إذا افتخروا بقيس أو تميم

بل إن عمر ﷺ لما تلقاه نائب مكة أثناء الطريق في (حج أو عمرة) ، قال له : من استخلفت على أهل الوادي ؟ فقال : ابن أبزى . قال : ومن أبن أبزى . قال : رجل من الموالي . قال عمر : أما أني سمعت نبيَّكم يقول : «إن الله يرفع بهذا العلم أقوامًا ويضع به آخرين»[1] .

---

(١) الباعث الحثيث ، ابن الأثير .

وذكر الزهري أن هشام بن عبد الملك قال له : من يسود مكة ؟ فقلت : عطاء . قال : فأهل اليمن ؟ قلت : طاوس . قال : فأهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : فأهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : أهل البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن . قال : فأهل الكوفة . قلت : إبراهيم النخعي . وذكر أنه كان يقول له عند كل واحد : أمن العرب أم من الموالي ؟ فيقول : من الموالي . فلما انتهي قال : يا زهري ، والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب في تحتها . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو أمر الله ودينه ، فمن حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط(١) .

وأخبار المساواة في الحقوق والواجبات والمعاملة وأمام القضاء كثيرة مشهورة ، من أبرزها حادث المخزومية التي أراد أسامة أن يتشفع في إسقاط حد السرقة عنها ، فغضب النبي ﷺ وقال : «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذي نفس

(١) الباعث الحثيث (٢٤١-٢٤٢) .

محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» رواه البخاري ومسلم .

٨ ـ نظرة الإسلام إلى الرق :

يظهر موقف الإسلام جليًا في محاربته للتفرقة العنصرية في تشريعه الحكيم لإبطال الرق يتمثل في ثلاثة إجراءات رئيسة وهي :

أ . تضييق باب الرق الذي كان متسعًا جدًّا قبل الإسلام ، من حرب وخطف وشراء وغير ذلك ، وحصره في مورد واحد ؛هو الأسر في الحروب المشروعة إذا رأى الإمام أن يضرب الرق على الأسرى . والأسر مبدأ معمول به قديمًا وحديثًا ، وله أثره عند التصالح وتبادل الأسرى ، ولم يكن الشراء طريقًا لامتلاك الرقيق إلا في عهد معاوية .

ب . فتح الأبواب الواسعة لتحرير الرقيق ، وإيجاد منافذ كثيرة للانطلاق من الرق إلى الحرية ، فحثت النصوص على العتق في كثير من الأحاديث ، وجعلته كفارة لكثير من الأخطاء كالقتل

الخطأ، والإفطار في رمضان، والحنث في اليمين والظهار، وشجع على مكاتبة الرقيق وتيسير دفع ما يلزمه. وأباح التسري بالإماء دون تحديد بعدد، وليس هذا إطلاقًا للمتعة الجنسية؛ بل للحصول على حرية الإماء إذا حملن من السادة وولدن؛ فإنهن يعتقن بعد موتهم، وكذلك ليسري الدم العربي إلى غيره من الأجناس الأخرى التي كان منها الأسرى[١].



(١) «موسوعة أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام» الجزء السابع.

التميز العنصري

كان الإسلام الرحمة المهداة إلى البشرية ، فهو رسالة المحبة والعدالة والحرية والمساواة للناس أجمعين ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وفي زمن كان التمييز العنصري والطبقي والعرقي صاحب الحظ الأوفى والعنوان الأعرض في شبه جزيرة العرب .

فهو ابتداء يدعو إلى اعتماد لغة التعارف والحوار بين بني البشر بدل لغة الأنياب ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[2] وهو تاليًا أرسى قاعدة المساواة الحقيقية بين الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وأطيافهم .. ولقد توج رسول الله

(١) الأنبياء : ١٠٧.
(٢) الحجرات : ١٣.

ﷺ ذلك في خطبة حجة الوداع حيث قال : «أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى» .

الإسلام أسقط دعاوى المفاضلة بين الطبقات عبر قاعدة قل نظيرها في معظم الشرائع والقوانين الوضعية ، إلا ما كان مقتبسًا من الإسلام ، وهي قاعدة «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد» حين فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص ، رغب المقوقس عظيم الأقباط في المفاوضة ، فأرسل إليهم ابن العاص وفدًا قوامه عشرة أشخاص برئاسة عبادة بن الصامت ، وكان شديد السواد . ولما دخل الوفد على المقوقس تقدمهم عبادة ، فأبى المقوقس أن يكلم رجلًا أسود ، وقال للوفد : نحو عني هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمني ، فقالوا : «إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا وإنما نرجع إلى قوله ورأيه ، وقد أمره علينا الأمير ، وأمرنا ألَّا نخالف رأيه» . وقوله : «فقال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون

أدناكم ؟ قالوا : كلا وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعًا ، وأفضلنا سابقة وعلمًا ورأيًا ، وليس ينكر السواد فينا . عندها قال المقوقس العبارة : «كلمني يا هذا ولكن برفق فإني أخاف سوادك» .

وأيضًا «أبو ذر الغفاري» عيّر بها بلال بن رباح الحبشي بأمه السوداء ، حيث ناداهُ : يا «ابن السوداء» . فلما غضب رسول الله ﷺ من فعلته ، وضع أبو ذر رأسه على الأرض وطلب من بلال أن يدوس عليها بقدمه ، تكفيرًا عن خطيئته .

الإسلام منهج إنساني لا مكان فيه للتعصب أو العصبية ، فإنسانيته فوق كل العبارات الطائفية والمذهبية والقبلية والقومية ، وصدق الرسول ﷺ حيث يقول : «أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب» .

إنسانية الإسلام بلغت مبلغًا لا يُرقى إليه ، حيث ساوت في العطاء بين عموم الناس ، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ، حين سجل الخطاب القرآني سبقا في الانفتاح على الآخر ، تعارفًا

وحوارا وتعاونًا من خلال قوله ﷺ : «الخلق كلهم عيال الله ، أحبهم إليه أنفعهم لعياله»[1] .

محاربة التمييز العنصري ضد الأقليات بين الإسلام والقانون الدولي العام :

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2] .

إننا نجد العالم اليوم كله مفتونا بمواثيق واتفاقيات حقوق الإنسان الدولية والإقليمية ، التي تصدر لتعالج أمورًا عدة تمس قضايا الإنسان عامة ومنها ما تعالج مسألة الأقليات ، في حين نجد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عن الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م والذي يحتوي على ثلاثين مادة ، وأسباب صدور هذا الإعلان مبررات ظهوره

---

(١) رواه البزار والطبراني في معجمه .

(٢) النساء : ١.

جاءت في مقدمته والتي من أهمها :

١. ارتباط كرامة الإنسان وحقوقه ، بالحرية والمساواة والعدل والسلام في العالم .

٢. ضرورة الحماية القانونية لحقوق الإنسان .

٣. تعهد الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة بالتعاون في سبيل مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها .

٤. دعوة جميع دول العالم إلى الاهتمام بهذا الإعلان ، والعمل من أجل توطيد احترام الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية ، واتخاذ إجراءات مناسبة على مستوى الدول وعلى المستوى العالمي والذي مما جاء فيه :

المادة الأولى :

يولد جميع الناس أحرارًا متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلًا وضميرًا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء .

المادة الثانية :

لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في

هذا الإعلان ، دون أي تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين والرأي السياسي ، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد ، وفضلًا عما تقدم فلن يكون هناك تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني ، أو الدولي للبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد ، سواء أكان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلًّا أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود .

المادة السابعة :

كل الناس سواسية أمام القانون ، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة منه دون أي تفرقة ، كما أن لهم جميعًا الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز يخل بهذا الإعلان ، وضد أي تحريض[١] .

الإسلام كرم الإنسان وأثبت له هذه الكرامة والمنزلة بإثباتات شتى ، فهو أكرم مخلوق على وجه هذه البسيطة ، خلقه الله تعالى في أحسن صورة وأحسن تقويم .

---

(١) محاربة التمييز (أبو مالي نذير) .

إننا لا ننكر على الإنسان المطالبة بحقوقه ، ولكن ننكر عليه نسيان واجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه ، سواء كان فردًا أم جماعة .

إن من يطالب المجتمع بحفظ حقوقه إنما هو في حقيقة الأمر يطالب نفسه بهذه الحقوق ، وإذا هضمت حقوقه فهو الهاضم لها ، ولذلك وجب عليه المطالبة بالحقوق أيضا ، وأن يقوم بواجباته ، وهذا لا يكون إلا في مجتمع متزن منتظم .

الحقوق في القرآن الكريم لم يأت ذكرها بصفة حقوق بل بصفة واجبات وتكاليف ، وإذا كان الكثير من الناس يعيش مستنفذًا جهده وطاقته في المطالبة بالحقوق ولا يقنع بما يحصل عليه مهما أخذ ، فإن الحقوق ليست غايات يسعى إليها الإنسان لذاتها ، وإنما هي وسائل تمكن الإنسان من أداء واجباته في الحياة ، وإذا كان بعض الناس يمضي في هذه الحياة كما تمضي البهائم والأنعام ، فإن الحياة لا تعلم بوجوده ولا تحس به حين موته .

فإن قيمة الإنسان الحقيقية فيما يتركه من آثار وما يجده في مظاهر تلك الحياة وفي إسهامه الإيجابي من أجل خدمة مجتمعه

وأمته دينيًا وخلقيًا وعلميًا وماديًا ، ولولا هذا ما امتاز الإنسان على سائر مخلوقات الله ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] .

ونجد رسول الله ﷺ في حجة الوداع قد أرسى قواعد سبق بها الإعلانات والدساتير العالمية لحقوق الإنسان فقال : «أيها الناس ، إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه» ، فلفظ «الناس» عام للمسلمين وغير المسلمين ، ولذلك ثنى في خطبته ﷺ بقوله : «كل المسلم على المسلم» وهذا فيه دليل على أن المقصود في صدر الحديث البشر أجمعين .

وعليه فقد أردت معالجة ظاهرة أصبحت تمثل نقطة ضعف قد يؤتى منها الكثير من البلاد الإسلامية ، والمتمثلة في قضية الأقليات والتي لا تكاد تخلو منها دولة إسلامية ، بداية من الأقلية الدينية

---

(١) الإسراء : ٧٠.

إلى العرقية إلى اللغوية . وخاصة ما أصبح يميز العلاقات الاجتماعية والتجارية بين المسلمين في البلاد الإسلامية ، منع غير المسلمين من جراء التعصب أحيانا والذي رده بالأساس الجهل بديننا ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية أردت إبراز مدى جدية الإسلام في التعامل مع هذه الفئة من المواطنين والمكانة التي أعطيت لهم والذي لم يعتبرهم كمًّا بشريًّا مهملًا ، بل أدمجوا في الحياة الإسلامية مع بقائهم على دينهم ، وهذه النقطة قد تكون إحدى نقاط الارتكاز للتأسيس الفعلي لحوار حضاري مع الغرب ، وقد تناولت هذا كله في إطار من خلال النصوص سواء في الإسلام من القرآن والسنة أو في القانون الدولي العام من خلال المواثيق والمعاهدات الدولية ، والتي كانت وما زالت تصدر في المسألة ذاتها ، وهذا الصدور المتتالي بقدر ما هو مسايرة للأحداث وللمستجدات بقدر ما يكشف لنا عن عورات كثيرة للفكر البشري وخلود المبادئ الإسلامية الكلية والتي ما زالت صالحة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا خلت .



معنى التميز العنصري في الإسلام

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا الأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، أبلغت ؟» . قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ، ثم قال : «أي يوم هذا ؟» . قالوا : يوم حرام . ثم قال : «أي شهر هذا ؟» . قالوا : شهر حرام . قال : «ثم أي بلد هذا ؟» . قالوا : بلد حرام . قال : «فإن الله حرم بينكم دماءكم وأموالكم»

(١) الحجرات : ١٣.

قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، أبلغت ؟» قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ، قال : «ليبلغ الشاهد الغائب»[1] .

تاريخنا الإسلامي حافل بالنماذج الإنسانية في المساواة بين بني البشر ، مساواة في المعاملات وأمام القضاء وفي التعليم والتعلم لا تفريق بين الأفراد بسبب الانتماء العرقي أو الديني أو بسبب الوضع الاجتماعي ، والتاريخ الإسلامي حافل بأسماء كثيرة تنتمي لأجناس كثيرة وبلاد وأديان عديدة سواء في العلم أو في السياسة .

فالمساواة بين البشر من أهم تعاليم الإسلام ، وعليه فالتمييز العنصري كما يراه علماء المسلمين هو التفريق بين جنس وجنس ، أو عرق وعرق ، أو لون ولون بين الناس .

محاربة التمييز العنصري في الإسلام :

إن ديمومة وخلود المبادئ الإسلامية مستمد من كونها لم

---

(١) رواه أحمد .

تكن مغلقة على مجتمع أو عنصر أو فئة أو جنس معين ، وإنما هي عامة لكل الناس ، ثم لأنها مستمدة من خلود شريعة الله الدائمة إلى يوم القيامة التي جاءت منادية بالمساواة ، بل وأكثر من ذلك ، جاءت منادية بالعدل ، وذم التمييز بين طبقات وفئات المواطنين ضعيفهم وقويهم ، كافرهم ومؤمنهم ، كبيرهم وصغيرهم ، عربيهم وأعجميهم ، لا تفاضل وتمايز إلا بالعمل الصالح بتقوى الله عز وجل وبمدى تقديم المنفعة والخير للبشرية ، ذلك الخلود القائم على المبادئ الكلية والقواعد الشاملة والضوابط المرنة ، وهذا بسبب كونها متجردة لا تراعي المؤمنين بها إذا تصادمت القضايا مع مبدأ العدل والحق مع غير المسلمين ، وهي أيضا متفتحة لا تقتصر على بلد أو إقليم ، وهي بالمعنى الشامل إنسانية عالمية ؛ ليست كما قد يتصور بعض الكاتبين لمعالجة أمراضها وعصبيات وقبليات العرب في ربوعهم ، فإن مثل هذا التصور يعصف بالإسلام من جذوره ، لأنه خاتمة الشرائع ، وعام النزعة يشمل كل العوالم والأجناس بصريح النصوص القرآنية ، وعليه ، فإن تجاوز قيم الإسلام في عالمنا يسهم بقسط كبير في إبقاء التخلف ويعوق كل نهضة وتقدم ، لم تقم نهضات العالم إلا

بالتزام دقيق وتطبيق صارم شديد لمثل هذه القيم الخالدة .

محاربة التمييز العنصري في القانون الدولي :

إن العنوان أعلاه حامل لصفة التجريم ، فكلمة «محاربة» تقضي بأن هناك جريمة واقعة وسالبة لحقوق الأفراد أو الجماعات فوجب مقاومتها ومحاربتها ، وهي في أكبر المشكلات التي تواجهها الأقليات اليوم وفي كل المجتمعات تقريبا ، إنها جريمة التمييز العنصري بين مواطني الدولة الواحدة والتحريض عليها ، الأسباب كثيرة من مواثيق واتفاقيات كثيرة صادرة عن منظمات وهيئات دولية وإقليمية ، والتي أكدت على أن التمييز العنصري القائم على أساس الدين أو العرق أو الجنس أو اللغة أو اللون هو وصمة عار وإهانة لكل الإنسانية أولًا ، وانتهاك صارخ لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية التي أقرتها المواثيق والاتفاقيات التي كانت تصدر ، والتي كان في أبرزها إعلان الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري سنة ١٩٦٣م والاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري سنة ١٩٦٥م والإعلان العالمي للقضاء على التمييز العنصري بكل أشكاله سنة ١٩٨١م ، وعليه

فقد قسمت هذا الفصل إلى مطلبين :

المطلب الأول : أسباب التميز العنصري :

قد يكون التمييز العنصري لأسباب عديدة ، كاللون أو العرق ، لوجود اعتقاد بأن هناك أصحاب ألوان معينة ما خلقوا إلا ليكونوا في خدمة غيرهم من أصحاب ألوان أخرى معينة ، ومحنة الزنوج في أمريكا ليست بالبعيدة ، أو كأن يتعالى بعضهم على بعضهم الآخر باعتبارهم من عرق يحق لهم التعالي على باقي العروق الأخرى ، وقد يكون بسبب ديني كأن يرى البعض أنهم صفوة اختارهم الله كما هو الحال عند اليهود الذين يحملون شعار شعب الله المختار وأن ما دونهم إنما هم من «البوييم» وما خلقهم الله عز وجل إلا لخدمة شعب الله المختار ، وقد يكون التمييز العنصري بسبب وضع الأقلية المعاش بغض النظر عن المعايير الأخرى كالدين أو اللون أو العرق أو اللغة ، وعمومًا يمكن حصر أسباب التمييز العنصري في سببين رئيسن هما :

الفرع الأول : التمييز بسبب اللون أو العرق أو اللغة أو الدين :

لقد حاول بعضهم تقسيم البشر على أساس العروق البشرية ، ولقد صار هذا التقسيم قائمًا في مجتمعات تصنف نفسها ويصنفها غيرها بأنها دول متقدمة وحامية الديمقراطية والحريات ، فنجد النزعة الجرمانية في ألمانيا ، ونزعة الجنس الأبيض في أمريكا ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية يعتبر الفرد هنديًّا أو زنجيًّا إذا كان واحد من أسلافه المباشرين الستة عشر السابقين هنديا أو زنجيا بالنسبة للزنوج ، وهذا له مدلوله في هذه المجتمعات .

هكذا يُميز بسبب اللون أو العرق بين بني البشر ، ولكن لا يكون هذا بلا سبب وجيه ، فبالإضافة إلى النظرة الاستعلائية هناك أسباب أخرى ، فتحقيق المصالح من الأسباب المباشرة والأساسية للإبقاء على سياسة التمييز العنصري أو التغاضي عنها إلى حين ذهاب المصالح ، فبماذا نفسر مساندة وتشجيع بعض الدول المتقدمة كبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الشركات الضخمة التي كانت لها مصالح مرتبطة بقيام هذا النظام الإرهابي ، دونما خجل أو حياء النظام العنصري في جنوب

أفريقيا أيام كانت أقلية من خمسة ملايين أبيض تحكم وتسيطر على ثلاثين مليون أسود وخمسة ملايين من الملونين ، والسبب هو أن النظام العنصري في جنوب أفريقيا آنذاك كان يمثل ضمانًا للولايات المتحدة الأمريكية لمزيد من بسط الهيمنة والاستحواذ على خيرات البلاد الطبيعية ، فقد كانت جمهورية جنوب أفريقيا تغطي حاجات الولايات المتحدة الأمريكية من الكروم بنسبة ٤٨ بالمائة ، ومن البلاتين ٨٢ بالمائة ، ومن المنغنيز ٦٧ بالمائة ، ومن الفاناديوم ٧٣ بالمائة ، ويزداد بشكل متواصل حجم التوظيفات الأمريكية في اقتصاد جمهورية جنوب أفريقيا فقد بلغ ١٤ مليار دولار سنة ١٩٨٣م كما أفادت بذلك الواشنطن بوست ، وعليه فنصرة الأقلية البيضاء على الأكثرية السوداء في جنوب أفريقيا كان بسبب اللون الأبيض ، والذي هو مرادف للذكاء والتفوق والتحضّر والرقي على غيره من أصحاب الألوان الأخرى كالأسود مثلا الذي يرمز للخادم عند البيض .

يقول علماء العنصرية إنه بين عروق النوع البشري مميزات طبيعية دائمة تفرق بينهما ، فما هي هذه العروق المتميزة عن بعضها البعض ؟ وما هي مميزاتها الطبيعية ؟

يقسم العلماء عروق البشر إلى أربعة : وهي الأبيض والأصفر والأحمر والأسود ، ويضعون لكل منها صفات يريد علماء العنصرية أن يجعلوها طبيعية دائمة ، وأهم هذه المميزات الفيزيولوجية اللون وهيئة الوجه والرأس وحجم الدماغ وتلافيفه ، وأهم المميزات الأدبية الذكاء والحضارة.والرقي ، غير أن هذه كلها لا تؤلف مميزات طبيعة دائمة ؛ لأن للمناخ واختلاف المعيشة ، وتنازع البقاء ، وغيرها من العوامل تأثيرًا كبيرًا في ذلك .

إننا نجد اليوم أفكارًا حول الموضوع ومنها فكرة الشعب المختار ، ولكننا نقول بأن فكرة تفوق جنس ما على جنس آخر أو على سائر الأجناس الأخرى ؛ هي فكرة عنصرية لا يمكن هضمها وحتى إنها تستند إلى أساس علمي لا تاريخي ، لأن معظم شعوب العالم قد منحت نفسها هذه الميزة ، فمن ينكر عليّ إذا ادعيت لنفسي هذا الشرف في فترة من فترات التاريخ ، ولكن تمسك الصهيونية بفكرة شعب الله المختار يفضح عنصريتها .

قد يكون التمييز العنصري بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو اللغة علنيًا كمعاملة من ينتمون الى أقليات حسب لونهم أو لغتهم

أو عرقهم، فإنه يمكن أن يكون أيضا مستترًا كإرسال تقاليد وأعراف يسيّر منوالها المجتمع، وهذه التقاليد تخصص لغرض محتواها على جماعة من الأقليات السالفة الذكر كشكل آخر من أشكال التمييز العنصري، كما قد يكون التمييز العنصري على شكل آخر كتجاهل بسيط أو تجنب هذه الفئة من المواطنين «الأقلية» كالمضايقات اليومية أو الاستبعاد والنبذ أو فرض الإقامة؛ لأن العنصرية هي أن تعتقد بوجود جماعات بشرية ذات خصائص معينة بموجبها توضع هذه الفئة في مرتبة أعلى أو أدنى من الآخرين، وهذا ما يلاحظ جليًا في بعض الدول والمجتمعات، فقد طال التمييز العنصري في أمريكا السكان الزنوج الذين يعدون ٢٦ مليون نسمة، كما طال السكان الأصليين للقارة الأمريكية الهنود الحمر والذين هم في طريق الانقراض، فهؤلاء والزنوج هم عبارة عن مواطنين من الدرجة الثانية في مجتمع الحقوق المتساوية والفرص المتكافئة.

يقول (هولي إيغل): «تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض، إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزومين، ويا الله، ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم! وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من

ضمير الأرض! هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون ، إن جلادنا المقدس واحد»[1] .

والخلاصة أن الأقليات اليوم تشكو من سياسة التمييز العنصري ، وهي سياسة عدم تشجيع الاندماج العنصري ومحو الفوارق ، وهذا ما أدى إلى استحالة قيام مجتمع مختلط العناصر يتحقق فيه السلم الذي هو مبتغى البشرية جمعاء ، والذي لا يمكن تحققه إلا بتطبيق ما جاء في مواثيق منظمة الأمم المتحدة ، مع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع ودون تفرقة تذكر ، وكان من أهم النواحي التي تبرز فيها مظاهر التفرقة العنصرية داخل المجتمع الواحد الحواجز اللونية ، فكانت تشمل جميع الاعتبارات التي تحرم الاندماج العصري كمنع الأقليات بسبب اللون أو الدين أو العرق من دخول أماكن معينة ، أو السكن في أحياء معينة ، أو الزواج من خارج دائرة الأقلية التي ينتمي إليها ، كأن نجد مثلا لافتة في أمريكا كتب عليها «ممنوع دخول الكلاب والسود» كما نجد التمييز بسبب اللون والعرق وصل إلى

(١) هولي إيغل (من نشطاء شعب سو) من كتاب أمريكا والإبادة الجماعية .

ميدان العمل، ففي المجتمع الواحد بل وفي المصنع والمؤسسة الواحدة نجد المرتبات تختلف من أبيض لأسود، وحتى نوع العمل كذلك مختلف، فالأسود يوجه في الغالب إلى أعمال الزراعة والأشغال المرهقة والشاقة، وهذا على الرغم مما جاء في المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي تحارب التمييز والتفرقة العنصرية، ففي العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، نجد المادة الثانية من القسم الثاني منه في فقرتها الثانية تنص على: «تتعهد الدول الأطراف في هذا العهد بأن تضمن جعل ممارسة الحقوق المنصوص عليها في هذا العهد بريئة من أي تميز بسبب العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي سياسيًّا أو غير سياسي، أو الأصل القومي، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو النسب، أو غير ذلك من الأسباب».

وهي المادة نفسها تقريبا من حيث محتواها في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ... التي جاء فيها: «تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد باحترام الحقوق المعرف بما فيه، بكفالة هذه الحقوق لجميع الأفراد الموجودين في إقليمها والداخلين في ولايتها، دون أي تمييز بسبب العرق أو

اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين ، أو الرأي السياسي أو غير سياسي ، أو الأصل القومي أو الاجتماعي ، أو الثروة ، أو النسب ، أو غير ذلك من الأسباب» .

كما جاء أيضًا بالعهد ذاته «العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية» التشديد على وجوب التمتع بالحماية القانونية لجميع الأفراد دون أدنى تمييز بسبب من الأسباب ، فجاء فيه : «جميع الأشخاص متساوون أمام القانون ، ومن حقهم التمتع دون أي تمييز بالتساوي بحمايته ، ويحرم القانون في هذا المجال أي تمييز ويكفل لجميع الأشخاص حماية متساوية وفعّالة ، ضد أي تمييز ، سواء كان ذلك على أساس العنصر ، أو اللون ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الرأي السياسي ، أو الأصل القومي والاجتماعي ، أو الملكية ، أو صفة الولادة وغيرها» .

وقد جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ما يماثل المعنى السابق ذاته في مادته السابعة : «الناس جميعهم سواسية أمام القانون وهم يتساوون في حق التمتع بالحماية من أي تمييز ينتهك هذا الإعلان ، ومن أي تحريض على مثل هذا التمييز» .

الفرع الثاني : التمييز بسبب وضع الأقليات :

يعتبر لفظ الأقليات لفظًا واسعًا فضفاضًا ، فيدخل تحت هذا الاسم مسميات عديدة ، فبالإضافة للأقليات المصنفة على أساس الدين أو العرق أو اللغة يمكن أن تصنف تحت هذا اللفظ فئات أخرى منها العمال المهاجرون أو المشردون أو السكان الأصليون أو اللاجئون ، وإذا استثنينا المعيار العددي في اعتبار القلة ، فلفظ الأقلية يسير أيضًا على الأغلبية المغلوبة على أمرها ، والمحكومة من غيرها ، مثلما كان في جنوب أفريقيا «أقلية بيضاء تسيطر على أغلبية سوداء» .

هذه الأنواع من الجماعات غالبًا ما تشترك في سمات معينة ، كالفقر والتهميش في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية داخل الدولة التي ينتمون إليها ، ويتمتعون بجنسيتها ، فسبب وضع هذه الأقليات نجدها تتعرض للتهميش أو التمييز ، وقد ينتقل أفراد هذه الأقليات إلى وضع المطالبة ببعض الحقوق الثقافية ؛ كحق تعلم اللغة الأم ، أو إحياء العادات والتقاليد الخاصة بهم ، أو المطالبة بممارسة شعائرهم الدينية ، وقد يطالبون أيضا ببعض المطالب

السياسية ؛ كحق المشاركة في تفعيل الحياة السياسية ، أو حتى مطالبتهم بحق تقرير المصير«ولأفراد الأقليات الحق في التمتع بحقوق الإنسان ، غير أنهم يطالبون في العادة بحقوق معينة بوصفهم أفرادًا في جماعة ما ، وقد يشمل ذلك حسب ماهية تلك الجماعات ، على مطالبات بحق تقرير المصير الثقافي والسياسي ، أو بالأرض أو التعويض عن نزع الملكية أو السيطرة على الموارد الطبيعية ، أو حرية الدخول إلى المواقع الدينية» .

المطلب الثاني : محاربة التمييز العنصري في المعاهدات والاتفاقيات الدولية :

لقد تصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بعد الديباجة مادتان ، المادة الأولى والمادة الثانية ثم تليهما المادة السابعة ، وقد جاءت هذه المواد الثلاثة لتؤسس إجراءات فعّالة ، فيما يعد لحماية الأقليات العرقية واللغوية والدينية ، ففي المادة الأولي منه : «يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق ، وهم قد وهبوا العقل والوجدان ، وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضًا بروح الإخاء» .

وقد جاء أيضًا في الفقرة الأولى من المادة الثانية منه : «لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان ، دونما تمييز من أي نوع ، ولا سيما التمييز بسبب العنصر أو اللون ، أو الجنس ، أو اللغة ، أو الدين ، والسياسي والغير سياسي والأصل الوطني والاجتماعي والثروة والمولد» .

وجاء في الفقرة الثانية من نفس المادة : «وفضلا عن ذلك لا يجوز التمييز على أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص ، سواء كان مستقلًّا أو موضوعًا تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعًا لأي قيد آخر على سيادته» .

وجاءت المادة السابعة منه لتذكر بوجوب القيام بالمساواة أمام القانون وتطبيقها ، الناس جميعا سواء أمام القانون ، وهم يتساوون في حق التمتع بحماية القانون دون أي تمييز ، كما يتساوون في حق التمتع بالحماية من أي تمييز ينتهك هذا الإعلان من أي تحريض على مثل هذا التمييز ، وحيث إن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تظل غير معنية بمصير الأقليات ، وحيث إنه من الصعب الوصول إلى حل

موحد فيما يختص بهذه المشكلة المعقدة والدقيقة التي تتخذ في كل دولة مظهرا خاصًا ، فقد قررت الجمعية العمومية ألا تعالج مشكلة الأقليات في صلب وثيقة إعلان حقوق الإنسان بنص خاص ، وإنما أرادت أن تأخذ مسألة الأقليات حقها وحيزًا بحجم وحيز هذه المسألة ، فقررت أن تأخذ بحث مشكلة الأقليات بحثا عميقا لكي تستطيع الأمم المتحدة إقرار إجراءات فعالة لحماية الأقليات العرقية واللغوية والدينية ، وذلك من خلال ما صدر فيما بعد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من الاتفاقيات وإعلانات دولية وإقليمية تعالج مختلف القضايا ذات الصلة بالأقليات) .

إن اهتمام المجتمع الدولي بالأقليات وحقوقها ما زال في تزايد ، فكانت الوثائق تصدر تباعًا لأجل حماية الأقليات ، وبخاصة ما تعلق منها بمكافحة التمييز العنصري والحماية الواجب تقديمها للأقليات من خلال وثائق كثيرة ، وقد استطعت أن أرصد عشر وثائق منها وهي :

الوثيقة الأولى :

أن الأمم المتحدة تسعى للقضاء على جميع أشكال التمييز

العنصري، فقد اعتمدت ونشرت بموجب قرار الجمعية العامة بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٦٣م تحت رقم (د ـ ١٨) والتي جاءت لتؤكد على ضرورة القضاء السريع على التمييز العنصري في جميع أنحاء العالم، وبكافة أشكاله ومظاهره وضرورة تأمين فهم كرامة الشخص الإنسان واحترامها، وقد جاء هذا الإعلان في (١١) إحدى عشرة مادة.

وقد جاء في المادة الأولى في هذا الإعلان: «يمثل التمييز العنصري بسبب العرق أو اللون أو الأصل الأثني إهانة للكرامة الإنسانية، ويجب أن يدان باعتباره إنكار المبادئ ميثاق الأمم لحقوق الإنسان وعقبة دون قيام علاقات ودية بين الامم، وواقعنا من شأنه تعكير السلم والأمن بين الشعوب».

الوثيقة الثانية:

فقد تضمنت الإعلان بشأن العنصر والتمييز العنصري والذي اعتمده وأصدره المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والعلوم والثقافة في دورته العشرين، ومما جاء فيها «ينتمي البشر جميعًا إلى نوع واحد وينحدرون من أصل مشترك واحد، وهم

يولدون متساوين في الكرامة والحقوق ويشكلون جميعًا جزءًا لا يتجزأ من الإنسانية» .

الوثيقة الثالثة :

هي المتضمنة للإعلان بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد ، ومما جاء فيه : «لكل إنسان الحق في حرية التفكير والوجدان والدين ، ويشمل هذا الحق حرية الإيمان بدين أو بأي معتقد يختاره ، وحرية إظهار دينه أو معتقده عن طريق العبادة وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم ، سواء بمفرده أم مع جماعة ، جهرا أو سرًّا» .

كما جاء في الفقرة الثانية من ذات المادة أنه «لا يجوز تعريض أحد لقسر يحد من حريته في أن يكون له دين أو معتقد في اختياره» .

الوثيقة الرابعة :

فهي عبارة عن الإعلان بشأن المبادئ الأساسية الخاصة بإسهام وسائل الإعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي ، وتعزيز حقوق الإنسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب . وقد أصدر هذا الإعلان من قبل المؤتمر العام لمنظمة الأمم

المتحدة للتربية والعلوم والثقافة في دورته العشرين ومما جاء فيه :

تسهم وسائل الإعلام بدور أساسي في تربية الشباب ، بروح السلام والعدالة والحرية والاحترام المتبادل والتفاهم ، وتعزيز حقوق الإنسان والمساواة في الحقوق بين جميع البشر ، والتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، ولها أيضا دور هام تؤديه في التعريف بوجهات نظر الجيل الناهض وتطلعاته» .

الوثيقة الخامسة :

فقد احتوت على الاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري ، والمعاقبة عليها ، وقد اعتمدت وعرضت للتوقيع والتصديق والانضمام ، بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة .

الوثيقة السادسة :

فقد تضمنت المبادئ التوجيهية المتعلقة بشكل ومحتوى التقارير المطلوب تقديمها من الدول الأطراف في الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري ، وقد جاء في هذه الوثيقة تعداد لبعض الحقوق التي يجب أن تتمتع بها فئات من الناس : «للأقليات الحق في التعليم والتدريب ، والحق في

المساهمة ، وفي النشاطات الثقافية ، والحق في الحصول على الخدمات المختلفة ، والحق في السكن والصحة والرعاية الطبية والحق في العمل» .

الوثيقة السابعة :

كان مضمونها منع التمييز ضد الأقليات وحمايتها بقرار رقم ٢٣، ١٩٩٩م ، من قبل اللجنة الفرعية لتعزيز وحماية حقوق الإنسان في دورتها الحادية والخمسين ، وكان من بين دوافع إصدار هذه الوثيقة ؛ هو قلق الجهات المختصة (اللجنة الفرعية لتعزيز وحماية حقوق الإنسان) . المتزايد من انتشار الصراعات العنيفة في أنحاء كثيرة من العالم ، نتيجة للعداء العرقي أو الديني الذي يسببه طرف أو أكثر من أطراف النزاع ، وأيضا لما كانت تراه ضروريا ، وهو ضرورة قيام الدول والأقليات على حد السواء ، بإلتماس الحلول السلمية والبناءة للمشاكل التي تمس الأقليات .

الوثيقة الثامنة :

فهي المتضمنة للإعلان بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو أثنية وإلى أقليات دينية ولغوية وقد اعتمد هذا

الإعلان وجاء فيه : «على الدول أن تقوم في إقليمها ، بحماية وجود الأقليات وهويتها القومية أو الأثنية ، وهويتها الثقافية والدينية واللغوية بتهيئة الظروف الكفيلة بتعزيز هذه الهوية» .

الوثيقة التاسعة :

فقد تضمنت الآراء والتوصيات الخاصة بالمؤتمر العالمي لمكافحة العنصرية والتمييز العنصري وإرهاب الأجانب والتعصب المتصل بذلك ، وقد أوصت بأن يعد هذا المؤتمر العالمي إعلانًا وبرنامج عمل لمكافحة العنصرية والتمييز العنصري ، وإرهاب الأجانب وأشكال التعصب المتصلة بذلك ، كما أوصت بأن يحدد هذا المؤتمر العالمي استراتيجية عالمية وعلى نطاق المنظومة برمتها لمكافحة العنصرية والتمييز العنصري ، بما يمكن أن يفيض إلى نتائج ملموسة بالنسبة للجماعات المتأثرة .

الوثيقة العاشرة :

وهي تحمل توصيات لجنة القضاء على التمييز العنصري بالأمم المتحدة ، وقد احتوت على واحد وعشرين توصية عامة ، كلها تتعلق بمسألة التمييز العنصري الذي قد طال الإنسان عمومًا

والأقليات بوجه خاص ، وكل توصية منها تحتوى على بنود فرعية .

نلخص ما سبق في النتائج الآتية :

١ . أمر الأقليات شديد الصلة بواقع المسلمين لم تخلو منهم البلاد الإسلامية على مر العصور ، فهم جزء من الرعية في الدولة الإسلامية ولا يمكن أن يكون كمًّا بشريًّا مهملًا ، فلابد من الاستفادة من طاقاتهم باعتبارهم من مواطني البلاد الإسلامية .

٢ . لقد تضمنت آيتان من القرآن الكريم قاعدة ذهبية في علاقة المسلمين بغيرهم ، واللتان تعتبران رخصة في صلة الذين لم ينصبوا العداء للمسلمين ، وجواز برّهم ، قال تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[1] .

هاتان الآيتان حددتا الأساس الأخلاقي والقانوني الذي

---

(١) الممتحنة : ٨، ٩.

يجب أن يعامل به المسلمون غيرهم ، وهو البر والقسط لكل من لم يناصبهم العداء ، وما كان للعلاقة بين المسلمين وغيرهم أن تخرج عن الإطار العام ، والهدف الأسمى ، الذي من أجله أنزل الله الكتاب وأرسل الرسل ، وهو إقامة العدل والمساواة بين الناس ، وكل النوازل والمستجدات ينبغي محاكمتها على هذا الأساس .

٣. أن المواطن في الدولة الإسلامية تترتب عليه واجبات ؛ هي من مقتضيات المواطنة مثلما تفرض له حقوق نفس المقتضى .

٤. أنه في وقتنا الحاضر وقد أقصيت أحكام الإسلام عن واقع الحياة في البلاد الإسلامية ، والتي أصبحت أنظمتها الوضعية لا تفرق بين ذمي أو مسلم ، مما أنتج الكثير من الآثار السلبية ، ومنها انقضاض الأقلية من أهل الذمة واستئثارها بمقاليد التحكم على حساب الأغلبية المسلمة وبدعم من قوى خارجية ومباركتها في الكثير من الأوقات في بعض البلاد الإسلامية ، مما ينافي سياسية التعايش والتسامح التي كان مفترضًا أن تسود بين أبناء الوطن الواحد .

٥. إدراك سماحة الإسلام في معاملته للمواطنين حتى

للمخالفين له في العقيدة، رغم أن هناك الكثير من المبادئ والأفكار لا تطيق أن ترى مخالفا لها، فتحاربه بشتى الوسائل والطرق، لكن الإسلام يأمر أتباعه بالعدل حتى مع الأعداء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

٦. أن الكثير من أصحاب المصالح والأعداء يبثون الشبهات والأراجيف للنيل من سماحة الإسلام، وهذا باستخدام مختلف الوسائل والأساليب، ومثاله ما يقوم بعضهم بالترويج له في عصرنا، وهو الظلم والقهر الذي سيحل على الأقليات الدينية خاصة في حال طبق الإسلام من خلال وصول أنصار الإسلام السياسي إلى سُدَّة الحكم، رغم أن الإسلام يعطي المخالفين له في العقيدة حقوقًا لا يعطيها أي مبدأ آخر لمخالفيه.

٧. أن التعايش لم يعد اليوم كما كان عليه أيام حكم الدولة الإسلامية، فقد أصبح تعايشا ماديا سطحيا فحسب، أساسه

---

(١) المائدة: ٨.

الأعمال والمصالح الاقتصادية ، ولم يعد يرقى إلى الصعيد النفسي والروحي والاجتماعي والثقافي ، والتي هي أرقى صور التعايش بين الأفراد والمواطنين داخل الدولة الواحدة ، حتى لو اختلفت عقائدهم ولغاتهم وثقافتهم وعروقهم .

٨. أن الحل لمشكلة الأقليات لا يمكن أن يوجد داخل إطار النظم السياسية والاجتماعية التي كانت هي بالأساس السبب في نشوء مشكلة الأقليات ، وذلك من خلال ما سلّطته من ظلم ، واستبداد ، وكبت للحريات ، سواء كانت فردية أو جماعية .

٩. أن كلمة «أقلية» أصبحت من المصطلحات السياسية ، والتي ارتبطت بالقانون الدولي ، وبمصالح الدول الكبرى المهيمنة في الساحة السياسية الدولية .

١٠. تشمل مطالب الأقليات مادة المساواة مع الأغلبية في الحقوق المدنية والسياسية ، مع الاعتراف لها بحق الاختلاف والتميز في مجال الاعتقاد والثقافة خاصة ، وهنا نجد اختلافا جوهريًّا بين ما جاء به الإسلام وأقرّه وبين ما هو موجود في لوائح القانون الدولي ، الإسلام هو المبادر إلى فرض العدل بين صفوف

كل المواطنين على اختلاف اعتقاداتهم وثقافاتهم ، بينما القانون الدولي ينتظر طلب هذه الأقلية أو تلك كي يتدخل ، وقد يكون تدخله مرهونًا بمصالح مختلفة للقوى الكبرى المؤثرة في السياسات الدولية .

١١. لقد وضع فقهاؤنا قاعدة فقهية هي قاعدة عدم إنكار تغير الأحكام ، وتبدل الزمان والمكان ، لقسم في الفقه الإسلامي هو القسم الخاص بالاجتهاد في المسائل التي لا نص قطعي فيها ، والتي مصدرها عرف أو مصلحة صمتت عنها النصوص الشرعية ، وعليه فلا يمكن لأي مسلم أن يشك في صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، أو أن يشك في حيويته الكفيلة بمعالجة مشكلات كل عصر ، عند توفر حسن الفهم والإحاطة بمقاصد الإسلام وشريعته .

١٢. نحتاج اليوم في السياسة الشرعية إلى تجاوز المواقف البسيطة التي تحصر الأمر بين حاكم مسلم ورعية مسلمة ، بيدها زمام المبادرة والحل والربط ، كما نحتاج أن ننظر من حولنا إلى ظروفنا كيف أصبحت ، وكيف تغير حالنا من قوة إلى ضعف ،

ومن تفوق إلى تقهقر وعلى مختلف المستويات ، فهل هي كما كانت أيام أولئك الرجال الذين أقاموا الأدلة على صحة ما ذهبوا إليه من آراء في زمانهم ، ولا نحصر الأمر وكأنه بين طرفين أحدهما سائل ينقصه الاطلاع الشرعي ، وفقيه يُجِيبُ بالحل أو الحرمة عن السؤال فقط ، دون النظر إلى الحالات والظروف المحيطة بنا اليوم ، فإذا كان الأمر بهذه الصورة لا يمكننا أن نصفه بالعلمية التي جاء بها ودعت إليها الشريعة الإسلامية الباقية الخالدة بصلاحها لكل زمان ولكل مكان .

١٣. لكل قضية تطرح اليوم خلفيات كثيرة منها الاجتماعية ومنها السياسية والثقافية ، يجب على الباحثين الشرعيين مراعاتها ، للحفاظ على تفوق الشريعة الإسلامية في إسعاد البشرية جمعاء بمسلميها وغيرهم ، خاصة وأننا نرى اليوم مدى افتتان المسلمين قبل غيرهم بما يصدر تباعًا من المعاهدات والاتفاقيات الدولية والإقليمية الخاصة بخصوص الإنسان عامة والخاصة بحقوق الأقليات على وجه الخصوص ، وعليه فيجب إعادة صياغة كل ما يطرح من مسألة الأقليات في ضوء رؤية شاملة

تستصحب القواعد الشرعية الكلية ، والنصوص الشرعية مع عدم إهمال أي من التفسيرات المختلفة لبعض النصوص التي تراعي غايات الإسلام في الدعوة في مداه القريب والانتشار والتمكين في المدى البعيد .

١٤. لم يكن العالم القديم يعرف شيئا اسمه القانون الدولي الذي يتحتم على كل دولة طرف في الاتفاقيات والمعاهدات ، سواء كانت دولية أو إقليمية الالتزام بما جاء فيها ، في وقت تداخلت فيه مختلف الثقافات والأعراف فأصبحت في المكان الواحد ، في الزمن الواحد ، ترى أفرادا من جنسية واحدة ولكن بخلفيات مختلفة ، وعليه فإنه لابد من الإقرار بأن تراثنا الفقهي ليس مقدسًا ، فوجب الانطلاق منه باعتباره سوابق فقهية أو قضائية نستأنس بها لبناء غيرها ، مما يصلح للإجابة على إشكالات العصر المختلفة ، وإذا وجد في كلام الأقدمين ما يجيب على تلك التساؤلات أخذ به ، مؤكدين بذلك على ضرورة التواصل والاستمرارية بين أجيال الأمة الإسلامية دون أن ننظر لتلك الإجابات نظرتنا إلى النص الشرعي المقدس .

الاستبداد وقابلية الاستعباد

تعيش مجتمعاتنا العربية في دورة حياة الأصنام ، ويتحكم فيها عاملان ، خارجي تحت اسم «الاستبداد» ، وداخلي تحت اسم «قابلية الاستعباد» ، وفي المرحلة التاريخية التي نمرّ بها أعتقد أنه من الأولويات على الشعوب التي منّ الله عليها بسقوط المعامل الخارجي ، أن تدرك جيدًا أبعاد المعامل الداخلي ، حتى لا يتمكن من إفراز معامل خارجي جديد ، يخرجها من طريق الدورة الحضارية ، ويعيد إدخالها في دورة الأصنام مرة أخرى ، وكذلك الشعوب التي تنتظر عليها أن تدرك تلك الأبعاد لتعمل على إضعاف المعامل الداخلي ، عن دعم استمرارية الخارجي ليسقط ثم لتهدم هي الأخرى ما يمكن أن يفرز معامل جديدًا ، لتسير في ركب الحضارة مُرحّبًا بها .

الاستبداد :

يقول الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» .

١. المستبد : هو الذي يتحكم في شئون الناس بإرادته لا إرادتهم ، ويحكم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي ، فيضع كعب رجله في أفواه الملايين من الناس ، يسدّها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته .

٢. المستبد يريد أن تكون رعيته كالغنم درًّا وطاعة ، وكالكلاب تذللًا وتملّقًا .

٣. المستبد إنسان مستعد بطبعه للشر ، وبالإرجاء للخير ، فالمستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزًا من حديد ، فلو رأى الظالم على جانب المظلوم سيفًا لما أقدم على الظلم .

ومن ثم يمكننا أن نتوصل إلى :

ـ أن المستبد يعمل ابتداءً على هدر قيمة الإنسان وقهره بإهمال إرادته ، وتحقير إنجازه ، وتكميم رغباته ، وتسفيه طلباته ، ويصبح الإنسان بالنسبة للمستبد إما أداة لابد من تطويعها واستغلالها ، أو عقبة لابد من تخطيها وتجاوزها ، أو تهديدًا لابد من محاربته والتشهير به بغية هزيمته ، أو عبئًا زائدًا فلا يهتم بإجراءات التخلص منه ، التي تتم من حوله أولًا بأول ، بعلمه وتحت أمره .

ـ ثم يمضي المستبد في تدعيم استبداده وضمان استمراره بتأمين البيئة التي يعيش فيها ، فيعمل على زرع نبتته الخبيثة في قلوب الملايين ، لأنه يدرك أن لا بقاء له إلا أذا أفسد المعامل الداخلي ؛ لتصبح رعيته كالميت في يد مغسّلة يقلبه كيف يشاء ، فتخرج النفوس خربة مهدورة ، قابلة للاستعباد ومورثة للاستبداد .

ـ إن الوصفة المناسبة للتخلص من داء الاستبداد هي بتغيير المعامل الداخلي للناس أو للمستبد ، فإما أن تنصلح نفوس الناس وتمنع المستبد من استبداده ، أو تلجئه إلى الخير بإصلاح المعامل الداخلي لديه .

اختتم الكواكبي مقدمته قائلا : «المستبدون يحكمهم مستبد ، والأحرار يحكمهم أحرار» .

وفي هذه الجملة يتضح لنا الإطار العام والبيئة التي يستمد منها المعامل الخارجي قوته واستمراريته ، فعند السقوط يبقى المعامل الداخلي في نفوس الكثيرين ، فيمارسون الاستبداد على من دونهم ، فتعود الدورة مرة أخرى ما لم نتحرر من أسر المعامل

الداخلي ، ونسقط بأنفسنا قابليّة الاستعباد وداء الاستبداد من النفوس ، لنتحول إلى عالم الأحرار الذين لا يحكمهم حر مفرد ، بل أحرار مجتمعون .

ولكي يسقط المعامل الداخلي علينا أن نستفيض في الحديث عنه ، وعن أهم المكونات الرئيسة التي تعمل على دعم المعامل الخارجي ، وزيادة قدرته على الاستمرار ، أو التي تضمن أن يتبقى ما يكفي لصناعة معامل خارجي جديد ، أو إعارة إفراز القديم في شكل أكثر تطورًا .

قابلية الاستبداد :

إنها الابن الشرعي للاستبداد ، وهي النبتة الخبيثة لما يبذره الاستبداد في النفوس ، وهي ما يضمن للاستبداد استمراريته ، ويمكن تعريفها بأنها :

«استعداد الإنسان أن يتقبّل وجود المستبد ، وأن يتقبل إهدار قيمته الشخصية والذل المفروض عليه ، بل وتتجاوزه لتصل في بعض الحالات إلى ما يسمى بـ«متلازمة ستوكهولم» وهي التعاطف مع المستبد ، ناهيك عن الاشتياق لممارسة الاستبداد الذي يمارس

عليه كل من هو دونه ، دون أن يجد غضاضة في نفسه .

تتكون «القابلية للاستبداد» من عدة مكونات رئيسة : أهمها :

١. اليأس .

٢. الوحدوية .

٣. التقليد .

وأهم نتاج الاستبداد ، إذ إن اليأس نتاج هدر قيمة الإنسان ، والوحدوية نتيجة فردية المستبد ، والتقليد نتيجة تكميم الأفكار ورفض الإبداع ، وهم يعملون مجتمعين أو منفصلين في دعم استمرار الاستبداد ، أو إفراز معامل جديد ، ما لم يتم مكافحتهم .

اضطهاد واحتكار

دعونا نقلب صفحات التاريخ ، الجميع يعلم النضال العظيم الذي قام به السود للتحرر من عبودية أصحاب البشرة المغايرة للسواد ، ولعل البعض قرأ كيف أن المجتمعات الغربية والعربية والإسلامية تفننت في اضطهاد السود واستعبادهم ، ولقد كانت كلمة «لا» التي أطلقتها السيدة السوداء «روزا باركس» (عندما

رفضت أن تترك مقعدها في الحافلة ليجلس فيه رجل أبيض حسب القوانين المتبعة في ولاية ألاباما ، وأصرّت على موقفها ، فقبض عليها لمخالفتها القانون واستمرت محاكمتها ٣٨١ يومًا وفي النهاية كان الحكم الصادر لصالح السيدة العظيمة (روزا باركس) .

إصرار تلك المرأة غير حياة السود في أمريكا ، ولفتت أنظار ذوي البشرة البيضاء إلى وجود أناس آخرين لا يقلون عنهم إنسانية ، ولهم الحق في التمتع بالحياة الكريمة كما يعيشونها هم ، وعندما توفيت «روزا باركس» قال السيناتور الديمقراطي إدوارد كيندي : خسرت الأمة الأمريكية امرأة شجاعة وبطلًا أمريكيًّا حقيقيًّا ، دافعت ليس عن نفسها فقط ، بل عن أجيال وراء أجيال من الأمريكيين .

كما ساهم السيد العظيم «مارتن لوثر كنج» قائد حركة الحقوق المدينة الأمريكية في تحقيق حلم السود في أمريكا ، بأن تُضمن لهم الحريات المدنية المتمثلة في حرية التعبير ، و حرية التحرر من الخوف ، وحرية التحرر من الحاجة ، ومع تزايد المطالب من الجمعيات المدنية والحقوقية والإنسانية ، أجمع العالم الدولي على وجوب إنهاء الرق بجميع أشكاله ، فسارعت الدول الغربية

لتغيير قوانينها ليس حبًّا في السود بل لتظهر للعالم أنها دول أساسها مبنيٌّ على ركيزتين :

١. العدل .

٢. الحرية .

وللأسف بقيت الدول العربية والإسلامية مكانها حينا وتمشي الهوينا حينًا آخر !

هل يوجد اضطهاد للسود في المجتمعات العربية وخصوصًا بالخليج ؟

بلا شك أن الجواب نعم ..

يصعب القول بأن الرجل الأسود في الخليج قد نال ٢٠٪ من حقوقه ، ربما تحسنت نسبة ظروف معيشة السود بشكل عام ؛ لكن الفوارق لا زالت قائمة ، ما يعانيه السود اليوم أشد ذلًّا واستعبادًا من السابق .

إن نسبة السود تقدر بحوالي ٣٠٪ من إجمالي المجتمع ، ومن هذه النسبة يعيش ١٥٪ منهم تحت خط الفقر ، عندما أقول : تحت خط الفقر . أعني دخل الأسرة الواحدة لا يصل المبلغ إلى ما

يسد متطلباتها شهريًّا ، وعليك ألا تقارن الدخل بغلاء أسعار المعيشة والإيجارات والكهرباء ، والمياه ، والاتصالات ونحوها .

هذا الفقر الذي يعانيه السود نتج عنه فشل أبنائهم في التعليم ، لأن اندماج الطلاب السود مع الطلاب ذوي البشرة غير السوداء أشعرهم بوجود نوع كبير من التمييز العنصري تجاههم ، حتى من المعلمين وإدارة المدرسة ، وهذا التمييز أضعف همّتهم العلمية وزعزع قوّاهم الفكرية والجسدية لما يرونه من فوارق عدّة ، سواء في المصروف اليومي أو اللباس أو المتطلبات والمستلزمات المدرسية ، وأدنى ذلك هي الألعاب الترفيهية ، فشلهم في التعليم ومعاناتهم من ارتفاع معايير التمييز الذي يشاهدونه يوميا وبشكل دوري ، دفع نسبة كبيرة منهم إلى البطالة والتسكع بالشوارع ، ولهذا يجدون أنفسهم تحت الرقابة اليومية من الجهات الحكومية كالدوريات الأمنية والشرطة والبحث الجنائي والمباحث العامة ، والدليل أنه عندما تحصل جريمة في أحد الأحياء فإن أصابع الاتهام تشير إليهم ، وبهذا التمييز العنصري ضدهم يحاولون الانتقام من غيرهم ؛ لأن الحقد كبر معهم منذ نعومة أظافرهم ، أما السبب خلف ضياع بعضهم فإنهم لم يأخذوا كفايتهم من التربية الجيدة ؛

لأن آباءهم يكدحون ليل نهار بحثًا عمّا يخفف عنهم ألم الجوع ، وأمهات البعض منهن يعملن خادمات بالمنازل .

مظاهر اضطهاد السود :

ـ العاملون لدى الأُسر العربية الحاكمة والأُسر الثريّة ، هم من السود ، وعملهم يكون ما بين سائق أو خادم أو قهوجي وحارس .

ـ أن الغالبية العظمى من حراس الأمن بالمجمعات والأسواق ، وأغلبية القطاعات الخاصة ، هم من السود .

ـ أكثر المعتقلين في السجون أيضًا من السود . ونسأل أنفسنا : ما سبب اقتيادهم للسجون ؟ وما دافع قيام الأغلبية منهم بتلك الجرائم ؟

ـ ٦٥٪ من مستفيدي الضمان الاجتماعي من السود .

ـ حراس الدوائر الحكومية خصوصا المنشآت التعليمية ، كالمدارس ، والجامعات ، غالبيتهم من السود .

ـ معظم الفقراء هم ذوو البشرة السوداء .

ـ بيوت الطين والأعشاش والبيوت القديمة المتهالكة يسكنها

في الغالب السود .

ـ تلحظ أن تكدسهم متزايد بالمستشفيات الحكومية ؛ لانتشار الأمراض المعدية بسبب قلة العناية بهم .

ـ الأحياء المهملة والتي تنقصها الخدمات وتكون بطبيعة الحال مليئة بالمهملات والقاذورات ، يغلب سكان هذه الأحياء السود .

ـ نادرًا ما تجده يشغل منصبًا رفيعًا ، أو دبلوماسيًّا ذا أهمية ، فقط نسبة ضئيلة جدا يشغلون مناصب عسكرية ، وأيضا يُمثّلون إدارات حكومية ، لا تمثل تلك الأهمية .

إن ظاهرة استعباد السود ظل لها طابعها المميز في الدول العربية وبالأخص في الخليج ، حيث غلب عليها طابع العنصرية ، ولقد أخذت الحكومات الخليجية بعض رجال الدين غطاء يضفي نوعًا من الشرعية على كثير من الممارسات ضد الإنسانية ، ومنها اضطهاد السود وسلب حقوقهم ، ولن يكون بوسع الضحايا السود حماية أنفسهم مما يتعرضون له وما سيتعرضون له في المستقبل ؛ من استغلال وإساءة ، إلا إذا كان فيهم من هو في مثل إصرار وشجاعة وصبر (روزا باركس ومارتن لوثر كنج) .

مفهوم الرق والعبيد والجواري .. كيف عرفها رسولنا ﷺ وأصحابه ... وكيف حرفها المسلمون في عصرهم الحديث :

دراسة علمية من منظور إسلامي توضح الخلل الذي طرأ على مفهوم الرق والاستعباد ..

«رحم الله الملك فيصل» عبارة تتردد كثيرًا على مسامعنا كلما ذُكرت العبودية والسواد ، وقد كان من الممكن أن نسمعها ونقرأ عنها ، ونعتبر ذلك شيئا من التسلية وضياع الوقت ، وذلك إذا علمنا أن القصد من وراء ذلك التعبير اللفظي هو التعبير المجازي بالوصف ، أو ربما لخلق روح الدعابة والملاطفة ؛ لكن عندما يكون القصد هو تسميم العقل الإسلامي فكريًّا بإنشاء ، أو ترسيخ ، أو تكريس فكرٍ ، أو مفهومٍ خاطِئ ، وتغذيته بثقافة منافية لمبادئ الشرع الإسلامي ، **لظاهرة اجتماعية** لها بعدها الشرعي والاجتماعي والتاريخي ، ويؤول فيها الكاتب أو المتحدث ما يشاء نتيجة لسوء فهم أو قصد ، ويلوي في ذلك أعناق الحقائق ، واصمًا وناعتًا لفئة من الناس بالعبودية ، محاولًا في ذلك إلصاق العبودية والرق بذوي البشرة السوداء أو السمراء دون توفر أي دليل شرعي صحيح ، أو وجود أي دراسة موضوعية .

تحاول كثير من وسائل الإعلام والتثقيف أن تلصق بالدين ما ليس به ، أو تقول أن تلك التجاوزات قامت على أسس شرعية صحيحة ، ورجال الدين والعلماء الربّانيون قد أقرّوا بتلك التجاوزات التي أساءت للإنسانية ، وأن تلك التجاوزات الخاطئة هي الغاية التي قصدها وفسرها الفكر الإسلامي الأصيل لمعنى الرق ومفهوم الاستعباد .

من المعلوم أن الفكر الإسلامي يتميز على مر العصور بامتداده إلى عمق الحياة ، وشموله لجوانبها وارتباطه بمشكلاته من جهة ، كما يتميز بربط أمور الدنيا معيشةً ودراسةً بأمور الدين عقيدةً ومصيرًا من جهة أخرى ، ومن ثم فإن الباحث الإسلامي حين يتعامل مع هذا الفكر ، فإنه يجب ألَّا ينسى هذا الارتباط بين الدين اعتقادًا وبين الحياة واقعًا ، فهو لا يقدم أفكارا مجرّدة تنحصر في رياضة عقلية ومتعة فكرية ، كما أنه لا يلهب العواطف بكلمات منمقة وسبحات روحية .

عند تتبع النهج القرآني في التربية أو المعاملات أو غيرها ، نجده يحرص كل الحرص على هذا الربط ، فهو يعرض المسألة مرتبطة

بواقع الناس من جانب ، ثم يمزج هذا الواقع فيجعله من صميم الدين إلى جانب آخر ، ولعلي هنا أضرب مثالًا للتقريب ، إذا قرأنا آية من القرآن عقب قراءتنا لمسألة من مسائل المعاملات ، في توزيع غنائم الحرب مثلا : في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1] .

أو في مسائل المعاملات المالية مثل قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[2] .

كأن تقوى الله والتذكير بحدوده هي الضوابط التي ترسم طريق هذه المعاملات وتضمن سلامتها ، كما أن على متلقي الفكر الإسلامي ، أيًّا كان نوع هذا التلقي ؛ أن يتصور هذه العلاقة ابتداءً ، حتى لا يجهد نفسه بإلزام المنهج الإسلامي ما لا يجوز التزامه به ، ولا يحمله من المعاني والاتجاهات ما لا يتحمله ، فلقد امتزج هذا الفكر بالحياة ، وامتد على جوانبها المختلفة ، ولكن المفكرين فيه لم يكن يعنيهم تقديم الفكر إلى الناس بقدر ما يعنيهم

---

(١) المائدة : ٢.

(٢) البقرة : ٢٨٢.

تقديم المنهاج الذي يربط الدنيا بالدين، ويهيئ الحياة للآخرة .

ومما زاد الطين بلة كما يقال، أن الغالبية العظمي من أجهزة التثقيف والإعلام المحلية، وبعض الوسائل الخارجية أيضا التي تناولت قضية الاستعباد، ما زالت تروج للعديد من المغالطات والتضليل حول تلك القضية .

وبدلا أن تكون تلك الوسائل أداة توجيه وترشيد وتحكيم بين الغث والسمين، والحق والباطل، والصواب والخطأ، نراها تنشر بين الناس، تلك القضية بخلفية شرعية وتاريخية مختلفة، مصنوعة إعلاميًا عن العبيد والجواري المملوكات، رابطة العبودية بذوي البشرة السوداء أو السمراء، وتؤكد شرعيتها وتقحم الدين عليها، وكان الأولى أن تبين للناس ما يكمن فيها من مخالفات شرعية ونكسات فكرية مرفوضة شرعيًا وإنسانيًا، لقد ثبت من خلال روح الشريعة الإسلامية الصحيحة ومن خلال ذلك القرار، فضلا عن رجال الدين، أنها تجاوزات صدرت من أُناس لا يدركون شيئا عن أحكام وشروط وقواعد الرق والاستعباد .

لنتناول بعضًا من فقرات تلك الكتابات والمقالات الخاطئة،

خذ مثلا هذه الفقرة من المقال الذي نشرته إحدى الصحف الخليجية بقلم أحد مدرائها تحت عنوان «من يشترى عبدًا وجارية» فتراه يقر أن تحرير العبيد يعود الفضل فيه إلى بعض الشخصيات البارزة ، وهذا أيضًا ما يريد أن يقنعنا به الكثيرون كل يوم ؛ ممن ينتمون للمؤسسات الإعلامية ، ولكن هل أقرت الشريعة الإسلامية ذلك ؟ وهل اعترفت به ؟

السطحية والجهل المركب الذين وقرا في عقل ذلك الكاتب ، وعقول بعضهم من أمثاله تقول : نعم .

ولكن الشريعة الإسلامية قالت وما زالت تقول : (لا) ليس هذا معنى العبودية ، فروح الشريعة الإسلامية لم تمت بعد ، ولم تتبدل شروطها وأحكامها ، فمكانها محفوظ وصدري مفتوح لها .

كما أن ما نستنتجه بعد قراءة وتحليل ذلك المقال ، أن غياب الفهم الشرعي الصحيح لمعنى الرق والاستعباد عن عقلية الكاتب ، وعدم إدراكه لخطورة تلك المخالفات الشرعية في نظر الخالق سبحانه .

تلك العقلية ما هي إلا نموذجٌ ومثالًا لكثير من العقول التي غلب عليها طابع الأفق الديني الضيق والبعد الشرعي القاصر، والخواء الفقهي، لمسألة الرق والاستعباد، والتي قد تترتب على استنتاجها واجتهاداتها عبر التاريخ، عدة أخطاء فادحة منها :

ـ إيجاد مفهوم جديد للرق والاستعباد وإيجاد آلية جديدة له، بخلاف ذلك الذي جاءت به الشريعة الإسلامية من مفهوم وأحكام، وقواعد خاصة بنظام الرق، التي شرعها الإسلام، وأمر بالعمل والتقيّد بها تجاه قضية الرق، والذي عرّفه أهل العلم شرعا بأنه«عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر» وذلك لأن الكفار تعبدوا لغير الله وعبدوا غيره، وصاروا عبيدًا للشياطين.

ـ العمل من حيث عدم العلم بالخرافة اليهودية، التي وردت في الكتب والأسفار المحرّفة ببني إسرائيل، والتي تقول : إن الله جعل جميع ذرية حام ـ ابن نوح عليه السلام ـ خدمًا لذرية أخويه سام ويافث.

ـ نشوء ثقافة جديدة في المجتمعات الإسلامية، بالأخص مجتمعنا الخليجي، كانت بمثابة ثمرة لنشاط محلي سابق، ينتج

من خلال ذلك الإنسان الذي حل في محيط تلك البيئة المجتمعية ، وقد تمثلت تلك الثمرة الثقافية الخاطئة في حصر التعبير المجازي واللفظي لكلمة «عبد وجارية على ذوي البشرة السوداء» .

لو توقف الأمر عند ذلك الحد لكان الأمر يسيرًا ، إلا أن البعض قد تجاوز ما هو أبعد من ذلك ، فقد قام بوضع طابع شرعي وصبغة إسلامية ، جازمًا ومعتقدًا بصحتها ، بسبب سيطرة الفهم الخاطئ على عقليته ، التي جعل منها عقلية مغلقة لا تعرف لمصطلح الاستعباد إلا معنى واحدًا فقط ؛ وهو حصر ذلك المفهوم على ذوي البشرة السوداء .

كما أن ذلك الموروث اللفظي الثقافي استمر على تعاقبه واستخدامه كثير من الأجيال ، جيلًا بعد جيل ، لدرجة أنه لم يقتصر تداوله واستخدامه على طبقة العوام والجهلة فحسب ، بل أصبح يتداول من قبل بعض طلاب العلم الشرعي وبعض علماء الدين المنتمين للمؤسسة الدينية ، أو ممن ارتدى رداءهم التقليدي والمحسوبين على علماء الدين ، وهنا تكمن الخطورة ، وذلك لسرعة تأثيرهم على من حولهم ، من أفراد المجتمع المحيطين بهم ،

وهذه سمة ساذجة، تميز بها أفراد المجتمعات العربية المسلمة تاريخًا، فهم يعتقدون بصحة جميع ما يصدر من أولئك القوم من أقوال وأفعال وأعمال.

كما أن استخدام بعضهم لهذا التعبير المجازي الخاطئ قد أضاف أيضًا بعدًا شرعيًّا خاطئًا إلى أذهان وعقول أفراد مجتمعاتهم بكافة شرائحها، ليربطوا ويخلطوا ما يطلقونه من لفظ مجازي لكلمة «عبد أو جارية» تجاه ذوي البشرة السوداء أو السمراء، بالمفهوم الشرعي والديني الصحيح للرق والاستعباد.

ويلاحظ أن كل ذلك يتم في ظل صمت وغياب الجانب التوعوي لوسائل الإعلام، والتثقيف، والمجتمع، بجميع مؤسساته، والتي كان من الواجب عليها أن تقوم بدورها التوعوي، حيال ذلك لتصحيح هذه المفاهيم الخاطئة.

لو تأملنا مبادئ الشرع الإسلامي نحو ذلك لوجدنا أن هناك أحاديث نبوية شريفة قاطعة الدلالة في النهي عن الإساءة إلى العبيد، وتحريم الاعتداء عليهم بالقول أو بالفعل، في حال كانوا عبيدًا حقًّا وتحت أيدينا، وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية من

قواعد شرعية صحيحة وأحكام وشروط خاصة بمسألة الرق ، أيًّا كان لونهم ، أبيض أو أسود أو أحمر ، من شرق الأرض كانوا أو من مغربها ، وأما من ناحية النهي بالاعتداء بالقول ، فقد نهى سيدي ﷺ مُلاك الرقيق عن تذكير أرقائهم بأنهم أرقاء ، وأمر أن يُخاطبوا بما يشعرهم بمودّة الأهل ، وينفي عنهم صفة العبودية ، وقال لهم : «إن الله ملككم إيّاهم ، ولو شاء لملكهم إيّاكم»[1] .

فهل هناك تكريم لمشاعر النفس الإنسانية المبتلاة بالرق أكثر من هذا ؟! فما بالك في تعميم هذا التعبير المجازي الخاطئ على العامة والذي يحمل في مضمونه نوعًا من الإيذاء النفسي غير المباشر تجاه الغير ، ومخالفة للآداب الإسلامية والذوق العام ، لأُناس ليس لهم ذنبٌ في ذلك ، إلا أن حكمته وإرادته سبحانه قضت بأن يكون لون بشرتهم سوداء أو سمراء ، هذا من الجانب التوعوي الذي يقع على عاتق وسائل الإعلام والتثقيف ومؤسسات المجتمع المدني .

أما من الجانب التوعوي الذي يقع على عاتق الفرد ، فإننا نجد

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

أن الحياد من الخوض في توضيح هذا الأمور الشرعية وتجنب ذلك ، كل هذا فيه نوع من المساهمة والمشاركة غير المباشرة في تدني مستوى الوعي التثقيفي ، والذي كان بمثابة الحائل هو أيضا ، الذي حال دون ذكر الحقيقة .

وهذا الحياء غالبا ما يكون سببه : إما عدم الإلمام بجوانب الموضوع من الناحية الشرعية ، والفقهية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، أو الإفلاس المعرفي والثقافي المرتكز على أرضية الشريعة الإسلامية الصحيحة .

ـ ضياع أنساب كثير من أحفاد الموالي ـ (أحفاد العبيد ذوي البشرة البيضاء) الذين كان الأصل في استعبادهم واسترقاقهم أنهم كانوا من أسرى الحروب المشروعة ، في زمن الفتوحات الإسلامية ، ووفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية وقواعد شرعية وأحكام وشروط خاصة بمسألة الرق ، خصوصًا الذين جلبهم المسلمون الفاتحون معهم من خلال الفتوحات الإسلامية التي خاضوها في أوائل عصر صدر الإسلام الأول ، أو ما استتبعه من عصور إسلامية ، كالعصر الأموي والعصر العباسي ، وقد ساهم

في إطالة فترات هذا الضياع الذي امتد في بعض الأحيان لقرون في أمران هما :

الأمر الأول :

تأثير ثقافة المجتمع الخاطئة على بعضهم ، خصوصًا طبقة العوام ، وهم من شكل الفئة العظمى في السابق ، فهي من أوصتهم بأن لا وجود للعبودية إلا من ذوي البشرة السوداء ، ولعلها لا تكون مبالغة القول بأن هذا التأثير قد انتقل بالبعض منهم من مرحلة التأثير الثقافي إلى مرحلة التأثير الاعتقادي ، ولذلك فقد كان لها دور أساسي في إحداث مسلسل هذا التوهان وهذا الضياع .

الأمر الثاني :

استيطان هؤلاء الموالي لمناطق أُهملت من التدوين التاريخي ، وتدوين علم الأنساب ، الذي امتد لفترات زمنية طويلة وخصوصًا في القرون الخمسة الأولى للهجرة النبوية الشريفة .

ومن المناطق التي استوطنها الموالي من ذوي البشرة البيضاء الحجاز ، وذلك حيث أخذ الخلفاء العباسيون بتعيين ولاة من

الأعاجم على مكة والمدينة ، كما جعلوهم أمراء لموسم الحج ، فقد عين المعتصم قائده «أشناسًا» واليًا على الحجاز ، وكانت ولايته ولاية عقد دون مباشرة ، أو ما يسمى ولاية اسمية فخرية .. لم يكن له منها إلا الدعاء على المنابر ، وعيّن الكبير التركي على أحداث الموسم سنة (٢٣٠هـ ـ ٨٤٥م) واليًا خاصًا على طريق مكة ، هو المولى «يحيى بن هرثمة» .

ومن المناطق التي استوطنها الموالي من ذوي البشرة البيضاء أيضا منطقة «عثر» جنوب الجزيرة العربية ، أو ما عرف في السابق «بمخلاف عثر أو المخلاف السليماني» حاليًا منطقة جازان ، فقد حكمه واستوطنه كثير من العبيد من ذوي البشرة البيضاء ـ الموالي العتقاء ـ من بلاد الدولة السامانية والغزنوية (الباكستان وبخارى والري وبلاد ما وراء النهر والهند والترك وغيرها) من موالي بني مخزوم من بني طرف وموالي مواليهم ، وذلك بعد أن حققوا قدرًا ملحوظًا من الاستقلال ، وقد خوّلهم ذلك الاستقلال إلى سك أسمائهم جنبًا إلى جنب مع الخلفاء العباسيين ، وهو تقليد لا يخوّل إلا لكبار الولاة في الولايات الرئيسة ، وليس في الأقاليم الصغيرة التابعة لتلك الولايات .

ومن المناطق التي استوطنها الموالي من ذوي البشرة البيضاء أيضا منطقة (المراغة) ومنطقة (القصيم)، من موالي بني مخزوم.

ومن الموالي من ذوي البشرة البيضاء أيضًا موالي بني أسد بن خزيمة، منهم موالي الصحابي الجليل عكاشة بن محصن الأسدي، وموالي مواليهم والذين قد تربطهم ببني طرف موالي بني مخزوم ومواليهم أو موالي مواليهم، رابطة مكان الأصل، ونقاط الانطلاق وصلة التاريخ، فضلًا عن الرابط الديني والمذهبي الذي لعب دورًا هامًّا في العلاقات بين الدولة العباسية والدولة السامانية والدولة الغزنوية، والذي تزامن ظهوره زمن الفتوحات الإسلامية.

وانتشر الكثير من بني طرف موالي بني مخزوم من ذوي البشرة البيضاء وموالي بني أسد بني خزيمة، وتكاثروا مع الزمن في (مخلاف عثر)، المشتمل على مدن وقرى واسعة وأودية مباركة، وأقاموا جنبًا إلى جنب مع أبناء العتبة الحسينية الشريفة بطونًا وفروعًا، ومع أبناء بني الحكم بطونًا وفروعًا، وغيرهم من القبائل العربية، ما بين قحطانية وعدنانية، وقد كان الكثير منهم من أهل الاستقامة على الشريعة المحمدية.

ومن المناطق التي استطونها الموالي من ذوي البشرة البيضاء بغداد ، وذلك حين استقدم الرشيد أفواجا من رقيق الترك ، ممن جلبهم من بلاد ما وراء النهر لتجنيدهم ، ليجعل منهم قادة ورؤساء ، والذين اشتد بأسهم في عهد المعتصم .

وقد كان أشهرهم وصيف وبغا وأشناسًا والأفشين وغيرهم ، فكانت لهم الكلمة النافذة في سياسة الدولة ، وقد أهاج الناس تدفق الأتراك على بغداد ، وتبرموا بهم وضاقوا بما أصابهم من أذاهم ، واضطر المعتصم أن يخرجهم من بغداد ، وأن يبني لهم مدينة سامراء وينقلهم إليها .

إننا لو نظرنا نظرة المتأمل أو الباحث عن الحقيقة في ثنايا ذلك القرار ، فضلًا عن الرجوع إلى قواعد الشريعة الصحيحة المتعلقة بهذه المسألة يلاحظ ما يلي :

الأمر الأول :

أن النص جاء واضحا وصريحا في ذلك القرار ، يفيد بأنه لا توجد ولا تتوفر شروط الشريعة الإسلامية التي توجب الرق ، فلماذا ننسب الفضل في تحرير العبيد لشخصيات ؟ ولماذا ننعتهم

ونصرّ على تسميتهم بالعبيد ؟ لعله الغرض الفكري الذي سيطر على عقول البعض ، فهم ممن نشئوا وتربوا تربية ثقافية خاطئة منذ صغرهم في محيط الأسرة والمجتمع ، على ممارسة واستخدام ذلك التعبير المجازي الخاطئ .

تلك الفوضى جعلت تلك العقول تقفز إلى الاستنتاجات قفزًا ، دون تقصي الأسباب التي أدت إلى إصدار ذلك القرار ، أو حتى على أقل تقدير فهم ما جاء في ثناياه من نصوص فهمًا شرعيًا صحيحًا .

وهنا يلزم توضيح ذلك ، لنفرق من الناحية الشرعية والفقهية بين ما قرره الإسلام وما جرى عليه المسلمون من جراء الفهم الخاطئ لمعنى العبودية ، سواء في مجتمعاتنا أو في بعض المجتمعات الإسلامية والعربية التي وقعت في مثل ذلك الخطأ .

ففي فجر العصر الإسلامي الأول استقبل المسلمون الرقيق والعبيد والجواري من خلال الفتوحات الإسلامية ، التي تزامن ظهورها مع بداية نشأة الدعوة الإسلامية التي كانت خطابا لكل الأمم ، دعوة صريحة للعربي ، والأعجمي ، والأبيض ، والأسود على السواء .

وقد استتبع هذه الدعوة الشاملة قبول بعض الأمم المجاورة ، ورفض من بعضها الآخر ، واستتبعها أيضًا قيام الصراع المسلح بين أتباع الدعوة الجديدة وخصومها من الروم ، والفرس ، والترك وغيرهم ، خاض بموجبها المسلمون حروبًا إسلامية مشروعة ، شرعها لهم الله عز وجل وفق مبدأ رباني ، لا قهر فيه ولا تسلط ، ولا نتصور أن الله قد شرع الحرب لإجبار الناس وإكراههم على الإسلام والاعتقاد به ، لأن الاعتقاد شيء معنوي في القلوب ، وهي أوعية إنسانية خفية ، قال تعالى : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ .

ومن الطبيعي فلا تكاد تخلو حرب من غالب يحوز الأرض ، أو المال ، أو الأنفس ، أو هذه جميعا ، بما يسمى ـ الغنائم ـ ومغلوب يفقد هذه الأشياء أو بعضها ، والمقصود بالأنفس هنا : هم الأسرى .

والأسرى إذا كانوا من هذه الغنائم ، فإن نظرة الإسلام إليهم تختلف باختلاف ملابسات كثيرة تحيط بهم ، وفق إطار الفقه الإسلامي ، هذه النظرة تختلف عن أحكام سائر الغنائم ، يتحدد في ضوئها مصيرهم ، وتقرر فيها حقوقهم وواجباتهم .

كان التصرف في أسرى بدر هو الأساس الذي بنى عليه الفقهاء أحكامهم في أسرى الحروب الإسلامية بوجه عام ؛ لأن هذه الغزوة كانت السابقة الأولى في تاريخ الحروب الإسلامية ، ولأن عدد من وقع فيها من الأسرى كان من الضخامة بحيث يتطلب تقنين الأحكام ، ولأن الرسول ﷺ معلم البشرية ؛ هو الذي كان يحكم في أمر هؤلاء الأسرى ، وحكمه تشريع يُستمد منه الفقه أحكامه ، يقول ابن كثير في تفسيره : (إن شاء قتل ، وإن شاء فادى بمال ، وإن شاء استرق من أسر) ، ثم تنسحب أحكام أسرى بدر على سائر الغزوات .

حين تحدث الفقهاء عن التخيير في الأسرى ، جعلوا هذا التخيير بين المن والفداء والاسترقاق والقتل ، المن والفداء وردت فيها آية صريحة هي قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ . وذهب بعضهم إلى حصر مصير الأسرى في هذين الأمرين فقط ، ولقد جاء في التفسير : لما كنا مخيرين في الأسرى بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلًا شرعيًا لإبطال استئناف الاسترقاق في الإسلام ، فإن ظاهر التخيير بين هذين الأمرين ، والأمر الثالث الذي هو الاسترقاق ؛ غير جائز لو لم

يعارضه أنه الأصل المتبع عند كل الأمم ، والقتل أيضًا لم يرد في آية تدل دلالة صريحة عليه ، إلا ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] . من أنها تدعو إلى قتل الأسرى ، وتنهى عن قبول الفداء فيهم .

أما الاسترقاق والاستعباد فإنه لم يرد في القرآن مطلقًا كحكم من أحكام الأسرى ، ولم ترد آية تدعو إليه أو حتى تبيحه .

كما أنه من غير المتصور أن يدعو القرآن إلى استرقاق واستعباد الأحرار ، وإن كانوا أسرى ولو في آية واحدة ، وهو الذي يدعو إلى فك الرقاب وتحرير الرقيق .

من أين جاء جواز استرقاق الأسرى وجعله بعض الفقهاء حكما من أحكامهم ؟

الواقع أن نصوص القرآن كانت تميل إلى منعه أكثر من إباحته ، والنبي ﷺ كذلك لم يقرّه ولم يمنعه ، وبقى الأمر فيه لما يقضي به قانون المعاملة بالمثل ، فإن كان الأعداء يسترقون ، كان

---

(١) الأنفال : ٦٧.

للمسلمين أن يسترقوا، ويكون من أكبر المفاسد والضرر أن يسترقّوا أسرانا ونطلق أسراهم، وإن كانوا لا يسترقّون فلا يحل للمسلمين أن يسترقّوا؛ لأن ذلك يكون اعتداء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[1]. ليس نصًّا في الحصر، ولا صريحا في النهي عن الأصل، فكانت الدلالة فيه على تحريم الاسترقاق غير قطعية، فبقى حكمه محل اجتهاد ولي الأمر، إذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المنّ عليهم بالحرية، وهو إبطال اختياري أو الفداء عملوا به، وقد ذهب رأي إلى أن معيار الإباحة أو التحريم يكمن في مبادئ الأخلاق، فكل معاملة بالمثل ستستهجن هذه المبادئ؛ تعد محرّمة قانونيًّا.

ذهب رأي آخر إلى أن المعيار المشار إليه يكمن في قاعدة القانون الوضعية، فالمعاملة بالمثل التي تخالف القاعدة الوضعية وحدها، هي المعاملة بالمثل المحرمة قانونًا، وإذا وُضعت بعض القيود على المعاملة بالمثل في القانون الدولي فإن الإسلام أحرى

---

(١) محمد ٤.

بتنظيم هذه المعاملة وتقييدها ، وهو الذي يوصينا بالسمو بقيمنا وبمبادئنا ، ولقد كان استرقاق الأسرى هي الحالة الوحيدة فقط التي أخذ فيها المسلمون بمبدأ المعاملة بالمثل ، ولكن لم يدخل تحت هذا المبدأ إساءة معاملة الأسير أو إهدار إنسانيته .

وفي عصر الصحابة ، كان استرقاق الأسرى نظامًا متبعًا في الحروب بالذات ، وقد أسروا فعلا من المسلمين فأخذوا في استرقاقهم وبيعهم ، فاضطر قواد المسلمين والفاتحين إلى السير على سنّة المعاملة بالمثل ، ولم يجدوا نصًّا صريحًا قويًّا يمنع من الاسترقاق والاستعباد ، ولا نصًّا صريحًا ينهى عنه ، ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام النص العام ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين ، إنما وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء ، فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى ؛ فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية وهي ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق ، فليس الاسترقاق حتميًّا ، وليس قاعدة من

قواعد معاملة الأسرى في الإسلام .

لا يتنافى مع مبدأ العدالة أن يتعامل المسلم مع من يعتدي عليه بمثل ما يعامله ذلك المعتدي ، وأنه بسبب تطبيق هذا المبدأ أبيح الرق في أضيق الحدود ، وعلى هذا فإن من تم استغلالهم تحت مسمى العبودية ، وكذلك الاسترقاق المعهود في هذا العصر ، والذي يقع في بعض الدول ، فهو أيضا يعد باطلًا ، والتسرّي بالنساء اللاتي يختطفهن النخاسون أو يبيعهن التجار ليس من التسرّي الصحيح في الإسلام ، وادّعوا زورًا أنه دين يدعو إلى استرقاق الأسرى وفتح أسواق للعبيد ، يبدوا أن دعواهم هذه من كثرة الفتوحات الإسلامية ، وما استتبعها من وقوع الأعداد الهائلة من الأسرى في أيدي المسلمين ، ولم ينظروا إلى أن هؤلاء الأسرى ، وإن كانوا يعاملون معاملة المثل ، إلا أن روح الإسلام كانت تفرض على المقاتلين المسلمين حسن معاملتهم ، وعدم تعريضهم لما يتعرض له الأسرى المسلمون من العذاب والتنكيل .

يفرق بعض الفقهاء بين العربي والعجمي في الاسترقاق ، فيقول الصنعاني : كل عربي مكلّف من الكفار لا يسترق ، وأما

العجمي فإنه يسترق ، ولو كان كتابيا ، وإنه لا يقبل من العربي إلا الإسلام أو السيف ؛ إن لم يقبل الدخول في الإسلام ، ولا يجوز أن يسبى ويملك ، وقد استدل محمد بن الحكم على جواز استرقاق العربي بتخيير الرسول ﷺ وفد هوازن بين السبي أو المال ، وفي سبايا بني المصطلق وزواجه من جويرية بنت الحارث .

وقد ذهب الجمهور إلى جواز استرقاق العرب ، وحكي عن أبي حنيفة أنه لم يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف ، استدلالًا بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1] .

ولأن ترك القتل بالاسترقاق في حق مشركي العجم للتوسل إلى الإسلام ، ومعنى الوسيلة لا يتحقق في حق مشركي العرب ، وأما النساء والذراري منهم يسترقّون كما يسترق نساء مشركي العجم وذراريهم وهم صميم العرب .

وعند الشافعي يجوز استرقاق العرب ؛ لأن الاسترقاق حكم للكفر ، وهم في الكفر سواء ، فكانوا في احتمال الاسترقاق سواء .

---

(١) التوبة : ٥.

وقد فتح الصحابة أرض الشام وهم عرب ، ولم يفتشوا العربي من العجمي .

لقد وضع الإسلام قيودًا على رق الحرب ، كان من أهمها أنه حرّم فرض الرق على الأسرى في حرب تقوم بين فريقين من المسلمين ، ومن ثم فإن الموقف من هذين الفريقين من المسلمين يتلخص في صلح بحق دمائهم ، أو قتال يكف عدوان المعتدين منهم ، ولا يترتب على ذلك أسر كأسر الحرب ، ولا استرقاق كاسترقاق المحاربين .

ومن هنا يتضح أن مصدر الرق والاستعباد الشرعي هو الأسر في حرب ضد الكفار ، وأن الرق ليس أصلًا في الإسلام ، وأن استرقاق الأسير ليس حكمًا من الأحكام المقررة له ، ولا تلجأ الدولة الإسلامية إليه إلا إذا كان معاملة بالمثل .

ومن الملاحظات الجميلة التي نلحظها في زمن رسولنا الكريم ﷺ ، وزمن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ؛ هو اندماج هؤلاء العبيد ، سواءً كانوا من العرب أو العجم ، من البيض ، أو السود ، أو الحمر ، على السواء في الأسرة الإسلامية ،

وكيف أنهم نعموا بإخاء المسلمين وولائهم وعاشوا معهم في ظل الإيمان ، تربطهم رابطة الإسلام ، لا يشعرون بعلو عليهم ولا سلطان ، وكانت هذه الظاهرة من أبرز ما يتميز به وضع الموالي في تلك الفترة .

غير أن ظاهرة أخرى ما لبثت أن برزت بعد انقضاء عهد الطبقة الأولى من المسلمين ، وانثلام حصن تعاليم الإسلام ، هذه الظاهرة هي ترك ما قرره الدين الإسلامي من شروط وتعاليم وأحكام توجب الرق والاستعباد ، وتحول المسلمون إلى مفهوم جديد لمعنى العبودية ، وممارسة خاطئة له ، هذا المفهوم والذي ولد من رحم الجهل المركب ، وهو إلصاق العبودية بذوي البشرة السوداء أو السمراء ، الأمر الذي أدى إلى خطف بعضهم ، والغدر بالبعض ؛ بحجة إيجاد حياة كريمة لهم ، تنقذهم من شبح الفقر ، أو إكراه وإرغام البعض الآخر ، على تقمص أدوار العبيد والجواري ، وقد حقق العلماء الربّانيون هذه التجاوزات ، واستطاعوا تعليلها على أساس من الشرع ؛ لا على أساس الجهل والتصورات الرديئة التي سيطرت على بعض العقول ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله ، الذي وضع بعض

الأمور حول أولئك ، ومن بعض ما ذكره الشيخ ما يلي :

(في القرن الماضي في أول القرن الرابع عشر وفي آخر القرن الثالث عشر كان هناك أُناس يسرقون بعض الأطفال ، ويبيعونهم على أنهم مماليك ، يأتون إلى بعض البلاد ، التي فيها شيء من الجوع ونحوه ، كالسودان أو الحبشة ، ثم يستدعون بعض الأولاد الذين في سن العاشرة والحادية عشرة ، ويختطفونه ويطعمونه ويكسونه ، ويقولون : اذهب معنا ونحن نطعمك ونعطيك ونحو ذلك ، يذهب معهم ويعتقد أنهم سوف يحسنون إليه ، فيأتون إلى هذه البلاد ويبيعونه على أنه مملوك) .

(كثُر بيع هؤلاء الذين ليسوا مماليك ، وإنما هم أحرار ، فلما كثُر بيعهم وقلّ أو انقطع الجهاد من عشرات السنين ؛ رأت الحكومة أن أكثر هؤلاء المماليك ملكيتهم ليست صحيحة ، وأنهم مظلومون ، وأنهم قد بيعوا وهم أحرار ، فرأت الحكومة تحريرهم وصدر الأمر بتحرير كل الرقاب ، وتعويض أهاليهم عنهم ، ولم يبق هناك أرقاء ، ولكن إذا حصل قتال مع الكفار ، ثم حصل الاستيلاء على سبيهم فإن الرق يعود ، وهذا هو الأصل ؛ لأن أصله الاستيلاء على سبي المشركين ؛ أطفالهم ونسائهم ونحو ذلك) .

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب أولئك من المسلمين والفقراء من أفريقيا وآسيا ، في زمن توقفت فيه الفتوحات الإسلامية ، وخفت فيه الصرامة والرقابة على الشروط الإسلامية في كثير من المجتمعات الإسلامية ، بما فيها مجتمعنا الخليجي ، ومع ازدياد واتساع رقعة التجاوزات الشرعية ، وتزايد الشكاوى من أولئك الذين تم استغلالهم ، وهم في الأصل أحرار ، الأمر الذي لفت الانتباه ولا يقبل الإهمال أو التأجيل ، وتحركت لأجله كوامن ، واستيقظت له ضمائر العلماء ورجال الدين وأهل الحل والعقد ، ولذلك فقد أصدر قرار ، والذي بموجبه تم وضع النقاط على الحروف ، وأعاد ضبط نظام الرق والاستعباد في مجتمعاتنا لما كانت عليه الأمة الإسلامية ، من نظام شرعي صحيح في فجر عصر الإسلام الأول ، وأعاد المفهوم الصحيح لمعنى الرق ، وأوضح أن للرق أحكاما وشروطا إسلامية وأسسا فقهية ، وأن ما كان سائدا هو مخالف لما شرعه الله ، وأن من تم استغلالهم تحت مسمى «العبودية» في تلك الفترة ؛ هم في الأصل أحرار ، وذلك بموجب ذلك القرار ، فضلًا عن الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري أن الرسول ﷺ قال : «قال الله تعالى : ثلاثة أنا

خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه ، ورجل أستأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره» .

وكون من يفعل ذلك خصمًا لله ؛ فهذا هو الخسران المبين .

ذلك القرار لا يعني أن جميع ذوي البشرة السمراء أو السوداء المنتشرين في العالم وخصوصا جزيرة العرب ، كانوا من الذين نالهم ذل الاستغلال ؛ بل يوجد منهم من هم أبناء قبائل عربية أصيلة ، استمدوا لون البشرة السمراء أو السوداء من إحدى الجدات ، أو الأمهات ، بسبب زيجة قديمة تمت ، ومنهم من تداخل مع بعض القبائل العربية ، كحليف أو جار أو لاجئ أو صاحب مهنة ، أو طالبٍ للرزق والمعيشة ، فنشأ على أثر ذلك التداخل نوع من العلاقات والروابط القبلية ذات الأصل الشرعي ، التي تنشأ بين فرد وفرد ، أو فرد وقبيلة ، أو فخذ وعشيرة ، وتكون هذه العلاقات لا علاقة لها بالرق والاستعباد إطلاقًا ، ومن الأمثلة على هذه العلاقات والروابط ، الإمام البخاري ، فقد كان أبوه مجوسيًّا قبل إسلامه ، ثم أسلم على يد قوم من قبيلة (جعف) العربية ، فأصبح اسمه (البخاري الجعفي) نسبة إلى قبيلة جعف العربية ، والولاء هنا ولاء إسلام ، لإسلام أبيه علي قبيلة جعف

العربية ، فهو هنا لم يكن عبدًا أو مولى عتق كما يظن البعض أو يسيء الظن ، ممن لا دراية لهم ولا فهم بأنواع الروابط الشرعية ، كذلك الحال عندما يلجأ فرد من قبيلة إلى قبيلة أخرى ؛ بسبب دم أو بسبب حدوث خلاف مع أبناء قبيلته ، فقد يترك اسم قبيلته الأصيلة حاملًا اسم قبيلته الجديدة ، فيدفع في بداية الأمر ما يعرف في العرف القبلي بشاة العزم عند القبيلة الجديدة ، طالبًا في ذلك الانضواء تحت لوائها ، وفي حال الموافقة على طلبه والذي قد يعد مكسبًا في بعض الأحيان ، بسبب شجاعته أو قوته أو ميزة أخرى ؛ يصبح هذا الشخص وكأنه فرد من أبنائها له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، مع فارق بسيط في بعض الأمور ، بسبب العصبة التي تقل نسبيًّا عن عصبة أبناء القبيلة الذين تجمعهم رابطة الدم ، ومع مرور الوقت قد ينخرط هذا الفرد والأجيال التي تأتي من عقبه ، بشكل كلي مع أبناء القبيلة الجديدة ، لدرجة أنه قد ينسى النسب الأول بقصد أو بغير قصد ، أو يعود لأصله ، والأمثلة على هذا النوع من العلاقات كثيرة جدًّا ، وخصوصا في القبائل العربية .

وهذا هو المبدأ والمنهج الصحيح الذي من الواجب الأخذ به وبمبادئه العلمية المبنية على أسس ومصادر علمية صحيحة ، فضلًا

عن الأخذ بمبادئ الشرع والفقه الإسلامي الصحيح ، وذلك عندما يهم أي كاتب أو باحث أو مفكر لخوض دراسة علمية أو لكتابة حول موضوع ، أساس مادته تشمل جوانب عدة (شرعية ـ اجتماعية ـ حقائق تاريخية) ، لا أن يأخذه جزافًا ، ليؤثر سلبًا على عقول وثقافة شريحة كبيرة من القراء والمتلقين .

الأمر الثاني :

عدم مشروعية المصدر الذي تنطلق منه ظاهرة الرق والاستعباد في الدين الإسلامي ؛ لأن معظم من استغلوا ؛ كان مصدرهم إما الخطف أو الإكراه أو الغدر ، وأن الأصل الشرعي الصحيح في ذلك كما أشرت سابقًا ، هو وقوع أسرى في المسلمين ، في حرب مشروعة ضد الكفار ، هذا هو المصدر الوحيد المتاح فقط ، كما أن الإسلام لم يترك الأسرى لهوى الآسرين ؛ بل وضع الأمر كله في يد خليفة المسلمين وإمامهم .

الأمر الثالث :

أن معظم من وقعوا في تلك المخالفة الشرعية ، سواءٌ ممن

تقمصوا دور السادة أو ممن تقمصوا دور العبيد والجواري ، قد أحدثوا شبهة من حيث لا يعلمون ؛وهي من ضمن الشبهات التي أُحدثت حول الإسلام .



قضية العبد الأبيض والحر الأسود

إن المنهج الصحيح هو عرض حقائق الإسلام لتوضيحها للناس ، ليس ردًّا على شبهة ولا إجابة به تساؤل في نفوسهم نحو صلاحيته أو إمكانية تطبيقه في العصر الحاضر ، وإنما من أجل البيان الواجب على الكتَّاب والعلماء لكل جيل من أجيال المسلمين ، ثم لا بأس في أثناء عرض هذه الحقائق من الوقوف عند بعض النقاط التي يساء فهمها أو يساء تأويلها من قبل الأعداء أو الأصدقاء على حد سواء ، ومن النقاط التي وجب الوقوف عليها هي أحداث هذه القضية :

أقدم رجل أسود البشرة على قتل آخر أبيض البشرة ، وذلك أثر نزاع نشب بينهما ، وعندما أراد القضاء تنفيذ حكم الله الذي أوجبه الشرع الإسلامي وهو القصاص ، احتج ذوو المقتول على ذلك بحجة أن قتيلهم هو حر أبيض ، وأن مرتكب جريمة القتل ، على حد زعمهم ، هو عبد أسود ، وقد طلبوا غير حكم الله ،

مستندين في ذلك إلى الآية الكريمة : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾ .

وقد أثرت تلك القضية وخصوصًا على الآية الكريمة ، على نفسيات الكثيرين ، سواء على ذوي القاتل الذين رضخوا لطلب ذوي الدم ، بل وصل ذلك التأثير إلى المحيطين لهم في المجتمع ، فضلًا عن إثارة تلك القضية نوعًا من اللغط الفقهي في وسط القضاء ، ولكن القضاء أبا إلا أن ينفذ حكم الله وما أمرت به الشريعة الإسلامية .

وعندما أعاد القضاء النظر ، وحقق في أحداث وملابسات القضية وبنوع من التمييز ، وذلك بالرجوع إلى أدق التفاصيل ، اتضح أن المقتول الأبيض أصله مولى من أحفاد العبيد العتقاء من ذوي البشرة البيضاء ، الموالي العتقاء من بلاد الشرق ، الذين جلبهم الفاتحون معهم إلى الجزيرة العربية ، وأن من نعتوه بالعبد لسواد لون بشرته ، هو من المهاجرين الأحرار الذين قدموا أيضا إلى الجزيرة العربية لطلب المعيشة ، ولا توجد له علاقة بالرق .

المسألة على غرابتها ليست غريبة حيث ينظر إليها على ضوء الحقائق النفسية ، فالحياة عادة ، والملابسات يصنعها الإنسان سلبا كانت أو إيجابًا ، ثم يعيش فيها هي التي تكيّف مشاعره ، وتصوغ أحاسيسه ، وأجهزته النفسية .

بعد أن سعى أعداء الأمة الإسلامية إلى تسويق الفكر اليهودي المنحرف ، لغرسه في عقول البشرية عامة (القصة المحرفة للنبي نوح عليه السلام وأبنائه ، التي وردت في كتب وأسفار بني إسرائيل ، سبق الإشارة إليها) وتكريسه في الأذهان لإقناع جهّال الأمم وأتباع الديانات الأخرى به ، وللأسف قد نجحوا في تحقيق ذلك ، ومروره على الكثير من الجهلة ، بما فيهم جهال المسلمين الذين وصلوا لأبعد درجات الاقتناع به فكريًّا ، وأفضل المستويات من حيث تطبيقه عمليًّا .

استَلمت بعض المجتمعات الإسلامية زمام المبادرة ، وسعت إلى صناعة الكثير من الملابسات السلبية ، ومن تلك الملابسات ؛ فرز طبقة من الطبقات ذات التباين الصارخ بين أفراد مجتمعاتهم ، هذا التباين الذي كان ناتجا لذلك التصور العقلي المحض ، الذي

يوصي أتباعه بأن جميع أصحاب البشرة البيضاء هم السادة ، حتى وإن كانوا من أحفاد العبيد البيض العتقاء من العجم ، وأن غيرهم من ذوي البشرة السوداء هم العبيد حتى وإن كانوا من العرب أو الأحرار الذين قدموا للرزق وطلب المعيشة .

الأمر الذي أثر في الكيان النفسي للأفراد المنتمين لتلك الطبقات ، سواء لأتباع الطبقة التي منحت أفرادها جهلًا صفة الأحرار ، أو لأتباع الطبقة الأخرى والتي منحت هي الأخرى أتباعها والمنتمين إليها جهلًا صفة العبيد ، ومع مرور الزمن نشأ ما يعرف في علم النفس (التكيف النفسي) وهو تكيف ناشئ في أصله من الملابسات الخارجية بطبيعة الحال ، التي صنعها لنفسه ابتداءً من ذلك الإنسان ، ولكنه استقل عنها ، وأصبح شيئا قائما بذاته ، كفرع الشجرة الذي يتدلى إلى الأرض ، ثم يمد جذورًا خاصة به واستقل عن الأصل .

أصبح من الصعوبة أن يتغير ذلك التكيف النفسي ، لنمو أجهزة الطاعة إلى أقصى حد ، في نفسيات أتباع الطبقة التي منحت أتباعها صفة العبيد ، نتيجة لجهلها ولعدم إدراكها لأمور

دينها ، ثم رضيت بذلك الإذلال وآمنت به ، دون توفر أي دليل أو مستند شرعي صحيح ، وهذا ما أوصل ذوي القاتل إلى قبول ردة فعل ذوي المقتول ، وتقديم حكمهم على حكم الله ، وكذلك هو حال الطبقة التي منحت أتباعها صفة الأحرار ، وانتفخوا لأجل ذلك ، إلى أن وصلوا إلى درجة عالية من الانتفاخ الوهمي الكاذب ، والذي ما هم ببالغيه إلا إذا عاد ذلك الفرد أو ذلك المجتمع إلى الفهم الصحيح لسلطان الشريعة ، فضلًا عن فهم القرآن على الأساس الذي كانت تفهمه العرب في زمن نزوله ، وذلك من حيث فهم الألفاظ اللغوية والعبارات الأدبية ، لضمان تغيير تلك الأنفس والعقول من الداخل بوضع ملابسات جديدة أساسها القرآن الكريم ، ومصدرها الشارع الإسلامي الصحيح ، لتتكيف المشاعر على النحو الصحيح ، ولتنمو من جديد الأجهزة الضامرة في تلك الأنفس ، لتصنع كيانًا بشريًا سويًا ، بدلا من ذلك الكيان المشوه الممسوخ ، وذلك ما صنعته روح الشريعة الصحيحة في أحداث هذه القصة .

الجواري والإماء في عصر صدر الإسلام وما استتبعه من عصور إسلامية في زمن بني أمية وبني العباس ومن بعدهم :

يعتقد بعضهم أن القصد من التعبير المجازي لكلمة «جارية» هو المرأة (السوداء أو السمراء) ، لدرجة قيام هؤلاء السذج بحصر اللفظ لهذا المدلول ، وهذا محض الجهل اللفظي واللغوي ، وأساس التخلف الثقافي ، الذي لفظه الله العزيز وسنة رسوله المطهرة في الألفاظ العقدية ، والذي لم تألفه أيضا العرب في مدلولاتهم اللغوية ومناداتهم اللفظية ، وقد يعود سبب ذلك لما ألفوه من مفهوم دلالي خاطئ ، الذي طوعه الجهل المركب ، والذي واكب زمن ظهور تلك المرحلة من تاريخ الإنسانية وما وقع فيها من مخالفات شرعية وإنسانية على حد سواء .

ما معنى الجارية لغة وشرعا ؟ وعلى من يطلق ؟ وما نصيبها من الذكر في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة لنبينا محمد ﷺ ؟ وما نصيبها في لغة العرب وفي موروثهم التاريخي والثقافي ؟

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى أرشد عباده إلى خير الألفاظ والأقوال ، ونهاهم عن سيئ الخصال والفعال ، ولذلك حفل

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بالكثير من الأوامر والنواهي القولية والفعلية في ظل تعاليم الدين الإسلامي ، الذي جاء بمفاهيم جديدة في العبادات والمعاملات والقيم والتعاليم ، مما لم يألفه العرب في جاهليتهم من ألفاظ عقدية ومدلولات لغوية وتوجيهات شرعية ، أو مما ألفوه من حيث المفهوم الدلالي الذي طوعه الدين الإسلامي ، ليتماشى ويساير إشراقة سيدنا محمد ﷺ على عالم الإنسانية ، الذي غير كثيرًا من القيم الفكرية والعادات النطقية والألفاظ اللغوية .

وقد كان لتلك المتغيرات الفكرية واللغوية ، أثر كبير في مفردات اللغة العربية ؛ لأن اللغة هي وعاء الفكر ، وهي أداة للتعبير عن ظاهر اللفظ من كلام الله ، وتفسير معاني الألفاظ التي نطق بها القرآن الكريم أو وردت في الحديث النبوي الشريف .

كان لذلك الأمر أثر كبير في وظيفة الكلمة ، وما صاحبها من تطوّر في الآراء والأفكار الإسلامية ، حتى أصبح من المتعذر فصل اللغة العربية عن علوم الإسلام .

تعريف مصطلح (جارية) :

الجارية تأتي بمعنى : السفينة ، والجوار والجاريات جمع جارية ، ومعناها السفن ، قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ . أيضًا قوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ .

والجارية تأتي بمعنى الأنهار لجريانها ، قال تعالى : ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ . والجارية : تأتي بمعنى الفتية من النساء ، ومنها تكون الجارية هي الأمة المملوكة بملك اليمين ، والتي يكون أساس مصدرها هو الأسر في حرب مشروعة ضد الكفار .

والجارية تأتي بمعنى : الجوري ، يُنطق الاسم بياء مشدّدة جويرية حين ينسبونها إلى الجوري ، وهو الورد الأحمر فيقولون : جورية كما ينطقون حورية وقد يصغرونها فيقولون : جويرية ، و(جور) هذه مدينة فيروزآباد وإليها ينسب الورد فيقال : جوري والوردة جورية .

وما يجب تعريفه هنا هو الجارية : الأمة المملوكة بملك اليمين ، والجواري والإماء كلاهما مرادفات لما معناه السبايا

المأسورات في الحروب المشروعة ضد الكفار، ففي قديم العهد عندما تكون هناك معركة وينتصر فيه المسلمون يكون من بين أسرى العدو الكافر سبايا من النساء.

معنى السبي لغة :

يقال : سَبيت النساء سبيًا وسِباء، ووقع عليهن السباء، وهذه سبية فلان : للجارية المسبية، وتقول : خرجت السرايا فجاءت السبايا.

والسبي ما يسبى والجمع سبي، والنساء؛ لأنهن يسبين القلوب، يسبين فيملكن، ولا يقال ذلك للرجال؛ لأن الغالب تخصيص الأسر بالرجال، والسبي بالنساء، والجمع سبايا.

معني السبي اصطلاحًا :

السبايا هم الصبيان والنساء الذين ظفر المسلمون بأسرهم أحياء، والأسرى هم الرجال والمقاتلون الذين ظفر المسلمون بأسرهم أحياء كذلك.

أساس نشأة السبي؛ هو وجود النساء والصبيان في ميدان

القتال ، ووقوع الأسر على الجميع ، ومن هنا أيضا تُساق النساء أسيرات ، فيصرن بعد القسمة في أيدي المحاربين ، ولما كان الشأن الغالب أن يقتل بعض أزواجهن ، ويفر بعضهم الآخر حتى لا يعودوا إلى بلاد المسلمين ، كان من الواجب على المسلمين كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ، ومنعهن من الفسق ؛ لأن من المصلحة لهن وللبيئة الاجتماعية ؛ أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر ـ كافل يكفيها هم الرزق .

الإسلام لم يفرض السبي ولا أوجبه ولا حرمه أيضًا ، إنما أباحه ؛ لأنه قد يكون فيه المصلحة حتى للسبايا أنفسهن ، ومنها أن تستأصل الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد مثلًا ؛ فإن رأى إمام المسلمين الكفء ، أن الخير والمصلحة في بعض الأحوال أن ترد السبايا على قومهن جاز لهم ذلك أو وجب ، بقاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد ، وكل هذا إذا كانت الحرب دينية ، فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحظوظ الملك ، فلا يباح فيها السبي .

من الملاحظات الجديدة بالرصد ، أنه على الرغم من كثرة

الغزوات التي وقعت في عهد الرسول ﷺ، وما كان يمكن أن يستتبعها من أسر وسبي، إلا أنه لم يكن له ﷺ من السراري إلا أربع.

يعود السبب في ذلك لصلابة الإيمان، وصلاح الأخلاق، وشدة الرقابة على السلوك، تلك الرقابة التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بمبادئ التشريع الرباني، ولذلك فقد نجح معلم البشرية محمد ﷺ في تحقيق الغرض الذي كانت ترمي إليه الشريعة الإسلامية الصحيحة، لنتعلم منه نحن أتباع ديانته ﷺ. قال أبوعبيدة: كان للنبي أربع: مارية وهي أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي، وجارية اسمها نفيسة وهبتها له زينب بنت جحش.

من الملاحظات الجديرة في ذلك الزمن، أن السبية لم تكن تستباح لكل الرجال، وإنما هي لرجل واحد تشبه علاقته بزوجته، وفي هذا أيضا احترام لآدميتها وتكريم لمشاعرها، ولكن بعد موته ﷺ، وبانقضاء زمنه وزمن الطبقة الأولى من الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ومن معهم من المسلمين، فقد قام على من أتى من بعدهم صراع بين الدين

والدنيا ، وتحول بعض الخلفاء والحكام والأغنياء من المسلمين بَدْءًا بعهد بني أمية وبني العباس إلى حياة جديدة .

فبإشراف أسارير الدنيا عليهم ، ولتمكنهم من أطايبها بما نالوا من ثراء عريض ، فقد أقبلوا عليها إقبال عاشق غاب رقيبه يشبعون نهمهم من لذاتها ، وما أتاحت لهم الفتوح أن يحظوا ببنات الأعاجم ، فأسرن قلوبهم بجمالهن ، فشيدوا القصور ، وتحيط بها الحدائق الغناء ، وازدحمت بها الجواري والسراري من نساء الروم والفرس والترك ، وأسرف البعض في استعمال ذلك ، بل وتعداهم إلى حياة المجتمع والأسرة ، ولكن دون مراعاة لروح الشريعة الإسلامية ، وذلك عن طريق الشراء ، حيث لعبت النخاسة دورًا مهما في انتشار ذلك في المجتمع الإسلامي والإسلام بريء منه ، ومخالف لروح الشريعة ، وليس من الإنصاف أن نُحمّل الإسلام تبعات ذلك ، وما استتبعه من انعكاسات سلبية أدت إلى تفكك كيان دولة الإسلام وروابط المجتمعات والأسر القديمة .

وإذا ذهبنا إلى العصر الأموي والعباسي ، نجد أن هناك تحولًا طرأ على نمط الحياة وانتقالًا إلى طور جديد ، أخذ فيه بعض الخلفاء

ينعمون برخاء كان ممتنعًا عليهم في عهد الخلفاء، فقد ارتفع قدر الجواري عندهم، لدرجة ولوع بعض الخلفاء بهن، وبعضهم أشغلته عن شئون الدولة، ولأن بعضا منهم لم يكونوا قدوة صالحة، فقد أثر ذلك سلبًا على مجتمعاتهم، وأصابها ما أصاب بعض أولئك الخلفاء من ولع وجاءهم الجواري بضروب من الغناء والطرب وفنونه، ففي مكة والمدينة ظهرت أول طبقة من المغنيين، فألفوا من ألحان الفرس والروم ألحانًا جديدة، وقد شاعت شهرة الكثيرات منهن بحديثهن الممزوج بالأدب والفكاهة والشعر.

وهكذا فإننا نرى أن الولع المبالغ فيه في حب الجواري والقيان من نساء الروم والفرس والترك وغيرهن قد احتل مكان الصدارة عند بعض الخلفاء والحكام، وغزا الحسان منهن قلوب بعض أفراد مجتمعات المسلمين؛ الذين أسرفوا في استعمال ذلك بلا ضابط شرعي وبلا فهم ودراية بالغاية الشرعية نحو مسألة الجواري والإماء، فكما استعرضنا أن الإسلام ما فرض السبي ولا أوجبه ولا حرمه، وإنما أباحه؛ لأنه فيه مصلحة للسبايا أنفسهن.

تلك المصلحة التي كانت أحد مقاصد روح الشريعة الإسلامية النبيلة، التي رمت إليها في مسألة الجواري وسبايا الحروب المشروعة، وذلك لضمان معالجة النتائج الحتمية التي خلفتها الحرب ومعالجة الآثار الإنسانية الصعبة، للفترات الاستثنائية التي يعيشها السبايا المأسورات، اللاتي شاركن في تلك الحرب ومساعدتهم على معايشة تلك المرحلة النفسية بعد هزيمة قومهم، وفقدان أهلهم ووطنهم؛ لأن مرحلة ما بعد الحروب أشد وطأة من الحروب ذاتها، لترجع بعد ذلك الحالة الاجتماعية الطبيعية لهن وبصورة كاملة، وذلك من خلال الأحكام والشروط الإسلامية المنظمة والمرتبطة ارتباطا وثيقا بمبادئ التشريع الرباني، المعالجة لمسائل الرق وملك اليمين، لا بتشريع وقوانين وآراء الكتاب الجهلة، فضلًا عن تجاوزات بعض المسلمين التاريخية لهذه المسائل الهامة والحساسة وغيرهم من الذين سبقوهم في ذلك، تلك التجاوزات التي أحدثت ثغرات، نفذ من خلالها أعداء الإسلام، والكتّاب الذين في قلوبهم خبث وحقد من أتباع الديانات الأخرى لمهاجمة الدين الإسلامي.

وحسبوها أنها مشكلة أوجدها الإسلام ، ومن ثم عمدوا إلى إثارة العديد من الشبهات والشكوك حوله ، ليصدوا الناس عن عبادة الله عز وجل ، لأنهم اقتطعوا تلك الأخطاء الخطيرة والبشعة ، وصوروها على أنها واقعٌ طبيعيٌّ للمبادئ التي شرعها الدين الإسلامي تجاه قضايا العبيد والجواري ، وناقشوا القضية بخلفية تاريخية مختلفة ، ومصنوعة إعلاميًّا عن العبيد والجواري المملوكات ؛ مناقشة وتصويرًا فيه خبث شديد بلغ مبلغًا من القبيح والبشاعة ضد حرية وكرامة بني الإنسان ، وتعد هذه الصور هي أحد الصور القائمة ، التي رسمت خطأً عن الإسلام ومبادئه وشوّهت صورته ، ومن ثم باتت عالقة في أذهان وعقول الكثيرين ، سواء من أتباعه أو ممن لم يعرف صورته الحقيقية بعد ، من أتباع الديانات الأخرى .

للأسف إننا اليوم وبعد كل هذا نسمع أصواتًا ، ونقرأ مقالات ، ونشاهد دعوات لبعض الكتاب العرب والمسلمين ، يطالبون فيها وبصورة غير مباشرة بالعودة إلى تلك المخالفات .

لو أردنا أن نورد مثلًا للأصوات الإسلامية والعربية البارزة التي

تدعو إلى ذلك ، لإيقاع الأمة الإسلامية بقصد أو بغير قصد في وحل ذلك الانحلال ؛ فهو ما نلقاه وما نسمعه من صوت نشاز لإحدى الناشطات ، تطالب بسن قانون بامتلاك وشراء الجواري من النساء والفتيات الروسيات ، اللاتي يقعن أسيرات في أيد القوات الشيشانية مقابل مبلغ مالي حددته هي ، يدفع لمن أسر تلك الجارية ، وكما تقول هي في إحدى مقالتها نشر لها : «من أجل حماية الرجال من الفساد والزنى ، وللقضاء على الدعارة» بل ويزداد الأمر سوءًا عندما أكدت أنه يحق للجارية أن تترك الرجل الذي اشتراها أن يغيرها بعد سنوات .

أي جهل كانت فيه تلك الكاتبة؟ وأي ثقافة ضحلة تحملها؟ وأي قلة إدراك ومعرفة بخطورة ما تكتب؟ وكأن الشريعة الإسلامية جاءت بقوانين وضعية ونصوص أرضية ، من صنع الجهال ، ووفق ما تمليه الأهواء البشرية ، والغرائز الشهوانية .

ومما لا يدع مجالًا للشك ، فإن هذه الأصوات وهذه الدعوات ، أو ما شاكلها من آراء بعض الكتاب ، وآراء بعض

الشباب المسلمين ، الذين سيطرت الشهوة على كامل عقولهم ، والذين أضحكوا علينا وعلى الأمة الإسلامية الأمم الأخرى ، إنما تمثل خطرًا شديدا على المجتمع المسلم ، وفي حال الانجراف خلفها كقضية خطيرة وحساسة كهذه من دون مراعاة لروح الشريعة الإسلامية ومقصدها الإنساني النبيل ؛ هو ما سيقضي على ما تبقى من قيم إسلامية أصيلة ، وسيعيد العالم الإسلامي والعربي إلى سيناريو ذلك الانحلال الخلقي والأخلاقي ، والتفكك الأسري والاجتماعي ، الذي عاناه المسلمون منذ قرون طويلة .

إذن ؛ هذا هو المفهوم الصحيح لمعنى الرق والاستعباد ، وما تضمنه القرار التاريخي للمغفور له بإذن الله الملك فيصل ، وأدركنا السبب الذي من أجله صدر ، ومن استُغِلوا في تلك الفترة ؛ كانت ملكيتهم ليست صحيحة ، لعدم توفر الشروط الشرعية اللازمة التي تجيز وتوجب الرق والعبودية ، وأنهم بيعوا وهم أحرار ، وكلمة تحرير تعني تعويض أهاليهم عنهم لتحقيق المصلحة العامة للجميع .

قانون حقوق الإنسان العالمي .. عدل إلهي ؟! ... أم قانون أعمى ؟! ...

العدل والقانون :

هناك نقطة يجب أن تكون واضحة في مستهل هذا الكلام ؛ وهي أن العدل مهما كان معناه ، إلا أنه قيمة خلقية ، وهذه القيمة هي أحد الغايات التي يسعى إليها الإنسان لتحقيق حياة هنيئة .

العدل :

هو أساس الكون ، وأساس العمران ، وبه قوامها ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، ومفهوم العدل أوسع من مفهوم القانون ، ويمكن أن يطبق حيثما وجد ، تقنين للقواعد سواء كان قانونيًا أو غير قانوني ، ومثال على ذلك ؛ تستطيع مؤسسة أو مدرسة خاصة إدارة ذاتها ، بقانون يتفق مع العدل الشكلي ، سواء كانت الأحكام القانونية تطبق بدقة أم لا ، هذا من حيث المفهوم الواسع لمعنى العدل .

تأتي العدالة الشرعية بمفهوم المساواة في التعامل ، وهي عدالة نسبية تجمع العدالة القانونية والاجتماعية ، أي تحري الحق بحسب القدرة البشرية ، لتحقيق العدل بين الناس وفق أوامر الشرع .

القانون :

هو أحد المؤسسات الجوهرية في حياة الإنسان الاجتماعية ، الساعية إلى تنظيم كيان المجتمع ، ليتحقق تحضر العنصر البشري وتقدمه ، وارتقاؤه في جميع الشئون الإنسانية ، الدينية ، والعملية ، والفكرية .

كما أن القانون وسيلة لتحقيق الانسجام الاجتماعي عن طريق كبح مشاعر الشر لدى الإنسان ، وأي تقدم اجتماعي لا يمكن تحقيقه دون وجود قانون العقوبات الزاجر ، ويعتبر العدل غايته القصوى التي يهدف إليها .

علاقة عدالة الكون الإلهي بالقانون العالمي لحقوق الإنسان والحرية البشرية :

كان من الضروري علينا كبشر ، أن نبحث ونتمعّن في دائرة

القرار العالمي ، الذي دعا عموم البشرية إلى سن قوانين وأنظمة ، تصون للإنسان حريته ، وتحفظ حقوقه ، وتكفل حمايته ، وعلينا لهذه الغاية أن نأخذ بعين الاعتبار علاقة القوانين والأنظمة بقانون العدالة الكونية الإلهية العامة ، لنعرف من الذي دعا كل هذه المجتمعات البشرية في صفحة الكون العريضة ، المنفصلة جغرافيا ، والمنتمية إلى أمم متعددة وديانات مختلفة ، وحضارات ، وثقافات متمايزة ، إلى القبول بمثل هذا النداء العالمي والعمل به ككل اجتماعي .

إن قانون حقوق الإنسان ، وحفظ الحريات وحمايتها دوليًّا ، والمعاهد الأوروبية ، والإعلان العالمي عنها ، الذي أقرته الجمعية العمومية لحقوق الإنسان للأمم المتحدة عام ١٩٤٨م ، وجميع نظم العدل ، والقوانين ، المنادية لتحقيق العدالة في الأرض بين سائر البشر ، بمختلف أديانهم وأجناسهم وأعراقهم وثقافاتهم ، أمام ميزان العدل والإنصاف ، تعتبر أحد قيم العدالة الشرعية ، المرتبطة بالعدالة الإلهية العامة ، التي تدير موازنه عموم الأشياء .

ولاختصاص شرائع الدين بالمجتمع البشري ، فقد أسند أمر

تنفيذها إلى الإنسان ، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1] لتحقيق العدل بين الناس ، وفق أوامر الشرع وإعطاء كل ذي حق حقه ، وهذه سنة الله ، طالما بقي الوجود البشري على الأرض ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] .

ولما وضعت البشرية لنفسها نظمًا اجتماعية ناقصة ، يستهجنها العقل والمنطق ، وتحددت في ظروف يسودها الظلم والبغي ، لاعتمادها على معايير الجنس والدين والعرق ، كان الأثر السلبي بالغًا على الحياة الاجتماعية لتلك المجتمعات ، لتولد الفوضى العارمة وحدوث المشاكل الاجتماعية ، ونشوء الأزمات التي أقلقت مجتمعاتهم ، وما ذلك إلا نتيجة لتعارض معايير تلك النظم والقوانين مع معايير النظم والقوانين الإلهية ، ما أفقدها

---

(١) الحديد : ٢٥.

(٢) النحل : ٩٠.

القدرة على إيجاد التفسيرات الحقيقية ، للأسباب التي أدت إلى حدوث تلك المشاكل والأزمات ، وعجزها عن تقديم الحلول الجذرية للقضاء عليها .

وما ذلك إلا لإخلالهم بموازين العدل الشرعية ، المرتبطة بالعدالة الكونية العامة ؛ لأن منهم من ربط النظام الديني الشرعي الخاص بالرق والاستعباد بالنظام السياسي ، ومنهم من ربطه بالضرورة الاقتصادية ، ومنهم من جعله نظامًا طبيعيًّا ، ومنهم من جعل سببه الفقر أو الحاجة ، أو الدين ، أو الجريمة ، أو الخطف ، أو الاستغلال الجنسي ، وفي هذا كله مخالفة لنظام العدالة الإلهي ، وبالتالي لا يملك هذا النظام أية صلاحية للبقاء شرعيًّا ، وما من شك من أن من يعمل به يؤثم ؛ لأن فيه انتهاكًا جائرًا للحرية البشرية ، وحقوق الإنسان ، وهذا هو مبدأ العدل الإلهي ، الذي نصت عليه جميع شرائع الأديان السماوية (اليهودية والمسيحية ، والإسلامية) .

ففي الديانة اليهودية (العبرية) دون في الأجزاء الأخيرة في عهد النبوة الكبرى لها ؛ أن أنبياءهم لما شرعوا لأقوامهم الدين ،

أقاموه على أساس وحدانية الأُلوهية التي لا تتزعزع ، حيث تملي إرادة الله ؛ سن النظم والشرائع لكل الجنس البشري ، وقد أكد أنبياء العبرانيين بلغة حازمة على الالتزام بشريعة الله ، على شريعة الحكام والشعوب على حد سواء ، وذكروا أن لا نظام بشري يسمو على نظام الله ، وأن الله سيوقع العقاب على الذين يعصون أوامره كما ورد في شريعة نبي الله موسى عليه السلام ، والتوراة مليئة بقصص العقوبات الزاجرة ، التي أوقعت على الملوك والشعوب ، الذين اجترءوا على انتهاك شريعة ونظم الله ، لمصالحهم الخاصة أو لمصلحة آلهة أخرى ، أو أنماط حياة غريبة .

ومما لا يلزم إغفاله ، أن العبرانيين خاصة كانوا من أكثر شعوب العالم القديم أثرًا في إبراز التعارض بين قوانين العدل الإلهية والبشرية ، بأساليب وطرق أثرت على الفكر القانوني الغربي منذ ذلك الحين حتى الآن ، ورفضوا كل أنظمة التعدد الإلهي ، والحكام ، وأن أي قانون أو نظام ينص على ما يخالف قانون العدل الإلهي ، يعتبر باطلا ، ويجب تجاهله مهما كان الثمن ، كما اعتبروا العدل مهما كان معناه ؛ إلا أنه قيمة خلقية ، أي أنه إحدى الغايات التي يسعى إليها الإنسان لتحقيق حياة هنيئة ، ولئن كانت

الغايات الأخلاقية للإنسان تصنف بأنها خيرة ؛ فإن فكرة العدل هي أحد الأمور الخيّرة التي تسعى الأخلاق لتحقيقها للجنس البشري ، وهذا الخير قد يعمل كوسيلة أو كفاية في حد ذاتها ، فقد تعتبر السعادة مثلًا غاية في حد ذاتها .

وتعتبر الحرية وسيلة لتحقيق السعادة ، وتصنف الأمور الخيرة المختلفة ، أو قيم مجتمع إنساني في مسلسل ، بحيث يكون بعضها مجرد وسائل لتحقيق قيم أسمى ، وجميعها يهدف إلى الخير المطلق ، وهو مسألة اختيار لا تطبيق ، وبمقدورنا إذا شئنا أن نضع العدل في هذا المقام .

لذلك فعلى أتباع الديانة اليهودية في هذا العصر أن يرقوا إلى نظام العدل الإلهي ، الذي انبثق منه دينهم الحق ، وجاء به أنبياؤهم ، ذلك الدين الذي يرفض النظم والقوانين الدينية والاجتماعية ، التي وضعها ملوكهم السابقون والكهنة ، الذين زعموا أنهم يتمتعون بالقداسة ، وجعلوا التوراة تمتلئ بكثرة الشكوك والغموض ، واستغلوا سذاجة الناس ؛ لأنها نظم قامت على أساس الظلم والتعصب ، والعنصرية ، والفوضى ، والخلاف ، ليدرءوا عن أنفسهم الصدام مع الآخر ، وليحققوا

التسامح والإصلاح الديني والاجتماعي والأخلاقي مع أنفسهم ، ومع غيرهم من المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين بصفة خاصة في أرض فلسطين ، أو مع غيرهم من أتباع الأديان السماوية من مسلمين ومسيحيين وغيرهم ، والأجناس البشرية الأخرى بصفة عامة ، على كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، لينعموا بدنياهم كما أراد الله .

أما الديانة المسيحية ، فقد دعا نبي الله عيسى عليه السلام ، بما أخبره به الله تعالى إلى المساواة بين الناس ، وقد أوصى تابعيه أن يعاملوا الناس بمثل ما يحبون أن يعاملوا به ، وقد تفرّق حواريوه من بعده في الأرض يبشرون بدعوته ، وانتهى المطاف ببعضهم إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، ومهد الوثنية ، وقد جذبت دعوة العدل الإلهية الكثير من أصحاب الفطر السليمة إليها ، ورأى المثقفون المسيحيون فيها إشراقا روحيًا ؛ خلت منه الوثنية ، كما استبشر بها المستضعفون ، حبًا في العدل والمساواة ، غير أنها أخذت منذ القرن السادس ولأسباب مادية ، تدعوا أن المسيح عليه السلام إنما جاء ليحرر المسيحيين أو المتنصرين فقط ، وفي هذا تعدٍّ على الحريات الدينية للغير ، بإكراههم على اعتناق دين المسيحية ،

ومعاذ الله أن يُكره المسيح عيسى عليه السلام أحدًا، على اعتناق دين، وإنما مثله كمثل محمد ﷺ عندما خاطبه ربه، بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وإن حصل تحريف، فهو بلا شك من صنع الباباوات والأساقفة، التي تعود أسبابه إلى أمور مادية، أو لمصالح خاصة؛ لأن المسيحية واليهودية والإسلامية جميعها أديان حق وعدل سماوية، جاءت من عند رب واحد قانونه العدل.

أما في الإسلام؛ فلم تختلف نظم قوانين العدل الإلهي عن نظم وقوانين الديانة اليهودية والمسيحية الحق، التي جاءت من عند الله، بشأن العدل بين البشر وحماية حريتهم، وحرمة الاعتداء عليها ظلمًا، وقد ذكر الله تعالى في الحديث القدسي، صورة من الوعيد الشديد لمن يتعرض لها، قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطي بي عهدا ثم غدر، ورجل باع

(١) البقرة: ٢٥٦.

حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[1].

وموقف العدل الإلهي هنا واضح وجلي، فهو لم يساير الأهواء التي استغلت حريات البشر دون وجه حق شرعي، ونزعتها باسمه، ونعتهم بالأرقاء، ثم بيعوا على أنهم عبيد وجوارٍ، وإنما جاء الرد الإلهي الحاسم، الذي يثبت حريتهم، ويخرج تلك الأنفس من ظلمات العاهات والعادات الاجتماعية والقبلية الهمجية، التي لم تبق لقوانين الدين، التي أخبر بها محمد ﷺ، وضوابط الشرع، التي رسم الدين الإسلامي حدودها في مجال العلاقات الاجتماعية بين البشر، إلا كومة من طين تعجن وتلبس لباس الدراويش.

وهذه هي مشيئة سلطة العدل الإلهية، المنسوبة إلى إرادة الله، التي دعت إلى سن قوانين ونظم العدل، وإقامة الإصلاح الاجتماعي على الأرض، وهي السلطة ذاتها التي أخضعت الأمم، وستخضع الكثير من المجتمعات المنتمية إلى أمم مختلفة،

(١) أخرجه البخاري (٢/٧٧٦).

وأديان سماوية متعددة ، إلى نبذ النظم التي تنتهك حرية البشر ، وتنال من حقوق الإنسان دون وجه شرعي ، وقد شاءت هذه المشيئة الإلهية أن تعود الحريات التي سُلبت من أصحابها ظلمًا وعدوانا ، وذلك في صورة ثورات اجتماعية أو قرارات أممية نادت بحرية الإنسان .

فأما ما جاء في صورة ثورات ، فإن أقدم ما عرف عن الثورات التي قامت دفاعا عن حرية الإنسان وعن حقوقه التي انتهكت ، هو ما حصل في العهد الروماني ، الذي يعتبر مسرحًا داميًا لتلك الثورات ، ففي عام ١٨٥ق .م ، ثار مجموعة ممن سُلبت حرياتهم ظلما وعدوان في (إترووريا) ، وتتابعت ثوراتهم بعد ذلك في أقاليم أخرى وكان أهمها ثورتين : ثورتهم في صقلية ، والأخرى في مدينة كابوا ، وفي عام ١٣١ق .م انتهز مجموعة ممن نزعت حرياتهم ظلمًا وقهرًا في صقلية اشتغال الجيوش الرومانية في صد هجمات القبائل الرومانية ، وثاروا واحتلوا من الجزيرة ، وانضم إليهم الفقراء ، ثم إن الدولة أرسلت أربعة جيوش لقمع ثورتهم ؛ ولكن بمشيئة العدالة الإلهية ، قضت أن تدمر تلك الجيوش واحدًا بعد آخر ، ثم انتقلت صقلية إلى يد أولئك المقهورين لبضع سنين .

كذلك الحال في العهد الإسلامي والبلاد الإسلامية ، التي لم تخل هي الأخرى من نشوب الثورات ، بسبب الانتهاك الخاطئ للحرية البشرية ، فقد حدثت ثورات قام بها مجموعات ممن سُلبت حريتهم ظلمًا ، ومن أبرز هذه الثورات ما حدث في أيام مصعب بن الزبير ، عندما جلب مجموعة من أفريقيا إلى العراق لاستصلاح الأرضي الزراعية (السباخ) .

ومن ضمن هذه الثورات أيضًا ، هو ما حصل في العهد العباسي ، في زمن المعتمد على الله .

وأما ما جاء في صورة قرارات ومنظمات عالمية ، فهو ما جاءت به المعاهدات الأوروبية والقرارات الأوروبية التي أقرتها الجمعية العمومية لحقوق الإنسان للأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨م ؛ التي نادت بقانون حقوق الإنسان ، وطالبت بضرورة سن القوانين التي تحفظ بموجبها حريته بشكل عالمي ، لتعمل المجتمعات البشرية في صفحة الكون العريضة ككل اجتماعي ، وقد عمل العالم الغربي ومجمعات دول أوروبا كذلك ، بدءًا بالدنمارك وفرنسا وبريطانيا ، ثم تبعتها أمريكا .

وقلة هي المجتمعات العربية والإسلامية التي قبلت وعملت بتلك النظم والقوانين، وقلة هي الأخرى التي عارضت ذلك، وتمسكت بحق وجود الرقيق كما يقولون، وقد كان من ضمنها الخليج العربي؛ لأنها تجزم أن الاستعباد (الرق) مذكور في تشريعهم الإسلامي، وأن القرآن الكريم قد نص عليه، وهذا صحيح، ولكن بعد النظر إلى شرعية وصحة ما كانوا عليه من فهم وتصور، وممارسة شيء آخر؛ لأنهم مارسوا قضية الرق على أناس أحرار، لا تجري عليهم قواعد وأحكام الرق، ولا تتوفر فيهم الشروط الشرعية الموجبة للاستعباد.

فكيف يا رعاك الله، إذا كتبته وتكلمت به ونشرته، ومما لاشك فيه أن الأمر أشدّ، والعلة أدهى وأمر، ولا يضر المخطئ إلا نفسه، ولذلك فنحن المسلمين، بشكل خاص، في حاجة ماسّة إلى القلم الصادق، إلى القلم الأمين، إلى القلم الملهم، الذي ينشر الحق ويحيي السنة، ويدل الناس إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم. ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾[1].

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

مفاهيم الرق والعبيد والجواري ... كيف عرفتها الأديان ؟ .. وكيف حرفها أتباعها ؟ :

دراسة علمية من منظور إسلامي ، توضح الخلل الذي طرأ على مفهوم هو الرق والاستعباد في جميع الأديان السماوية (الإسلامية ـ المسيحية ـ اليهودية) ..

الرق والعبيد والجواري ، عبارات تتردد على مسامعنا كثيرًا ، بين الفينة والأخرى ، ويثير حولها الجدل واللغط ، الكثير من أتباع الديانات السماوية ، من مسلمين ومسيحيين ويهود ، والذين يظهر من خلال طرحهم للقضية وتناولهم لها ، وعلى الرغم من انتمائهم الديني ، أو الثقافي ، أو الفكري ، أنهم أناس لا يفقهون ولا يدركون شيئًا ، لا عن المعنى والمفهوم الشرعي لهذه المسألة ؛ ولا عن الحكمة الإلهية التي قصدتها أديانهم ، من خلف قضية الرق ، ومفهوم الاستعباد ، فضلًا على استنادهم أثناء طرحهم لهذه القضية ، على نصوص دينية محرفة ، ومبررات ونظريات فكرية ، هي بعيدة كل البعد عن حقيقة وصحة الأديان .

ولاستعراض بعض هذه النصوص المحرفة ، خذ مثلًا هذا

النص الذي ورد في سفر التكوين التابع للديانة اليهودية ، في صورة تقويم خصومة بين العقل والدين ، وهو السبب الرئيس وراء تلوث وانحراف الفكر البشري على مر التاريخ ، والذي يقول نصه : إن نوحا لما أراد أن يلعن ابنه حام ، لعن حفيده كنعان بن حام وقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته . (آية ٢٥) ، وفي سفر التكوين : ٩٢٥ : جاء أن كنعان ملعون لعنة أبدية ، وأنه هو ونسله عبد لإخوته .

أي : أن هناك فريقًا من الناس مخلوقون للعبودية على حد زعمهم ، وهم جميع ذرية حام بن نوح ، وقد خضعوا أن يكونوا عبيدًا لذرية سام ويافث ابني نوح ، وحام وكما هو معلوم أنه أبو السمر والسود ، أما سام فهو أبو العرب والبيض ، ويافث هو أبو الصين .

وللأسف فقد تمكن رجال الدين ، وحاخامات الديانة اليهودية ، من إيجاد المبررات الفكرية ، والفلسفية لهذا التحريف ، ونجحوا في تسويقها ونقلها إلى جميع الأديان الأخرى ، ثم غرسها في عقليات أتباعها ، والمنتجين لها من مسيحيين ومسلمين ، فضلًا عن أتباع الديانة اليهودية نفسها ، وهذا ما

تؤكده ردود أفعال الكثير من الحاخامات ، ورجال الدين اليهود على مر التاريخ ، ولعل آخرهم هو ما قام به الحاخام اليهودي الكبير (عوفاديا يوسف) ، من هجوم عنصري عنيف ، على باراك أوباما ، عندما تطرق لأصله ، وبشرته السمراء ، وقد تجسد ذلك في عبارات عنصرية حانقة ، أطلقها من خلال منبر ديني في قوله : «هل صار يحكمنا العبيد ؟!» فأي جهل ديني وقع فيه هذا الحاخام وأمثاله من الحاخامات ، ليربطوا دينيًّا ، قضية الرق والعبودية بذوي البشرة السمراء أو السوداء ؟! وأي تعاليم دينية ربانية تملي عليهم هذا الباطل ، وتزينه لهم ؟!

وهذا أيضا ما يريد أن يقنعنا به الكثيرون كل يوم ، من أبناء وأتباع الديانة الإسلامية والمسيحية ، ممن انطلت عليهم هذه الأكذوبة الدينية اليهودية المحرفة .

ولكن هل قرأ أصحاب العقول السليمة والمبادئ العليا ، العقائد الرفيعة بهذا الفكر الضال ؟! .

وهل أقرّت الشرائع السماوية هي الأخرى هذا التحريف ؟! .. وهل اعترفت بهذه الخرافة ؟!

العقليات التي وقر في جوفها الجهل المركب ، وانطلت عليها هذه الخرافة ، وامتازت بالسطحية تقول : نعم . . .!

ولكن شرائع الأديان السماوية الصحيحة (الإسلامية والمسيحية واليهودية) : قالت وما زالت تقول : لا ...

ليس هذا معنى الرق ، ولا معنى العبودية الذي قصدته الأديان .. فروح الشرائع السماوية لم تمت بعد ... ولم تتبدل شروطها ولا أحكامها ولا أطرها الشرعية ... فمكانها محفوظ ، وصدري مفتوح لها . كما أن اليهود لم يتوقفوا عن السير قدما في مسلسل خلق وإيجاد التبريرات لاعتقاداتهم الفكرية الباطلة ، التي من شأنها أن تجعل منهم شعبًا مقدسًا ، وجنسًا بشريًّا راقيا ومميزًا على سائر الشعوب ، والسّعي في إيجاد النصوص الدينية التي تبرر لهم ذلك ، منها النص الذي ورد في أحد كتبهم المقدسة ، والذي يقول نصه : (أنتم أولاد الرب إلهكم ، لأنك شعب مقدس للرب إلهك . واختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًّا فوق جميع الشعوب على وجه الأرض) ، معتقدين أن تميزهم هذا هو منحة ربانية أعطاهم الرب إياها كما يزعمون .

بل ذهب بهم الأمر أيضا أن جعلوا هذا النص مقياسًا لتفسير وتأويل بعض الأحداث التاريخية ، فمثلًا قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام ، مع زوجتيه سارة وهاجر ، فقد فسروا أحداثها بطريقة تظهر أفضليتهم على سائر العرب العدنانيين ؛ لأن العرب حسب زعمهم أبناء وأحفاد الجارية هاجر عليها السلام ، قبل أن تهبها له ، وأحداث هذه القصة تعود عندما قدم الخليل إبراهيم عليه السلام هو زوجته سارة ذات يوم أرض ملك جبار ، وقيل : إنه ملك مصر في ذلك الوقت ، فقيل لهذا الملك : إن هنا رجلًا (إبراهيم عليه السلام) ومعه امرأة ، دخلوا مملكتك ، المرأة جميلة جدا في غاية الجمال ، لا تصلح إلا لك .

وكان قد تزوجها إبراهيم لما هاجر من بلاد قومه ، وقيل كما ورد في الحديث ، أن ذلك الملك رأى إبراهيم ورأى معه سارة ، وكانت قد أوتيت من الحسن شيئًا عظيما ، وقيل : إن أحد جنود الملك رآها وهي تطحن ، فسأله الملك عنها فقال : من هذه المرأة التي معك ؟ قال : أختي ، ظاهر الحديث أنه أتى بإبراهيم أولًا ، ثم رجع إبراهيم إلى زوجته ، قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك ، ثم طلب منها إذا سألها الملك عن قرابتها

منه ، من تكون بالنسبة له ، أن تقول له : إنها أخته ، حتى لا يتناقض كلامه مع كلامها ، لأنه قال له أنها أخته ، وهي أخته في الإسلام .

ولما أخذت سارة من إبراهيم ، قام خليل الله يصلي ، وعندما أدخلت على الملك لم يتمالك أن بسط يده إليها من شدة جمالها ؛ لأنه لم يستطع أن يقاوم نفسه ، فشلت وقبضت يده قبضة شديدة ، ولما شلّت يد هذا الملك قال : ادعي الله لي ولا أضرك . وفي رواية مسلم : ادعي الله أن يطلق يدي . ففعلت ، فدعت الله له فأرسلها ، ثم لما تحرر الرجل ورجع إلى حاله الأول هل توقف ؟ أبدًا .

تناولها للمرة الثانية ، ثم قام إليها ، فدعت الله عز وجل ، فأخذ الله يده بقبضة أشد من القبضة الأولى ، وبعد المرة الثالثة دعا الرجل الذي جاء له بسارة وقال له : إنك لم تأتني بإنسان ، إنما أتيتني بشيطان ، هذا من فعل الجن ، ما أرسلتم إليّ إلا شيطانةً ، ارجعوها .

ثم أطلق سراح سارة وقال : أعيدوها إلى إبراهيم ، وزيادة على ذلك : أعطاها خادمة وهي هاجر وهبها لها لتخدمها ، لأنه سمع أنها كانت تعجن العجين أو تخدم نفسها ، قال : هذا لا

يليق أن تخدم نفسها . فأعطاها خادمة وهي : هاجر .

فلما أطلق سراحها ومعها هاجر أتت سارة إلى إبراهيم وكان يصلي ، فقال إبراهيم بعدما انصرف من صلاته : ما الخبر ؟ فقالت سارة ملخصة ما حصل : (رد الله كيد الكافر وأخدم هاجر) وبعدها ساروا إلى أرض كنعان عندما اشتد أذى الكفار ومعهما هاجر فقامت سارة ووهبت إبراهيم الجارية (الأمة) هاجر ، فلما حملت منه غارت سارة حيث إنها لم تحمل بعد ، فخرج الخليل وإمام الحنفاء متجهًا إلى مكة ، وقيل : إنها ولدت إسماعيل عليه السلام في كنعان ، وهناك رواية أنه ولد في أرض مكة ، الشاهد بعدها جاء من نسل إسماعيل ابن الجارية ، أفضل مخلوق على وجه البرية ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ، من هو يا ترى ؟ إنه محمد ﷺ بأبي هو وأمي ، وجميع القبائل العربية العدنانية ، ينحدرون من عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل .

وانظر ماذا قال أبو هريرة . ماذا قال عن هاجر في آخر القصة ؟

قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء . يخاطبنا أبو هريرة نحن العرب العدنانيين ، فيقول لنا : هذه هاجر الجارية والأمة التي

كانت خادمة وأعطيت خادمة وجارية لسارة ، ثم وهبتها لزوجها إبراهيم ، قال : فتلك أمكم يا بني ماء السماء ، ومن المعلوم أنه يطلق على العرب العدنانيين بني ماء السماء ، لكثرة ملازمتهم للفلوات والصحاري ؛ لأن فيها مواقع القطر ، وهو الماء النازل من السماء ، أو لسكنهم المنطقة الخضراء وإقامتهم فيها لغرض الزراعة أو المتجولين سعيًا وراء الخضرة لأجل رعي الأغنام ، ولذلك سُمّوا ببني ماء السماء ، ولأن عيشهم على ماء السماء . هذا هو حال هاجر ، فيا ترى ما هو حال سارة وأبنائها وأحفادها ؟ ، فقد بشرها الله وإبراهيم بمولد إسحاق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[2] .

ثم إن من نسلهم انحدر بنو اسرائيل ، وظنّوا واعتقدوا أنهم الجنس الأنقى والأفضل ، لأنهم أبناءِ الحُرة سارة ، واحتقرونا

---

(١) الصافات : ١١٢-١١٣.

(٢) هود : ٧١.

وازدرونا نحن العرب العدنانيين ؛ لأننا أبناء وأحفاد الجارية والأمة هاجر كما يزعمون ، وعظم ذلك في نفوسهم ، وزيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم ، ولعلنا نلتمس هذا الواقع في هذا الزمن ، ويتبلور ذلك في تصرفاتهم وأفعالهم نحونا ، ولكن ماذا كانت النتيجة يا ترى ؟!

فقط سلط الله عليهم فرعون زمانهم وشتتهم ، ومزّقهم كل ممزق من ذلك الحين إلى يومنا هذا .

كما يتعرض لهذه القضية أيضًا ، بعضٌ من أعداء الأديان السماوية الذين نهبوا أجمل ما فيها من تعاليم أصيلة ، وقيم رفيعة ، ودسّوا السُّم في العسل ، فغيروا وبدّلوا وزوروا ، وقدّموا للعالم روايات عن هذه القضية بأسلوب فيه خبث شديد بلغ مبلغه ، بهدف تشويه صورة ديانة ما ، والتجريح فيها ، والإساءة لها ، وبث الشبهات من حولها .

ثم يأتي بعد هذه الطائفة ، فئة أخرى من المثقفين ، وأهل الأهواء ، من بعض الليبراليين والعلمانيين وغيرهم ممن سلكوا هذا المنهج ، الذي يتميز بفصل الدين عن الدنيا ، ويتناولون القضية

ويناقشونها ، دون وعي ولا دراسة ، بخلفية «مختلفة» مصنوعة إعلاميًّا عن العبيد والجواري المملوكات .

كما أن هذه المسألة تحولت إلى «قضية مستهلك» إعلاميًّا ، يتحدث عنها الناس كل يوم ، ويتعرض لها الكثير من الكتاب ، في الوسائل الإعلامية ، من قنوات ومواقع إخبارية ، ومنتديات وصحف ، ووسائل هاتفية ، ومتحدثون إعلاميون ، لا يستندون حول ما يقدمونه على دراسات علمية تعتمد على أسس وقواعد دينية صحيحة .

ولذلك فقد وقع جميع أولئك في اعتقادات دينية خطيرة ، وأخطاء فكرية جسيمة ، لا يقبلها دين ، ولا يقرها عقل ناضج ، ولا فكر صائب ، ثم إنهم أوقعوا الناس معهم في تلك الاعتقادات التي نالت من عقول الكثير فكرًا واعتقادًا ، ولو تحرّوا الدقة في دينهم ودنياهم لما قالوا ما قالوه ، وما كتبوا ما كتبوه .

ومما زاد الطين بلّة ، أن الغالبية العظمى من أجهزة التثقيف والإعلام الرسمية ، الإسلامية والمسيحية واليهودية ، وبعض الوسائل التابعة لها ، ما زالت تروج للعديد من المغالطات والتضليل

حول هذه القضية ، وبدلًا من أن تكشف للعالم عن الأسباب والملابسات التي أدت إلى تلوث الفكر البشري ، وتأثره بالتحريف الفكري الديني اليهودي الخطير ، وبدلًا من أن تكون وسائل وأداة توجيه وترشيد وتحكيم بين الغث والسمين ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، بدلًا من ذلك نراها تنشر تلك المخالفات كل يوم ، وتقدمها للعالم بخلفية ترتدي زورًا رداء الشرعية ، مؤكدةً صحتها ، ومقحمة الصبغة الدينية عليها .

ولاستعراض بعضٍ من تلك الوسائل الإعلامية والمقالات ، أنقل لك هذا المقال الذي نُشر في جريدة العرب الدولية (الشرق الأوسط) في العدد ١١٧٨٥ في الخامس من مارس ٢٠١١م ، للكاتب مأمون فندي ، تحت عنوان «أوباما وساركوزي من جديد» فتراه يكتب وبالحرف الواحد في مقاله ويقول : «باراك أوباما الرئيس الأسود الذي ينحدر أجداده من العبيد ، وأبوه رجل كيني مسلم» .

ومن المعلوم أن والد أوباما حر ، ولم يستغل باسم العبودية ، وهذا لا جدال فيه ، كذلك يعتبر الأصل الشرعي في جميع من

جرى جلبهم من قارة أفريقيا إلى القارة الأوروبية والأمريكية هو الحرية ؛ لأنه لا توجد أي ديانة سماوية صحيحة تقرّ بشرعية استعباد أولئك ، ولا نعلم كيف انطلت هذه الأضحوكة الدينية على الأحرار الذين اختطفوا من القارة الأفريقية ، واقتيدوا إلى أوروبا وأمريكا على أنهم عبيد .

كذلك الدراسة العلمية بجامعة أموري بولاية أتلانتا ، والتي جاء تفاصيلها في الخبر الذي بثته صحيفة (أندبندنت) البريطانية ، والتي تناولت الأصول الأفريقية لعائلة الرئيس الأمريكي باراك أوباما ، والتي تقول إن بعض الباحثين توصلوا إلى معلومات تشير إلى أن رجلين يحملان اسم «أوباما» وصلا إلى القارة الأمريكية قبل والد الرئيس بأكثر من ١٣٠ سنة ، وذلك على متن سفينة كانت تحمل «العبيد» بشكل غير شرعي ، كما يدّعون ، وقالت الصحيفة : إن الدراسة التي جرت في جامعة «أموري» بولاية أتلانتا ، أظهرت أن الرجلين تسجلا على قوائم ضمت ٩٥٠٠ شخص جرى تحريرهم بعد إرغام السفينة على التوقف في كوبا .

وقالت الصحيفة : إن المشرف على الدراسة قال : إن عمله

يتركز على محاولة تتبع مصير آلاف من «العبيد» الذين جرى جلبهم من أفريقيا إلى القارة الأمريكية ، وقد دعا الناس الذين يتعرفون على أسماء عائلات أخرىَ ، لمن كانوا على متن السفن إلى الاتصال به ، للإدلاء بمعلومات حول مصير أحفادهم .

أفسدت الخرافة الدينية اليهودية عقولهم وعقائدهم ، واعتقدوا جهلًا بالنظريات الخاطئة التي أضافها رجال الدين والقساوسة ، لأهداف خاصة إلى تعاليم الكنيسة المسيحية ، وجعلتهم ينظرون إلى ألوان الظلم ، والاستبداد ، والشناعات ، والمعاملات الوحشية البشعة ، التي ارتكبت في حق عالم الإنسانية ، والتي سجلها التاريخ ضد مرتكبيها ، على أنها لونٌ من المعاملات المشروعة ، التي أقرّتها وأباحتها تعاليم الديانة المسيحية الحقة ، ووجهتهم إليها ، بجعلها مصدرًا مشروعًا من مصادر الرق والاستعباد المباحة في المسيحية .

لقد توصلنا إلى الكثير حول ما تبحثون عنه وتفتشون عليه من المعلومات ، وقد أحطنا بما لم تحيطوا به من علم تجاه قضية الرق والاستعباد ، وذلك في ديننا المثالي الرفيع ، فقد أخبرنا ديننا

الإسلامي منذ الألف وأربعمائة عام ، بأن رب جميع الأديان السماوية الأخرى هو الله سبحانه وتعالى ، وجميعها نزلت من عند الله سبحانه ، ولا شك في صدقها ، وأنها أديان قامت على مبدأ العدل والمساواة الكاملة ، التي ترد الناس جميعا إلى أصل واحد ، وعاملتهم على أساس هذه المساواة في الأصل المشترك ، ونظرت إليهم جميعًا نظرة تكريم ، كيف لا يكون ذلك والله تعالى كرم جميع بني آدم أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، إذ قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] .

وتوصلنا أيضا في ديننا الإسلامي إلى معلومات تخبر بأن تعاليم وشرائع الأديان السماوية الصحيحة لا تنشر الظلم والاستبداد بين أتباعها ، ولا تشجعهم عليه ، بل تحرص كل الحرص ، في القضاء على ذلك ، وسد جميع مسبباته ، وسبر السُّبل الموصلة إليه ، وتنادي دائمًا بالأخوة ، والمساواة ، وبناء

---

(١) الإسراء : ٧٠.

العلاقة الإنسانية السليمة بين بني البشر . وإن وجد فيها ما يدعو إلى غير ذلك ، فهو حتمًا من صنع بعض رجال الدين ممن مال بهم الهوى ، بقصد أو بغير قصد ، ومن صنع الكنيسة التي فرضت لنفسها سلطة إلهية ، واحتضنت أفكارًا علمية فاسدة ، ونظريات ومبررات فكرية خاطئة ؛ لأسباب مصلحية واقتصادية وسياسية ، وقالت : إنها حقائق مقدّسة ؛ لأنها كلمة السماء ، من ضمنها استغلال رقاب الأحرار ، ويعكس حقيقة هذا ، ما وقع وللأسف من أحداث مؤسفة في تاريخ المسيحية في أوروبا وأمريكا ، التي استغلت باسم الدين ، رقاب الأحرار من أبناء أفريقيا والهنود الحمر بطريقة بشعة ، لا تقرّها ملة ، ولا تطيقها مشاعر إنسانية .

لذا لا بد لنا أن نوجه دعوة عامة إلى عموم أرباب الفكر السليم ، ورواد الدراسات والبحوث العلمية ، في المجتمع الأمريكي والأوروبي على وجه العموم ، من ضرورة إعادة إعمار فكرهم ، فضلًا عن إعمار فكر مجتمعاتهم البشرية ، تجاه قضية الرق والاستعباد ، وذلك بإعادة دراسة هذه القضية ، ومناقشتها على الأسس ، والنظم الشرعية والدينية ، التي جاءت وفق منظومة وقواعد وتعاليم الديانة المسيحية الصحيحة ، التي لا يقوم معها

صراع بين العقل والدين، ويؤمن بأحداثها الضمير الإنساني، ليؤمنوا معنا بالحقيقة الأبدية الخالدة، التي لا مراء فيها ولا جدال.

ولأن الحرية والكرامة الإنسانية، والعقل البشري، هم المتضررون من وراء كل ذلك العبث، لذا أحببت أن أقدم هذه الدراسات العملية من منظور إسلامي، لأبين الصورة الحقيقة لمسألة الرق والاستعباد، موضحًا لجميع أتباع الأديان السماوية (الإسلامية والمسيحية واليهودية) الغايات الدينية السامية، والمشرفة لهذه القضية، مبينًا في الوقت ذاته الخلل الذي طرأ على المعنى والمفهوم الصحيح لقضية الرق والاستعباد، وكيف عرفته الأديان، وكيف حرّفه أتباعها على مر العصور.

ليكف من لم يكف منهم عن الاستمرار في تقديم الإساءات للأديان السماوية، سواء بالرأي، أو الطرح، أو المناقشة، وليتوقف من لم يتوقف عن امتهان واستغلال رقاب الأحرار من بني البشر باسم الدين، وشوهوا صورتها الجميلة المشرقة، وأثاروا من حولها الشبهات والشكوك، وأظهروها بصورة قبيحة بشعة، تجسد سوء علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

وللأسف فما تزال تمارس هذه الصور من العلاقات الإنسانية البشعة المرفوضة دينيًا ، وإنسانيًا رفضًا باتًا ، في بعض المجتمعات المتقدمة ، أو بعض المجتمعات الإسلامية والعربية ، من دول العالم الثالث ، من قبل أُناس حجب الجهل والفكر اليهودي المنحرف عن عقولها نور الحقيقة الدينية ، والحكمة والغاية الإلهية ، لمفهوم الرق والاستعباد ، كاليمن وموريتانيا والمغرب والجزائر والسودان وغيرها من البلدان ، الذين يساندهم في ذلك التجاوز ، رجال دين لا يدركون ما يدلون به من أقوال وآراء ، إنما هي من وحي الفكر اليهودي الضال ، الذي ما زال قابعًا في عقلهم الديني الباطن .

من أسباب ما دفعنا إلى التعرض لهذه القضية المسمومة من منظور إسلامي ؛ هو شمولية هذا الدين على جميع الأطر الصحيحة ، التي تستقيم بها حياة البشرية ، لجميع أتباع الديانات ، فضلًا عن مقدرته على تقديم الحلول التي تواجه بني البشر على وجه العموم ، ولكن لا يكون ذلك إلا شريطة أن يفهم جوهره الأصيل .

الشمول :

الشمول في اللغة : تعني الاحتواء والتضمين ، وشمله بمعنى احتواه وعمه وتضمنه .

شرعا : يأتي ذلك في معنى قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] . وأيضا في قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2] .

ويأتي هذا التبيان شاملًا لكل الأزمنة والأماكن على وجه الأرض ، فالقرآن الكريم فيه تبيان وتوضيح لكل شيء ، حيث يقدم القواعد الكلية والخطوط الرئيسة ، والمرجعيات والمعايير ، للعيش في الحياة الدنيا بأمان ، وحماية ، وتحسينًا وتجويدًا لحياة البشر ، وحمايتهم من الوقوع في الزلل والانحراف والخطأ ، كما يتدخل في بعض التفاصيل ليقررها مباشرة لسبب ما ، في علم الله وهو رحمة للعالمين جميعًا المسلمين وغير المسلمين ، سواء آمنوا به

---

(١) النحل : ٨٩.
(٢) الأنبياء : ١٠٧.

أو لم يؤمنوا ، ستصيبهم رحمة من تواصلهم مع المسلمين والمؤمنين به ، لأن رحمة الرسالة واسعة بما فيها من الحقائق الكلية للكون والحياة ، وفلسفة الحياة ، وقواعد العيش الآمن على الأرض ، وحقائق المخلوقات ، وفلسفة كيفية تسخيرها الإنسان والانتفاع بها ، وإجابات لأسئلة كثيرة تعجز الأديان الأرضية والعقول البشرية عن الوصول إليها .

من المعلوم أن الفكر الإسلامي يتميز على مر العصور بامتداده إلى عمق الحياة ، وشموله بجوانبها ، وارتباطه بمشكلاتها من جهة ، كما يتميز بربط أمور الدنيا ـ معيشة ودراسة ـ بأمور الدين عقيدةً ومصيرًا من جهة أخرى ، ومن ثم فإن الباحث الديني حيث تعامل مع هذا الفكر ، فإنه يجب أن يتعامل معه بعقل مفتوح ، وقلب مؤمن ، وحين يقدمه إلى القراء والمستمعين والمشاهدين ؛ فإنه يجب ألَّا ينسى هذا الارتباط اعتقادا وبين الحياة واقعًا ، فهو لا يقدم أفكارًا مجرّدة تنحصر في رياضة عقلية ومتعة فكرية ، كما أنه لا يلهب العواطف بكلمات منمقة وسجيات روحية .

وعند تتبع النهج القرآني في التربية والمعاملات غيرها ، نجده يحرص كل الحرص على هذا الربط ، فهو يعرض المسألة مرتبطة بواقع الناس من جانب ، ثم يمزج هذا الواقع فيجعله من صميم الدين من جانب آخر ، ولعلي هنا أضرب مثلا لتقريب المسألة أكثر : إذا قرأنا آية من القرآن لمسألة من مسائل المعاملات في توزيع غنائم الحرب مثلًا ، أو في مسائل المعاملات المالية ، فكأنما تقوى الله والتذكير بحدوده ، هي الضوابط التي ترسم طريق هذه المعاملات وتضمن سلامتها .

كما أن على الفكر الإسلامي ، أيًا كان نوع هذا التلقي ، أن يتصور هذه العلاقة ابتداءً ، حتى لا يجهد نفسه بإلزام المنهج الإسلامي ، مالا يجوز التزامه به ، ولا يحمله من المعاني والاتجاهات ما لا يتحمله ، فلقد امتزج هذا الفكر بالحياة ، وامتد إلى جوانبها المختلفة ، ولكن المفكرين فيه لم يكن يعنيهم تقديم الفكر إلى الناس ، بقدر ما يعنيهم تقديم المنهاج الذي يربط الدنيا بالدين ، ويهيئ الحياة للآخرة .



الحكمة من نزع الحرية

من المعلوم أن الأصل في الإنسان الحرية ، والمقصود بالحرية هنا ؛ هي الحرية الدينية والشخصية والاجتماعية ، المشروطة بضوابط وأطر التشريع الرباني ، الذي يوجهها نحو الاستقامة ، والنهج المستقيم لتنصرف مختارة لعبادة خالقها سبحانه وتعالى وحده ، الذي تنسب إليه المشيئة ، حيث قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1] . ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3] .

---

(١) الإنسان : ٢٩.

(٢) التكوير : ٣٠.

(٣) آل عمران : ٦٤.

وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[2] . ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4] . ومن خلال مجموع هذه الآيات ندرك أن للحرية الإنسانية أكبر المساحات في الإسلام ، وأنه دين لا يسلك أبدا مسلك إرغام الناس على تبني اعتقادات فكرية أو مذهبية معينة ، ولا يكره أحدًا على اعتناق عقيدة الإسلام ، ولا إكراه فيه على الدين ، إنما هو البلاغ ؛ لأن منظومته الاعتقادية قدمت في

---

(١) النبأ : ٣٩.

(٢) يونس : ١٠٨.

(٣) يونس : ١٠٩.

(٤) الإسراء : ١٥.

إطار استدلالي محكم، يمتد على مساحة هائلة من النشاط الإنساني، في مجال الاعتقاد والفكر وغيره، وهي مساحة لا يستطيع أن يراها الأشخاص الذين ينظرون إليه من خلال نظاراتهم السوداء، إما عن جهل جائر، و إما من عداء كافر، والقائل بأن الإسلام لم يقل بالحرية الشخصية، أو حرية العقيدة، أو حرية الرأي، القائمة على أساس من الدين السماوي، والنظام الأخلاقي النظيف، إنما يضع نفسه بجدارة في صف أعداء الإسلام.

ولهذا فهو دين شامل، جاء ليكفل حرية كل إنسان في الوطن الإسلامي، ويصون حرماته، أيًّا كانت عقيدته، كما أنه دين يسمح للناس، بل يدعوهم، إلى الاستنتاج الحر، عن طريق استخدام مبدأ الحوار، وآليات المناظرة والحجج، ليصلوا جميعًا، غاية العدالة الإلهية، المتمثلة في العدالة الكونية، والعدالة الشرعية، وهي غاية أصيلة، لجميع الشرائع السماوية، التي جاءت قاطبة لتحقيق العدالة في الأرض، ليتحقق مقتضى سنن الكون في الوجود، من أجل أن تجري جميع الكائنات نحو غاياتها بتوازن، كما أن في هذه الغاية أيضًا، قيمة إنسانية سامية،

يسود بها منهج الحق، ويتحقق بها مقتضى سنن الشرع في المجتمعات، لتكون البشرية بسائر أجناسها، وأعراقها، وثقافاتها، أمام ميزان العدل والإنصاف، للعدل بين الناس، وفق أوامر الشرع، وإعطاء كل ذي حق حقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وهذا ما حققه العنصر البشري، في زمن الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، تلك العناصر التي تألقت في عالم الإنسانية، لجعلها سنة العدالة الإلهية أساسًا ومنبرًا لدينها ودنياها، وقدمت للبشرية جمعاء على أثر ذلك، الكثير من النماذج المشرقة للوحدة، والتجانس، والأمن، والسلام، في ظل التباين الثقافي، والديني، والعرقي لتلك المجتمعات، ومما يؤسف عليه؛ فإن ذلك التآلف للأمة الإسلامية، حجب عن أنظار البشرية، بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

(١) النحل: ٩٠.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1] .

وما كان سبب ذلك الحجب إلا لتغطية سحب ركام المظالم ، وأحداث الجوانب المظلمة ، للأعمال غير المسئولة التي ارتكبها المسلمون في عصرهم الحديث .

الكون كما هو معلوم ، يجري في توازن دقيق ، وفق عدالة عامة ، نابعة من تدبير الخالق جل علاه ، تدير موازنة عموم الأشياء ، وتأمر البشرية بإقامة العدل ، ومراعاة هذا الميزان الإلهي ، سواء من الجانب الشرعي ، باتباع صراط الدين الذي جاء به الرسل وبينوه ، حيث قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾[2] . أو بالامتثال لسنن الحق والعدل في نواميس الكون ، وهذا ما حافظ على الدوام عليه الأنبياء والرسل ، وعباد الله المؤمنون الصالحون ، الذين ليس لغير الله عليهم من سلطان ؛ لأن الإنسان ملزم بالفطرة بالمحافظة

(١) آل عمران : ١١٠.

(٢) الحديد : ٢٥.

على هذا التوازن ومراعاته ، سواء الجانب الكوني أو الشرعي ، والسعي في سبيل نشره والمناداة به ، والدعوة إليه ، لإيجاد عناصر العدل والتوزان في سائر مظاهر الحياة ، ليعم سائر أرجاء العالم ، وهذا ما يرجوه أي ضمير إنساني .

ولكن كان هناك بعض الناس ممن لا يؤمنون بالشرائع ، وطبعت نفوسهم على الطغيان ، وتحررت ضمائرهم من شعور العبادة الخالصة لله ، وصُرفت لغيره ، سواء لبشر ، أو مَلَك ، أو حجر ، أو ما شابه ذلك ، ولد حينها الكفر ؛ الذي ينكر حقيقة الله ، ونعمه التي امتن بها على عباده ، أتى دور عمل سائر الحريات الممنوحة للإنسان ، في مختلف معاملاته ، وسائر شئونه الفردية ، والاجتماعية ، التي جعلتهم يقفون في سبيل تقدمها ، ويمنعون الداعي عن تبليغها ، ويعذبون من آمن بها ، وفي هذا تمرد على نظام المشيئة الإلهية ، سواء في الجانب الكوني ، أو الشرعي ، أو كلا الجانبين معًا .

لذلك يأمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه وعباده المؤمنين الموحّدين ، أن يواجهوا ذلك الإنسان ، من أجل الحفاظ على

توازن العدل، سواء فيما يتعلق بالجانب الكوني، أو الشرعي، ويدعوه دعوة قرآنية أساسها الحكمة والموعظة الحسنة، التي تنبئ عن الحب، والشفقة، والعطف الرباني للإنسان، تلك الدعوة التي لا تختلف في طريقتها الإنسانية باختلاف الزمن، من بداية دعوة سيدنا نوح عليه السلام، حتى نبينا محمد ﷺ، وصحابته الكرام، والتي قد تكون سببًا في رجوعه إلى رشده، وتزكية نفسه، وإرشاده على الله للرجوع إليه، والدخول في دينه، الذي يدين بالحق، ويفضي إلى الامتثال بأوامره، قال تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[2].

---

(١) الأعراف: ٦٨.

(٢) هود: ٨٨-٨٩.

فإن امتثل لذلك واهتدى وأسلم ، فذاك هو المطلب ، وبالتالي يخلص ذلك الإنسان نفسه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

أما إن توقف عن اعتراض سبيل الدعوة الإسلامية ، ورضي بإعطاء الجزية ، فلا إكراه في الدين ؛ لأن من لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله ، ونشر عدالته ، لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه ، قال الله تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(1) .

وبذلك يعطيه المسلمون عهدا على ذلك ، بموجب عقد يعقده إمام المسلمين معه ، أو نائبه ، وهذا إقرار للكافر على كفره ، وعدم المساس بحريته الدينية ، وبموجب ذلك يصبح من أهل العهد (أهل الذمة ، أهل الهدنة) ، بشرط الالتزام بأحكام الإسلام ، التي يتمتع بموجبها بحماية الدولة الإسلامية ، سواء ببقائه في دار الإسلام ، أو ببقائه في دياره ، وذلك كما عاهد النبي ﷺ نصارى نجران في بلادهم .

---

(1) الممتحنة : ٨.

والحكمة من هذه الجزية ومن التوقف عن القتال والكف عنه ؛ هو لضمان عدم إعاقة حركة توسّع مبدأ العدالة الإلهية ، المتمثلة في الدين ، وتهيئة الجو الإسلامي لذلك الكافر ، لعله يدخل في الإسلام باختياره ، عند مشاهدته للمسلمين وهم يقدمون النماذج المشرفة للوحدة ، والتجانس والأمن والسلام ، ويمثلون الإسلام خير تمثيل .

ولكن إن اعترض ، وتمرد على دين الله ، وأطاع الشيطان ، ثم أصر على تسخير نفسه ، وتسخير كامل حريته ، التي قامت على أساس أساطير عقائد القوة والإكراه ، للقضاء على دين الإسلام ، أو أي دين سماوي آخر ، يستمد شرعيته من عقيدة العدل الربانية ، ومن مبدأ موازين العدالة الإلهية ، (العدالة الكونية ، العدالة الشرعية) ففي هذا الفعل تعارض صارخ ، ومخالفة صريحة لنواميس العدل ، التي أقام الله بها الكون .

بذلك ينزع الله منه تلك النفس ، أو تلك الحرية ، بسلطان الشريعة ؛ لأنه لا يجوز أن تسلب هذه القدسية إلا بالحق ، وهذا الحق لم يتركه الشارع هكذا دون تحديد ، ولم يتركه لاجتهاد المجتهدين والمتأولين ، الذين قد يعبثون بهذه القدسية ، لأسباب

قومية أو عرقية ، أو ما أشبهها من الدوافع ، التي يأباها الإسلام ، لتكون فوضى ينعدم الأمان بموجبها ، كما هو حاصل في كثير من أقطار العالم ، ولذلك يسلط الله على عباده الذين مارسوا معتقداتهم ، وشعائرهم الدينية ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، على أساس من الدين السماوي ، والعقيدة الربانية ، التي تحقق مبدأ العدالة الإلهية ، على أصحاب تلك الحريات الشيطانية ، بنشوء مواجهة ـ قتال ـ بين أتباع هاتين الحريتين .

قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] .

قال تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[2] .

(١) النساء : ٧٦.
(٢) التوبة : ١٢.

وقد وضع الإسلام لهذا القتال قيودًا وضوابط أذكر منها :

ـ القتال بدافع الإيمان ولأجل إقامة دين الحق وحمايته .

ـ النهي عن بدء قتال الكفار .

ـ الأمر بتقديم الحجج والأدلة ومناظرة الكافر المعتدي ، من أجل هدايته وإرجاعه .

ـ إنذار الكافر بعد إقامة الحجة عليه وتخويفه .

استجابة دعوة السلم ، من قبل الكافر المعتدي ، والنهي عن مقاتلة غيره من الكفار .

قال تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[1] .

وقد عُرف هذا القتال في مصطلح التشريع الإسلامي ـ بالحرب الدينية المشروعة ، وهو قتال ليس من أجل إكراه أحد على الدخول في الدين ، وإنما من أجل تأمين الدفاع عن حرية أتباعه في ممارسة معتقداتهم وشعائرهم الدينية المقررة شرعًا ، ولأجل ضمان

---

(١) البقرة : ١٩٠.

استمرارية مسيرة رسالته الدينية الساعية لإرساء قواعد الحرية، والمساواة، والعدل، والرحمة، والإخاء، بين أبناء الشعوب، وتمكينها في الأرض، لمن يرغب بالدخول في الإسلام بكامل اختياره، ولأجل ردع أولئك الكافرين والمعتدين، الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، إما عن طريق نزع أرواحهم بقتلهم، وإما عن طريق نزع حرياتهم إذا وقعوا أسرى في يد المسلمين في تلك الحرب.

وعلى الرغم من أن طبيعة قتل الكافرين ونزع حرياتهم هو الكره، إلا أن هناك حكمة إلهية بالغة الأهمية من إباحة ذلك، وذلك لما في فتنة الكفار والمعتدين، على ما هو أكبر وأعظم من ذلك، لتسلطهم على مبدأ العدالة.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ

أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] .

لذلك أباح الله تعالى قتل تلك النفوس، ونزع تلك الحريات، لما يحتاج إليه في حفظ الدين، وصلاح أمور العباد، وما تقتضيه ضرورة الحفاظ على توازن عدالته الكونية والشرعية .

ومن الطبيعي لا تكاد تخلو مثل تلك الحرب الدينية المشروعة من غالب يحوز الأرض، أو المال، أو الأنفس، أو هذه جميعًا، وهذا ما يسمي ـ الغنائم ـ ومغلوب يفقد هذه الأشياء، أو بعضها، والمقصود بالأنفس هنا هم (الأسرى) .

جاء في «تفسير المنار»: لما كنا مخيرين في الأسرى بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلا شرعيًا لإبطال استئناف الاسترقاق في الإسلام، فإن ظاهره التخيير بين هذين الأمرين، وأن الأمر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز لو لم يعارضه أنه الأصل المتبع عند كل الأمم .

---

(١) البقرة: ٢١٧.

والقتل أيضًا لم يرد في آية تدل دلالة صريحة عليه ، إلا ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . من أنها تدعو إلى قتل الأسرى ، وتنهى عن قبول الفداء فيهم .

ومن الملاحظات الجديرة بالرصد والاهتمام ، الخاصة بشأن الأسرى هو ما يأتي :

ـ الحضور المباشر للرحمة الإلهية ، حال وقوع هذا العقاب الوجداني عليه ، وتطلعها لما في نفوس أولئك الكافرين الذين وقعوا في الأسر ، رحمة بهم ، وشفقة عليهم . قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ .

ـ اللطف الرباني الخفي ، الساعي لإصلاح طبائعهم ، وتطهير قلوبهم ، وتغيير ما في نفوسهم ، تقويمًا وترقية ، وتقوية ، على التقوى والخير ، والفضيلة ، فإن تحقق صلاح تلك النفس خلال فترة الأسر ، أعاد الله لها حريته ، وأبدلها خيرا مما أخذ منها في تلك الحرب ، وهذا ما جسده قول الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل

لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ .

إذا وقعت تلك النفس في سهم أحد المسلمين ، المشاركين في تلك الحرب ، إن رأى إمام المسلمين الكفء أن الخير والصلاح في ذلك ، وبالتالي تسلب التصرف في حريتها ، وتطوع لغير صاحبها ، وكل ذلك بحكمة إلهية ، وذلك هو الرق والاستعباد الشرعي ، الذي يصيب جوهر ووجدان النفس ، والذي عرفه علماء الفقه الرق : بأنه عجز حكمي يقع على الإنسان ، سببه الكفر . هذا إذا كانت الحرب دينية مشروعة ، فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا ، وحظوظ الملك ، فلا يباح فيها الرق .

وبذلك تنقل تلك الحرية ، إلى يد ذلك المسلم ، المدرك لهذه الحكمة ، الذي يعمل على إعادة تسخيرها ، بالكيفية المقررة شرعًا ، لتعمل من جديد ، في كل ما من شأنه التوافق مع نواميس ونظم العدل الإلهي ، وهذا هو مبدأ العدل الرباني بكل معانيه .

هذا ما حرص الإسلام على تحقيقه ، وسعى إليه سعيا دؤوبا ، وقد تبلور هذا في الواقع المشاهد لحال الكثير من الأسرى ، والعبيد

والجواري ، الذين خالطوا المجتمع الإسلامي ، في زمان الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ، ثم أسلموا أثر ذلك الاختلاط ، وهذا ما جسدته قصة إسلام (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة ، والتي تبدو للقارئ لأول وهلة ، أنها قصة عادية ، إلا أنها تحمل في ثناياها ، مالم يكن يتصوره المرء ولا يدركه ، إلا من أطال التأمل فيها ، وقرأ ما بين السطور : لماذا أسلم هذا الرجل ؟! .. ولماذا ربط في المسجد ؟! .. وما ظنه برسول الله ﷺ ؟! ..

ولم منّ عليه رسول الله ؟! .. وهي أحداث ومواقف تستحق التأمل والتمحيص ، وكل ذلك يدركه من رزقه الله نورًا ، يكشف به عن مشخصات الأمور وأحداث الوقائع .

وثمامة بن أثال هذا ، هو رجل من زعماء المشركين ، هداه الله تعالى ، في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد روى قصته الإمام البخاري ومسلم وأحمد في «مسنده» .

بعد أن أغارت خيل النبي ﷺ قِبل نجد ، وكانت ديار كفر ، أسروا رجلًا مهمًّا ، وهو ثمامة سيد أهل اليمامة ، واليمامة : منطقة معروفة في نجد ، فأتي به إلى النبي ﷺ ، وكان ذلك

الحدث بمثابة ضربة معنوية قاصمة لأولئك الكفرة ؛ لأن سيدهم قد أخذ ، وكان النبي ﷺ قد ملئ حكمة وبعد نظر ، ولذلك أمر بأن يُربط ثمامة ، ولكن ليس في خيمة ، ولا في بيت مغلق ، أو في سجن ، وإنما وضع في المسجد ، وربط ثمامة إلى سارية من سواري المسجد معناه أنه يرى يوميًا ما هي حياة المسلمين الحقيقية ، كيف يأتون إلى الصلاة مبكرين ، وكيف يصلون ويدعون ، ويذكرون الله ، يُرفع الأذان ، فيطرق مسامع ثمامة خمس مرات في اليوم ، ويسمع قراءة النبي عليه الصلاة والسلام ، وسماع قراءة النبي ﷺ غاية في التأثير .

كما أن المسجد في ذلك الزمن ، كان مكانًا للصلح ، كما في قصة كعب بن مالك وابن أبي حدرد لما توسط النبي ﷺ بينهما ، فوضع صاحب الحق شيئًا من حقه ، وأمر الآخر أن يبادر بالسداد ، ومكانًا للتزويج وعقد النكاح ، والتوفيق بين المسلمين ، ومكانًا لجمع التبرعات والصدقات ، ومكانًا تجمع فيه زكاة الفطر ، وتقسم على الفقراء ، ومكانًا للفتاوى والأسئلة والإجابات ، وحلقات الذكر ودروس العلم ، وهو المكان الذي يأتي الناس ليصلوا فيه النوافل والتراويح جماعة أحيانًا .

وهذه المشاهد الموجودة في المسجد كفيلة بالتأثير في النفوس ، ولذلك أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، من حكمته بربط ثمامة في المسجد ، وليس في أي مكان آخر ، ثم جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى ثمامة وقال : «ماذا عندك ؟ أي : ما الذي استقر ظنك أن أفعله بك ؟ وما تظن يا ثمامة أنني فاعل بك ؟ فأجاب بأنه يظن بالنبي عليه الصلاة والسلام ظن خير ، وأنه ليس ممن يظلم ، وأن ظنه به أن يعفو ويحسن إليه ، وأنه إن قتله فإنما يقتل ذا دم ، كأنه يقول : إذا قتلتني تقتل شيئا كبيرًا يحق لك انتقامًا ، وتقتل رئيسًا وعظيمًا من العظماء ، قال : وإن تنعم تنعم على شاكر ، أي : يشكر لك منتك وفضلك عليه ، وفي اليوم الثاني والثالث عرض عليه ما عرض عليه من قبل ، وسأل عما سأل عنه من قبل ، والنبي ﷺ لما رأى موقفه كما هو أمر بإطلاقه قال : «أطلقوا ثمامة» . قال : «قد عفوت عنك يا ثمامة وأعتقتك» .

وهذا في رواية ابن اسحاق ، وجاء فيها : أن المسلمين قد جمعوا له من طعام ولبن ، فقدموه إليه فلم يصب من ذلك إلا قليلًا . ولما أُطلق الرجل ، لم يرجع إلى قومه ؛ لأن ما شاهده من المشاهد

الإسلامية السامية ، كفيل بأن يجعل الهداية تدخل إلى قلبه ، فذهب واغتسل ، وأسلم ، ونطق بالشهادتين ، ثم بشره النبي ﷺ ، بالجنة ، ومحو ذنوبه وتبعاته السابقة ، وأخبر النبي ﷺ ، عما أحس به من محبة النبي ﷺ ، و محبة دينه ، ومحبة بلده ، فانقلب البغض إلى حب ، وانقلبت الكراهية إلى محبة ، واتضح من خلال التأثير كيف تنقلب مشاعر الكافر عكس ما كانت عليه .

وذلك لو وجد الكافر في بيئة سليمة ، وتعرّض لمؤثرات صحيحة ، ووجد في جو طيب فإنه يتأثر ، وهذا ما حصل لثمامة حينما ربط في هذا المكان فتأثر ، انقلبت مشاعره ، فإنه كان يكره النبي ﷺ ، ويكره دينه ، ويكره بلده ، فصار أحب الوجوه إليه وجهه عليه الصلاة والسلام ، وأحب البلاد بلده ، وأحب الدين إليه دينه ، زد على ذلك أن المنّة التي منّ بها عليه عليه الصلاة والسلام ، دون فدية ، ولا قيد ، ولا شرط أو مقابل ، على هذا الرجل ، قد أثرت فيه ، منّة شكرها هذا الرجل ، كان شكره الإسلام ، إنه كرم نبوي ، حيث قال : «أطلقوا ثمامة» . وهذه هي طبيعة الدين الإسلامي الصحيح ، وهذه الأشياء مجتمعة أثرت في الرجل ، وقلبت مشاعره ، ثم أسلم وتابع النبي عليه الصلاة والسلام .

يقول أبو هريرة ﷺ : بعث رسول الله ﷺ خيلًا قبل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له : ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : «ما عندك يا ثمامة ؟» فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد ، فقال : «ما عندك يا ثمامة ؟» قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه رسول الله صلى عليه وسلم حتى كان من الغد ، فقال : «ما عندك يا ثمامة ؟» فقال : عندي ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه رسول الله حتى كان من الغد فأعاد السؤال وأعاد الجواب ، فقال رسول الله ﷺ : «أطلقوا ثمامة» . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ثم دخل إلى المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليّ ، والله ما كان بلد

أبغض إلي من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ فقال : لا ، ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . هذه هي قصة ثمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة رضى الله عليه[1] .

كما أن المتأمل لمبادئ وسماحة الشريعة الإسلامية ، يلاحظ سعي الإسلام ، وتطلعه إلى عتق جميع من وقعوا في الرق ، وآل مصيرهم إليه ، ولذلك فقد حث على العتق ، ورغب فيه تطوعًا ، وشرع له العديد من الطرق ، والوسائل التي توجبه ، بجعله كفارة للعديد من الذنوب ، التي يتعرض لها المسلمون في حياتهم ، كالقتل الخطأ ، والحنث في اليمين ، والظهار ، والإفطار في شهر رمضان ، وندب إليه وفيما عدا ذلك .

قال : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في الحديث رقم (٤٣٧٢) في المغازي ، ومسلم في حديث رقم (١٧٦٤) في الجهاد والسير .

قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

وقال تعالى : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

كما جاء بتحرير الرقيق عن طريق المكاتبة ، وهي حق يطالب فيه الرقيق بحرّيته في مكاتبة من يملكه ، وهو حق كفلته له الشريعة

الإسلامية ، وقد ورد في الحديث الشريف ما نصه : «من أعان مجاهدا في سبيل الله ، أو غارمًا في عسرته ، أو مكاتبًا في رقبته ، أظله الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله»[1] .

كما أن قصة أم المؤمنين جويرية ، قد جسدت أيضًا هذا الحديث أجمل تجسيد ، وجويرية هذه هي جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار من بني المصطلق ، التي كانت سيدة نساء قومها ، وكان أبوها قائد بني المصطلق ، الذين جمعوا لقتال النبي محمد ﷺ ، فقد سُبيت يوم المريسيع ، من ناحية قديد إلى الساحل ، وهي غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة للهجرة ، حيث هزم الله بني المصطلق ، وأصاب من المشاركين في تلك المعركة منهم سبيًا كثيرًا ، كانت جويرية ممن أصابهن السبي من النساء المشاركات ، فوقعت بعد توزيع الغنائم في سهم (ثابت بن قيس بن الشماس) ، أو لابن عمه ، فكاتبت على نفسها ، لتخلص نفسها من الرق والاستعباد ، ولم يكن معها ما كاتبت عليه ، فذهبت إلى رسول الله ﷺ ، ليعينها على ذلك ، فرد عليها بما هو

(١) رواه الصحابي سهل بن حنيف ، عن رسول الله ﷺ رقم الحديث (٤٢٩) .

أفضل ، إذ عرض عليها الزواج منها ، وقضاء مكاتبتها ، فأجابت بالقبول ، وأسلمت وحسن إسلامها .

وهنا نلاحظ حكمة النبي محمد ﷺ من زواجه بجويرية ؛ وذلك لمعالجة الآثار النفسية الصعبة ، والفجوة الإنسانية ، لتلك الفترات الإستثنائية التي عاشتها جويرية ، لمفارقتها لآبائها ، وزوجها ، وقومها ، ومساعدتها على معايشة تلك المرحلة النفسية ، بعد هزيمة قومها ، وهذا ما حصل مع جويرية ؛ لأن مرحلة ما بعد الحروب أشد وطأة من الحروب ذاتها ، كما أن هذه القصة تكشف لنا سمو مقاصد النبي ﷺ ، من وراء بعض زيجاته ، وسمو اهتمامات الشريعة الإسلامية ، بقضية مراعاة واحترام النفس البشرية ، سواء العبيد أو الجواري .

لذلك فقد عادت الحالة الطبيعية ، الاجتماعية ، والنفسية ، لجويرية ، وبصورة كاملة ، بل إن حالها تجاوز ما هو أبعد من ذلك ، لتكون أمًّا للمؤمنين ، ظافرة بكثرة ذكر ربها ، فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ ، خرج من عندها وهي في مصلاها ، ثم رجع حين تعالى النهار ، وهي ما زالت في مكانها لذكر الله ، فقال لها : «لم تزالي في مصلاك منذ خرجت ؟» . فأجابته : نعم ، فقال

لها ﷺ : «قد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته»[1] .

ومن الأمور السامية ، والغايات النبيلة ، التي وجهه إليها الشريعة الإسلامية ، أنه في حال ظفر المسلمين بسبايا كافرات ، من خلال الحروب الدينية ، المشروعة ، ورأى إمام المسلمين الكفء العالم بأحكام هذه الأمور ، أن من الخير والمصلحة أن ترد السبايا إلى قومهن ، جاز له ذلك .

أيضا من الطرق والوسائل التي أوجدها الإسلام لتحقيق عتق الرقاب تخصيص جزءٍ من أموال زكاة المسلمين لعتقها .

والمتأمل بتمعن لكثرة سبل العتق في الشريعة الإسلامية ، يلحظ أن من مقاصد الإسلام ، هو إنهاء جميع حالات الرق ، بشرط تحقق صلاح أمور العباد ، وتحقيق مبدأ العدالة الإلهية (العدالة الكونية ، عدالة الشريعة) وقد ذكر القرآن الكريم آيات صريحة الدلالة ، ظاهرة المعنى ، مبينةً هذا المقصد الإسلامي

---

(١) صحيح البخاري ، المعجم الكبير .

النبيل ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

أي أنه سيأتي اليوم الذي لا تجد فيه رقابًا للعتق ، وحالات الرقاب هذه هي الحالة التي جاءت على نهج الطريقة الإسلامية الصحيحة ، التي ذكرها القرآن الكريم ، وبينتها تعاليم ديننا الإسلامي ، وسار على نهجها الرسول ﷺ ، وصحابته أجمعين والتابعون ، ومن سار على نهجهم الذين نقل لنا التاريخ طريقتهم الصحيحة التي ساروا عليها ، عند تعاملهم مع ظاهرة العبيد والجواري ، التي تنبئ عن حسن إدراكهم لمراد الحكمة الإلهية من سلب الحرية ، وحسن استيعابهم لمفهوم الرق والاستعباد ، وليس على ما وجد متأخرًا ، ويوجد حاليًا في بلاد ومجتمعات المسلمين ، الذين مارسوا هذه الظاهرة على أساس من الفهم والتصور الخاطئ ، الذي اعتبروه واقع الشريعة ، بينما هو مخالفة شرعية صريحة ، وإخلال لمبدأ العدالة الإلهية ، ونوع من أنواع

الاستغلال البشري ، الذي لا يمت للإسلام بأي صلة . وهذا ما لا يجوز شرعا ، ويوجب تشويه سمعة الإسلام والمسلمين ، والبعد عن الهدف الإسلامي النبيل .

وكان على المسلمين المتأخرين أن يتمسكوا بالطريقة التي شرعها الله ، وأمر بها نبيه محمدًا ﷺ ، ولكن مما يؤسف له أنهم لم يستوعبوا المعنى الحقيقي لمفهوم الرق والاستعباد في الإسلام ، ولم يوفقوا لذلك ، وواضح أن ما نص عليه الإسلام ، وسار عليه محمد ﷺ شيء ، وأن ممارستهم التاريخية لهذه الظاهرة شيءٌ آخر .



منزلة الرقيق في الدول العربية والإسلامية
بين الإدماج والتهميش

تألف المجتمع العربي الإسلامي من عدة فئات اختلفت جنسًا وعرقًا. ورغم مجمل الفوارق الكامنة بين العرب وغيرها من الموالي والأعاجم وأهل الذمة؛ فإن الدولة حاولت قدر الإمكان فتح المجال أمام الآخر، للاندماج والتعايش والتكيف مع الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي العام.

ونظرًا لأهمية هذه الشبكة العلائقية الكائنة بين العرب وغيرهم من الأجناس والأمم، والإحاطة بمنزلة الرقيق والتطرق طبيعة وجودهم في الدولة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، وذلك انطلاقًا من كيفيات اندماجهم بين الأوساط. وبالتالي تغدو عملية الاندماج مرتبطة بالسلطة السياسية العربية الكائنة التي تتحكم في مسارها وتضبط حدودها.

إن الرقيق فضلًا عن كونه مادة تجارية ، وبضاعة احتلت الصدارة في الدورة الاقتصادية ، يجسد أيضًا ركيزة اجتماعية جوهرية في الدولة التي أشرفت بدورها على تحقيق اندماجهم في كافة الميادين والاستفادة من خدماتهم وجهودهم وكفاءاتهم المتنوعة . ومن ثم يمكننا القول أن مسألة الاندماج ظّلت من الأهداف السياسية المركزية التي حرصت السلطة على إنجازها وإظهارها في صورة إيجابية قدر الإمكان .

لكن هذا الاندماج ظلّ مسكونًا بكثير من التناقضات والنقائص التي كشفت عن جوانب أخرى تتمثل بالخصوص في استغلال هذه الفئة الضعيفة والتنكيل بها واحتقاراها ، فهذه الأقليات ظلّت في منزلة بين القبول والرفض ، وذلك ما حاولنا مقاربته من خلال مقالنا الذي يبحث في حقيقة موقع الأرقاء في الدولة الإسلامية ، ويحاول أن يتطرق إلى المسار الفعلي والعملي الذي أنتجه الرقيق لأجل إثبات وجودهم القانوني والمدني داخل الدولة .

استكثرت الدولة العربية الإسلامية في القرنين الثالث والرابع من جلب العبيد لأهميته في المجتمع ، فضلًا عن كونه مثل بضاعة

ثمينة تساهم في إنعاش الأسواق وتنمية الاقتصاد ، وفرت هذه الفئة اليد العاملة المساعدة على النهوض باقتصاد الدولة وتطويرها وهو «بعبارة أخرى المحرك الأساسي للاقتصاد ، والدولاب الذي لم يكن بدونه تجتمع الثروات الطائلة التي قامت على أساسها المدنية الإسلامية» .

ومن ثم تأكدت الحاجة إلى دمج هذه العناصر الضعيفة في المجتمع الإسلامي والاعتماد عليها في تنشيط مختلف الجوانب والميادين التي من خلالها تنهض الدولة .

لهذا الغرض لم يقتصر السائس على مجال دون غيره ، وإنما حرص على دمج العبيد في جلّ الهياكل الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية .

كيف تجلّت ملامح هذا الاندماج ؟

وإلى أي مدى استطاع الأرقاء التأقلم مع مثل هذه الأوضاع الجديدة ؟

تجليات الاندماج :

١ ـ الاندماج العسكري :

اقتضت الأوضاع التي كانت عليها الدولة الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة مضاعفة أعداد الأرقاء ، فقد اشترى الخليفة العباسي المعتصم بالله (ت٢٢٧هـ) من سوق الرقيق (بسمرقند) حوالي أربعة آلاف عبد تركي سيجعل منهم قاعدة عسكرية مهمة ينهض من خلالها حرس الخلافة بعد أن فقد ثقته بالجند المؤلف من العرب ؛ نظرا للتطاحن والتناحر العصبي الذي تفشّى في صفوفهم فأدى إلى الاضطراب والشغب المتكرر وفقدان التواصل والوحدة في صفوف الجيش .

وفي هذا النطاق يذكر المسعودي منزلة هؤلاء الرقيق الأتراك عند المعتصم قائلا : (إن المعتصم كان يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، فألبسهم أنواع الديباج ، و الحلية المذهبة ، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده ، وقد كان اصطنع قومًا من حوف مصر ومن حوف اليمن

وحوف قيس ، فسمّاهم المغاربة ، واستمد رجال خراسان من الفراعنة وغيرهم من الأشروسية ، فكثر جيشه ..)[1] .

ومن ثم رام الخلفاء البحث عن عناصر جديدة غير تلك التي كانوا يعتمدون عليها في تركيبة الجيش ، وقد اتسمت هذه الفئات بطاعتها المطلقة لصاحب السلطة وولائها الدائم له واستجابتها لسياسته المتوخّاة في الدولة ، وذلك ما يميزها عن غيرها من العرب وبقية الأمم الأخرى .

يقول توفيق بن عامر : (هذه العناصر الجديدة .. هي أكثر انصياعًا بحكم وضعها الاجتماعي وأصدق طاعة وإخلاصًا من العرب والفرس والبربر ، فوجد الخلفاء ضالتهم في أصناف الأرقاء) .

ومن بين أهم الدوافع التي جعلت السلطة السياسية تقدم على جلب الرقيق الترك وتسارع إلى إدماجهم في الهيكل العسكري ، رغم حساسية هذا المجال وأهميته في جهاز الدولة ؛ ما اشتهروا به من شجاعة لصنعة الحرب ، الأمر الذي أدّى بالدولة في القرن

---

(١) المسعودي أبو الحسن : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الرابع ص ٥٣.

الثالث الهجري إلى تكوين جيش من المرتزقة العبيد يتألف بالأساس من الرقيق التركي والصقلبي والسوداني .

لقي الرقيق الترك منزلة مرموقة لدى المعتصم الذي لم يكتف بتخصيص قطائع متميزة للأتراك ؛ بل ذهب في سياسته إلى حد أنه «اشترى لهم الجواري ، فأزوجهم منهن ، ومنعهم من أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم من بعض . وأجرى لجواري الأتراك أرزاقًا قائمة ، وأثبتت أسماؤهن في الدواوين ، فلم يكن أحد منهم يقدر أن يطلّق امرأته أو يفارقها» .

لقد تحول الرقيق إلى درع للنظام القائم في حالات الحرب وغيرها من الحالات الأخرى التي استدعت أن يظل هؤلاء الجند مرابطًا له أرزاقٌ ثابتة ، وأجور قارة تساعده على إتمام مهامه في مختلف الظروف وتشجعه على حماية الأسر الحاكمة في الداخل والخارج والتصدي لكافة الأخطار التي قد تهدد سلامتهم .

وبناء على ذلك ؛ تمكن بعضهم من هؤلاء الرقيق من نيل المناصب العليا في الدولة وتحولوا إلى أسياد وباتوا مهيمنين على

قرارات الخلفاء ، يتدخلون في شئون السياسة والحكم .

لقد أسندت لرؤساء الغلمان الذين يتمتعون بمساندة فرقهم العسكرية ؛ وظائف هامة كولاة أقاليم وأمراء وحكام ، ونذكر في هذا الصدد العبد الأسود (كافور الإخشيدي) حاكم مصر . ويشير ابن حوقل في هذا النطاق إلى الأرقاء الأتراك الذين كانوا عماد دار الخلافة وأهمهم : الأفشين وابن أبي الساج من أشروسنة ، والأخشاذ من سمرقند ، والمرزبان بن كيسي من السغد ، وعجيف بن عنسبة من السغد والبخار فهؤلاء وغيرهم من أمراء الحضرة وقوادها وجيوشها[1] .

بهذا المعنى أدمجت مجموعات عظيمة من الرقيق في المؤسسة العسكرية ، ليتحولوا في نهاية الأمر إلى قوة هامة ومؤثرة ، تعمل على ردع كل متطاول على الحكم وتكبح جماح أهل العصبية ، لكن اصطناع هذه العناصر في الدولة الإسلامية لم يكن كافيا حتى يُضمن ولاؤها المطلق وإخلاصها الدائم للسلطة السياسية ، فقد ساعد هؤلاء الغلمان رؤساء فرقهم العسكرية

(١) توفيق بن عامر : أستاذ الحضارة العربية بالجامعة التونسية .

بالاستحواذ على أهم الوظائف وأعلى المناصب في الحكومة ، فصار إليهم القرار السياسي في كثير من الأحيان ، وامتد سلطانهم وانتهى بهم الأمر أحيانا إلى قتل الخليفة ، وذلك ما حدث مع المتوكل الذي عمل على الاستبداد بهم والحط من مراتبهم فحنقوا عليه واغتاظوا من تصرفاته وسوء معاملته لهم .

٢ ـ الإدماج الاجتماعي :

احتاج المجتمع العربي والإسلامي طيلة القرنين الثالث والرابع للهجرة عددًا هامًّا من الرقيق ، للقيام بالعديد من المهام الاجتماعية التي تستوجب وجود طاقات بشرية إضافية تساعد على تطوير الأوضاع وتحسين مستوى العيش . ومن ثم استزادت الدولة من العبيد وحاولت إدماجهم في صلب المجتمع ونسج علاقات متوازنة بينهم وبين الأحرار .

إن عملية إدماج الفئات المسترقة تمت وفقًا لمستويات مضبوطة تترجم الحاجة الملحّة إلى خدماتهم وأنشطتهم المتنوعة ، فالخدمة والطهو وطلب الولد والإرضاع والغناء والاستمتاع وتحقيق اللذة ؛ كلّها من الأعمال التي يتكفل بإنجازها العبيد بصفة ممتازة لا يمكن

أن تتحقق عند غيرهم . لهذا الغرض أردنا الوقوف عند مختلف الدوافع التي شجعت العرب على اتخاذ الرقيق والسعي إلى إدماجهم في إطار أسرهم ومحيطهم الخاص ..

الدافع الأول : الإدماج لأجل الخدمة :

إن تطور المجتمع الإسلامي وانفتاحه على الحضارات الأخرى الفارسية واليونانية والرومية ، حتّم ضرورة الالتجاء إلى طاقات أخرى إضافية تعرف بقوتها وشدة حزمها وعزمها ، ومدى مقدرتها على تحمل العناء والمشقّة ، وقد اجتمعت مختلف هذه الخصال في العبيد نظرًا لما امتازوا به من صفات جسمانية وأخرى سلوكية تساعد على أداء الخدمة .

والملاحظ في هذا الصدد أن هناك العديد من المقاييس المعتمدة لأجل التأكد من مدى جودة هذه البضاعة الإنسانية ؛ حتى تكون مربحة ونافعة وذلك بينه الجاحظ بقوله : «ليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوّة الأسر أعمّ منهم فيها ، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب

وغيرهم ، وهم شجعاء أشدّاء الأبدان أسخياء»[1] .

يُتخذ الرقيق للخدمة ، وتختلف نوعية الخدمة حسب متطلبات الواقع الاجتماعي ، وفقًا لحاجة الأسرة التي تحرص على اقتناء صنف خاص يتّسم بالقوة الجسدية ، والأمانة ، والقدرة على احتمال مشاق الأعمال بمختلف ضروبها .

انطلاقا من هذه الزاوية أفرز المجتمع العربي الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة فئة من العبيد تجيد الكثير من الوظائف ويطلق عليها في بعض المصادر اسم (أرباب الصنائع) أو (أصحاب الصناعات) .

يختلف العبيد الرجال عن الإماء من حيث اختصاص كل منها بصنف محدد من الوظائف والصناعات ، فالأعمال الشاقة تسند في الغالب إلى الرجال الأرقاء ، أما النساء فاقتصر دورهن على صنعة الغناء ، والرقص ، وسقي الخمر ، وتربية الأطفال وغيرها من الأعمال الأخرى . يقول ابن بطلان في هذا النطاق :

---

(١) الجاحظ (عمرو بن بحر) الرسائل: الطبعة الأولى (رسالة فخر السودان على البيضان) ص ١٩٥.

«طبع الرجال على جميع الصنائع، واختص النساء بالغناء، والغذاء، فهن أطيب طبيخًا منهم لثباتهم في العمل، وأحسن غناء؛ لأنهم مطبوعات على النغم».

بهذا المعنى يستوجب عملنا الإحاطة بنماذج من الأنشطة التي كلف بها هؤلاء الأرقاء والتي كانت على النحول التالي:

الحواضن والدايات:

يختص بهذه الوظيفة النوبة من العبيد وذلك لخصالهم الحسنة، ولمعرفتهم بأحوال الأطفال، وبجودة التعامل معهم، يقول ابن بطلان في هذا الشأن: «يختار لتربية الأطفال النوبة؛ لأنهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد وليس يلقّن الطفل لغة بشعة».

الطباخات:

استخدمت بعض الجواري لأداء مهنة الطبخ في القصور والبلاطات وعند بعض الأسر التي حرصت على اقتناء طباخات.

الخزان:

يؤدي هذه المهنة الرقيق الروم وذلك لحفظ الأموال (اعتبارهن

يكون بإخراجهن في مال معلوم الوزن وإهمال مراعاتهن والتصفح له من بعدُ بغتة)[1] .

القيان :

هي من أبرز الجواري احترافًا ، نظرًا لكونهن يحذقن الغناء والرقص والعزف .

ولقد انتشرت ظاهرة اتخاذ القيان في المجتمع العربي الإسلامي بتأثر من الثقافات الأخرى الوافدة مثل الثقافة الفارسية ، وبالتالي لم تكن حكرًا على العرب بل تفشى ذلك أيضا لدى بقية الأمم ، وهذا ما بينه الجاحظ بقوله : (ولم تزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر ، وكانت فارس تعدّ الغناء أدبا والروم فلسفة ، وكانت في الجاهلية الجرادتان لعبد الله بن جدعان)[2].

---

(١) ابن بطلان : (المختار بن الحسن) رسالة جامعة في فنون شري الرقيق وتلقيب العبيد ، الجزء الأول ص ٤١٦.

(٢) الجاحظ (عمرو بن بحر) : الرسائل ، كتاب القيان ، الجزء الثاني ص ١٥٨.

الدافع الثاني : الإدماج لأجل المتعة :

الإدماج كان محدد الأهداف واضح الأبعاد ، فقد تم تقريب العبيد واستغلالهم لأجل الانتفاع الجسدي منهم .

وتعد مسألة التسرّي بالإماء من أهم الظواهر البارزة في المجتمع العربي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ، حيث تم الانتفاع بجمال الإماء والتمتع بأجسادهنّ ، لكن ذلك يحدث في نطاق احترام التعاليم الإسلامية ؛ التي تنص على أهمية مراعاة البعد الإنساني وحفظ حقوق السريات ؛ لأن الكثير من العرب قبل الإسلام استغل الرقيق المؤنث وتاجر بأعراضهن فأجبر الإماء على البغاء والفساد وإتيان المعاصي ، وذلك واضح من خلال الإشارات الواردة في بعض الآيات التي تنهى عن هذه العادات المشينة التي تدعو إلى الزنى والفجور .

قال تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن

يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

لقد شرعت العقيدة الإسلامية ظاهرة التسرّي ، وسعت إلى تقنينها لأجل المحافظة على التوازن العلائقي في نطاق الأسرة والأخذ بعين الاعتبار في البعد الأخلاقي ، وبالتالي تمكن الأحرار من التمتع بالجواري الإماء وفقًا لمجموعة من الشروط التي تحقق المنافع للسريات .

ومن ثم تتحول هذه الظاهرة إلى أمر مشروع . ذكر في القرآن .. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ .

لقد حاول المجتمع العربي الإسلامي الخضوع إلى مختلف البنود الدينية التي تنظم مسألة التسرّي ، وتمكن الإماء من حقوقهن قدر الإمكان ، وتجعل أبناءهن أحرارًا ينتسبون إلى أبيهم ، وذلك بهدف إلغاء النظرة الدونية إلى هذه الفئات الضعيفة .

الإدماج الاقتصادي :

إن الاهتمام بفئة الرقيق وسعي السلطة السياسية إلى إدماجها في صلب الدولة لم يكن مقتصرا على المجالين الاجتماعي

والعسكري فحسب ، وإنما أدرج هذا الصنف أيضًا في الهيكل الاقتصادي الذي استدعى تشغيل طاقات بشرية متعددة ومتنوعة لمجابهة الحاجيات المتزايدة والطارئة .

ونظرًا لتطور الميدان الاقتصادي فقد ازداد طلب اليد العاملة لا سيما في القطاع الفلاحي ؛ وذلك لأجل القيام بإحياء الأراضي الشاسعة وزراعتها واستصلاح السباخ ، وتحسين نظام الريّ وحفر القنوات . ومن ثم كان للرقيق دور هام في النهوض بالزراعة خاصة في الحقبة المعتضدية (٢٧٨هـ ـ ٢٨٩هـ) التي شهدت إصلاحات هامة وواضحة مكّنت من مساعدة الزراع (و تقديم البذور والمعونة لهم وتحسين طرق الجباية ... وتأخير موعد الجباية من نيسان إلى حَزيران ... والاهتمام بحماية الزرّاع من عبث الموظفين والجباة)[1] .



(١) الدوري (عبد العزيز) : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٤٢هـ .

الرقيق وواقع التهميش

لم يتمكن المجتمع العربي الإسلامي من التخلص من النظرة الدونية لفئة الرقيق ، فرغم التفاوت في معاملة العرب لعبيدهم ، ظل أغلبهم يشكو القهر والذلّ والاستغلال لا سيما أولئك الذين سخروا للزراعة والأشغال العامة مثل الرقيق الزنج .

اشتغل الزنج في الإقطاعيات الزراعية الكائنة في القسم الأدنى بين دجلة والفرات ، وهي منطقة المستنقعات التي تسمى «البطيحة» وكانوا يعانون من وضع اجتماعي متقهقر وصعب ؛لأن ظروف العمل به قاسية ، فقد عر[illegible]ـذه المناطق بالأمراض والأوبئة والآفات ، إضافة إلى أن النشاط الممارس اقتضى طاقات جسمانية كبيرة ، فالزنوج يعملون في كتل ضخمة يتراوح عدد الواحدة منها بين خمسمائة وثمانية آلاف عامل ، يتمثل نشاطهم الأساسي في كسح السباخ بإزالة الطبقة الملحيّة التي تغطي الأراضي ، والوصول إلى الطبقة الصالحة والزراعية .

يقول الطبري : «وكانت كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان في أنهار البصرة عشرات الآلاف من الزنج يعذبون بهذه الخدمة»[1] .

التاريخ العربي مع المجون والجواري والسبايا والرقيق الذي يُشترى

الذي يبحث في تاريخ العرب والمسلمين في الجزيرة العربية وما جاورها فيما يتعلق بانتشار ممارسة الجنس مع الجواري والإماء والسراري والقيان ، يكاد يجزم أن هناك حقبًا طويلة من التاريخ حتى أمد قريب كان فيها سكان هذه المنطقة غارقين فيها ، ومما جعل هذه الممارسات تزدهر هو كثرة الفتوحات والغزوات الإسلامية على مناطق كثيرة في العالم ، وكان من السهل الحصول على السبايا من خلال هذه الحروب والغزوات ، تاريخ ملطخ بالمجون والجنس والغلمان .

يقول الجاحظ : كان ميل العرب للإماء أكثر من الحرائر ؛ لأن

---

(١) الطبري (أبو جعفر) : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء التاسع ص(٢٨-٢٩) .

الجمال في كثير من نساء هذه الأمم المفتوحة أوفر ، والحسن أتمّ ، فقد صقلتهن الحضارة وجلاهن النعيم ، ولأن العادة ألَّا تنظر الحرّة عند التزويج بخلاف الأمة ، لذلك صار أكثر الإماء أحظى عند الرجل من أكثر المهيرات : إن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرف خطوة الخلوة فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرّة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء حاجات الرجل ومواقفهن قليلًا . والرجال بالنساء أبصر ، قد تحسن المرأة أن تقول : أنفها كالسيف وعينها عين الغزال ، وعنقها إبريق فضة وشعرها العناقيد ، وهناك أسباب أُخر بها يكون الحب والبغض .

ومن أقوال العرب : «الأمة تُشترى بالعين وترد بالعيب» والحرّة غل في عنق من صارت إليه ، قال بعضهم : وقد اشتهرت الأصقاع المختلفة بميلهم إلى أجناس مختلفة من النساء بحكم الجوار ، وبحكم ما كانوا يشترون ويأسرون ، فمن ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبناتهن ، واليمن أشهاهن عندهم الحبشيات وبناتهن ، وأهل الشام الروميات وبناتهن .

سئل بعضهم عن ولد الرومية ؟ فقال : صلف معجب بخيل ، قيل : فولد الصقلية ؟ قال : طفس زنيم . قيل : ولد السوداء ؟ قال : شجاعٌ سخي ، قيل : ولد الصفراء ؟ قال : هم أنجب أولادًا ، وألين أجسادًا وأطيب أفواها ، قيل : فولد العربية ؟ قال : أنف حسود .

قال الجاحظ : رأينا الخلاسي ؛وهو الذي يتخلق من بين الحبشي والبيضاء ، والعادة من هذا التركيب أن يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ، ورأينا اليسرى من الناس وهو الذي يخلق من بين البيض والهند ، لا يخرج ذلك التاج على مقدار ضخامة الأبوين وقوتهما ، ولكنه يجيء أحسن أو أصلح ، وكانت الخيزران سبية من خرشنة ، بلدة قرب (ملطية) ، ولدت موسى الهادي وهارون الرشيد ابني محمد المهدي ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك أمه شاه أفريز بنت فيروز ، ومروان بن محمد ابن أمة كردية ، وأبو جعفر المنصور أمه بربرية تسمى سلامة ، والمأمون أمه تسمى مراجل ، والمعتصم أمه تسمى ماردة ، والواثق بالله أمه تسمى قراطيس ، والمتوكل أمه تسمى شجاع .

وسمّت العرب ابن العربي إذا كانت أمه أمة : الهجين ، والمعيب ، وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء . قال الأصمعي في تعليل ذلك : إن الناس يرون أن امتناعهم عن توليتهم استحقارًا لهم ، وهذا غير صحيح ، وإنما كانوا يمتنعون عن ذلك ؛ لأن بني أمية كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد .

وفيما يلي أقتطف بعض القصص التي وردت في كثير من الكتب عن تعامل العرب والمسلمين في هذا الجانب الذي شهد ازدهارًا منقطع النظير ، لدرجة أن بعض الحكام كان يمتلك العشرات منهن .

إذا كان التاريخ يذكرنا بالأتراك. والعرب النخّاسين الذين كانوا يجوبون القرى الأفريقية ، ويخطفون الرقيق من فتيات وغلمان ، فهناك من الغربيين من هو أشد قسوة في النخاسة من هؤلاء ، فكم من فئة غربية عقدت الشركة ما بينها على الاتجار بالرقيق ، وقد اتّسعت تجارتهم فيه ، وكانت بضاعتهم تُشحن من الرقيق إلى البلاد الأمريكية ، حيث تباع بأرباح كبيرة ، وكم يُلاقي الأرقاء في سبيلهم من الفظائع التي تقشعر منها الأبدان ،

من فئات النخاسة الأشداء القساة ، وهنا نذكر من مصدر وثيق ، معاملة الرقيق الذي يشحنه النخاسون الغربيون إلى بلادهم وإلى أمريكا ، فقد روت بعض الصحف المصرية ، أنه قد ظهر في لندن آخر كتاب اسمه (مجازفات تاجر رقيق في أفريقيا) ومؤلفه هو الكابتن (تيودودكانوت) الإنجليزي تاجر ذهب ، وعاج ، ورقيق ، وقد كتب سنة ١٨٥٤م وقد نشرت تلك الصحيفة المعلومات الآتية عنه :

الحصول على الرقيق : كانت الوسيلة العادية لاسترقاق الزنوج في أفريقيا ؛ هي اختطافهم بمختلف الحيل ، وكان لتجار الرقيق عملاء كثيرون مهمتهم خطف الفتيات والغلمان الذين يرونهم صالحين للاسترقاق ، والذين يأمل منهم أن يأتوا بأثمان غالية ، غير أن وسيلة الاختطاف كانت فردية ولم تكن تأتي بالعدد الكافي من الأرقاء ، حتى يُشحنوا جملة واحدة في إحدى سفن الرقيق ، ولكن ما كان بواسطة زعماء القبائل والملوك الذين يحكمون مناطق في أفريقيا يكون أعود على النخّاسين إذ يقاطعونهم على كميات وافرة تسلّم بأوقات وآجال معينة ،

ويدفعون لهم دراهم سلفة على ذلك الحساب ، وهذا هو الأمر الذي ينشأ منه على الدوام الاختلاف بين أولئك الزعماء والملوك ومواصلة القتال ما بينهم والغالب منهم يأسر خصمه ، ويغزو أرضه ، فيأسر كذلك نساء الأعداء وأولادهم ثم يبيعهم كلهم جملة إلى تجار الرقيق ، وكان زعماء القبائل الإسلامية يبررون أسر خصومهم بأنهم من الوثنين غير أهل الكتاب فتجب محاربتهم وغزو بلادهم وامتلاك أسراهم (المذنبون يباعون رقيقًا) .

وإلى جانب الحرب والقتال كان هناك مصدر للرقيق وهو (القضاء) ، فكل زعيم قبيلة هو قاضٍ بحكم مركزه ، وباستطاعته أن يحكم على المجرمين والمرتكبين لأقل سيئة بالرق والبيع لتجار الرقيق ، وكان هذا بطبيعة الحال أجدى من الحكم عليه مدة طويلة أو وجيزة بالسجن ، وقد ذكر المؤلف لهذه المناسبة حادثة غريبة ، وهي أنه طلب نخاس يومًا من أحد الملوك في أفريقيا أن يبيعه رقيقًا ، ولكن جلالته كان قد باع كل ما عنده من أسرى حرب أو مذنبين ، فلجأ إلى حيلة يحصل بها على رقيق جديد ، وكان قد سمع منذ زمن طويل شكاوى ضد عدّة أناس في مملكته ، فلم يعبأ

بها لعدم أهميتها ، غير أنه تذكرها واهتم بها في اللحظة التي طلب منه التاجر رقيقا يبتاعه ، فجمع أولئك البائسين وحاكمهم وأدانهم وحكم عليهم بالرق والتسليم ، وتم كل شيء في نحو ساعة من الزمن .

الكشف على الأرقاء :

كان الأرقاء يكشف عليهم بمنتهى الدقة عند أماكن التصدير ، فإن المريض أو الهزيل ما كان يتحمل مشاق الرحلة إلى أمريكا ، وإن تحملها ووصل سالما فإنه ما كان ليأتي بثمن يدعو إلى الرضا ، وفي الكشف على الرقيق تُفحص أسنانه وعضلاته وأعضاؤه وكل جزء من جسمه ، وكان التاجر يحس جسم الرقيق بإصبعه ضاغطًا بشدة في أماكن مختلفة منه ليثق من قوته ، وربما كان نقص سن واحد من الرقيق سببًا برفض شرائه وتصديره ، ولكن كثيرًا ما كانت تتخذ حيلة عجيبة في هذا المجال ، ومنها أن بعض العملاء كان يعطي الرقيق دواء فيتهيج تهيجًا وقتيًا ، حتى يظهر وقت الكشف عليه وكأنه في خير وعافية ، وقد رأى المؤلف في أول رحلاته مريضا ولكنه فطن إلى ذلك من أن نبضه أسرع من

المعتاد ، وهذه شبيهة بالطريقة التي تتبع أحيانا في سباق الخيل ، أن يحقن الجواد بمادة تهيجه وتجعله يسبق غيره .

وكان لهؤلاء الجواري أثر سيئ في الخلاعة والمجون ، وانتشر عنهن شيء من الظرافة ، قلدهن فيها الناس كحب الأزهار وتعشقها ، قال أحمد أمين ؛ في «ضحى الإسلام» : نجح هؤلاء الجواري في إشعار الناس بالظرف ، وكان للجواري فضل آخر وهو أنهن من أمم مختلفة ، فهم من الهند وتركيا وروما ، وقد كان كل صنف يُجلب وقد تكونت عاداته ، ثم أتين المملكة الإسلامية فنشرن عاداتهن ووقعت أبصارهن على عادات غيرهن ، فخضع ذلك كله لقانون الانتخاب ، ويظهر أن الجواري كن أنشط من الحرائر من ناحية الإنشاء الأدبي ومن ناحية الإيحاء إلى الشعراء ، ويرجع السبب في ذلك إلى النظام الاجتماعي ، فقد كان الناس يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري ويحجبون الحرّة ، وكان أدب الجارية يقوم في سوق الرقيق بأكثر مما يقوم بدنها ، والمال في كل عصر هو قوام الحركات الاجتماعية .

لقد كانت الحروب في عصر صدر الإسلام تكاد أن تكون

دائمة ، وكان النصر حليفًا للمسلمين أينما توجهوا والبلاد المفتوحة والأمم المغلوبة للإسلام لا تُعد ، ولهذا كان الرقيق لا يُحصى ، ويعتبر من أهم الغنائم التي تعود على الغانمين بالثروة الطائلة ، فإن من أُسر من الكفار المحاربين جاز للإمام أن يسترقه كما يجوز له أن يسترق أهل البلد الذي فتح بالحرب رجالًا ونساء ، وهذا الرقيق يعد مالًا شأنه في ذلك شأن المتاع ، فمن استرق في الحرب عد جزءًا من الغنيمة ، كالآلات الحربية والنقود والخيل .

ولما كانت أحكام الإسلام تجيز معاشرة الجواري إلى جانب الزوجة أو الزوجات الشرعيات دون قيد ولا شرط ، فقد كانت الجواري عنصرًا هامًّا في حريم الخلفاء والأمراء والكبراء .

كان يتسرب سنويًّا عدد من الرقيق إلى بلاد العرب عن طريق البحر الأحمر ، وهؤلاء في بعض الأحيان يحملون جواز سفر من الحكومة الحبشية ، فيسافرون كحجاج ليباعوا في أسواق (مكة المكرمة) ، وفي اليمن قبيلة تسمى (الزرانيق) لها قلاع على سن البحر الأحمر ، بارعة في القرصنة تهابها جميع قبائل اليمن ، تغزو المراكب الكبرى بسنابكها وتفتك بها ، وهم النقطة الوحيدة التي يتهافت عليها النخاسون من الأقطار لشراء الرقيق .

في الغرب لم يبلغ شأن الرقيق هذا المدى من الأهمية والانتشار ، ولم تبلغ الجواري مثل هذه المكانة في القصور ، ذلك أن الرق لم يزدهر في العصر القديم في الغرب ، إلا عند اليونان والرومان ، ثم الأمم البربرية التي اقتسمت تراث روما واقتبست نظمها وشرائعها ، كالواندال والقوط والإفرنج .

وفي عصر الإمبراطورية الرومانية ، كانت قصور القياصرة والكبراء تغص بالرقيق من الجنسين ، والجواري الحسان يقمن في القصر بالدور المريب ، فمنهن الحظايا والراقصات والمغنيات ، بيد أنهن لم يبلغن من الوجاهة الاجتماعية في القصور الرومانية أو الإفرنجية ما بلغته في قصور المشرق ، بل كن يعدن دائمًا جنسًا منحطًّا مريبًا ويعاملن في الغالب باحتقار وخشونة ، ومنذ القرن التاسع غدا الرق من الأنظمة المكروهة ، وبقي رائجًا بين القبائل الجرمانية التي ما زالت تسودها الوثنية والبداوة .

وفي الدولة البيزنطية لم يكن الرق نظامًا مشروعًا من الوجهة الدينية ، ولكنه كان موجودًا من الوجهة القبلية بصور مخففة ، والجالس على عرش قسطنطينية كثيرا ما يهدي إلى الخليفة أو السلطان عددًا من الجواري الحسان ، حين تصفو العلائق بينهما ،

ويرد الخليفة أو السلطان الهدية بمثلها ، والشأن نفسه كان في الدولة الإيطالية ، لا يعترف بالرق فيها كنظام مشروع ، وإن كان البنادقة والجنويون لبثوا مدى العصور من أنشط تجار الرقيق ووسطائه .

ونلاحظ أن النصرانية لم تجز تعدد الزوجات ولا التسرّي ، ومن ثم كان اقتناء الجواري لغير أغراض الخدمة المنزلية أمرًا محرمًا من الوجهة الدينية ، ولا نكاد نسمع منذ القرن الحادي عشر بتجارة الرقيق في الغرب ، ولكنها استمرت بعد ذلك في الشرق قرونًا ، وازدهرت أيام الحروب الصليبية على يد البنادقة والجنويين ، وكان معظم الجواري الحسان يؤتى بهن في تلك العصور من بلاد الصقالبة (السلافيين) والمجر ومن بعض القبائل التركية البدوية في القوقاز وتركستان ، ثم يحملن تباعًا إلى ثغور الشام ومصر والمغرب .

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر نشطت تجارة الرقيق مرة أخرى ، من جراء الحملات البحرية الناهبة ، والتي كان ينظمها خوارج البحر المغاربة ، على جزر البحر الأبيض وثغور

النصرانية ، واستمر الرقيق نظامًا مشروعًا في أمم الشرق حتى أوائل القرن التاسع عشر ، فلمّا اضمحلّت الأمم الإسلامية ، وأخذت أوروبا تغزوها بنفوذها ، اجتمعت الدول الأوروبية على مقاومة الرق وإلغائه .

وبدأت إنجلترا بذلك فألغي الرق بقانون برلماني في سنة ١٨٣٤م وعدّ جريمة يعاقب عليها بالموت ، وحذت باقي دول أوروبا حذو إنجلترا ، وأصدرت قوانين مماثلة ، وانتهت الدولة العلية بالموافقة على هذه الخطوة فألغي الرق رسميا في أراضيها ، ولكنه استمر بعد ذلك ، حتى أواخر القرن الماضي ، وكانت الجواري التركيات يمثلن إلى هذا العهد حريم الأمراء الشرقيين .

يقص الأستاذ أحمد شفيق باشا في مذكراته (إن الخديوي إسماعيل ترك في قصوره حين تخلى عن العرش عددًا كبيرًا من الجواري الشركسيات ، وأن ولاة الأمر لبثوا مدة يعملون للتخلص من هؤلاء الجواري بتزويجهن بموظفي القصر والمتصلين به وترتيب النفقات لهن ، ولا يزال يعيش نساء كثيرون من أبناء هؤلاء الجواري) .

قضية التمييز العنصري

يشكل اللون عنصرًا جوهريًّا في بلورة النظرة الاحتقارية للرقيق ، فقد ارتبطت تسمية العبيد بلون بشرتهم ، إذ يقال للرجل منهم : «أسود» والمرأة : «سوداء» .

وقد عمد الجاحظ إلى ذكر مختلف الأوصاف الدالة على الدمامة والقبح الخاصة بالعبيد الرجال والنساء مثل «أسود» و«زنجي» و«حبشي» ، وهذا الأمر يدل على تغيّر في استخدام التسمية ، فلم يعد الحبشي هو ذاك الذي تعود جذوره إلى منطقة الحبشة ؛ بل بات دالًّا على سواد البشرة . وإن كثافة الألفاظ التي أطلقت على العبيد لوصف لون بشرتهم يُترجم بوضوح تنوع «المنمذجات الجنسية» (LES STEREOTYPES RACIAUX) في نظرة العرب إلى الأرقاء[1] .

(١) ابن بطلان : رسالة جامعة في فنون شري الرقيق وتقليب العبيد ٢ مذكرات أحمد شفيق باشا ص ٩٠.

ويمكن تصنيف هذه المنمذجات إلى صنفين :

الصنف الأول : منمذجات خلقية : تربط بالميزات الجسدية والخلقية وبالتالي لا تعنى إلا بالشكل الخارجي للذوات .

الصنف الثاني : منمذجات خُلقية : تتناول كل ما له علاقة بالسلوك والتصرفات والمرافق والأخلاق .

إن اللون الأسود صار سببًا مباشرًا في تردي مرتبة العبيد الذين أُسندت إليهم الكثير من الأوصاف القبيحة والمقززة بالإضافة إلى سواد البشرة ودكانتها ، كانت وجوههم قبيحة مخيفة مفزعة ، وأجسامهم غليظة .

وقد تطرّق «بارنارد لويس» إلى مختلف الأوصاف الخلقيّة الدميمة مبينًا «أن العبيد كثيرًا ما كانوا يشبهون بالذئب والسحرة والشياطين والجن»[1] .

بهذا المعنى أضحى اللون الأسود دليلًا واضحًا على مسألة التمييز العنصري ، المتفشية في المجتمع العربي الإسلامي خلال

(١) برنارد لويس : أستاذ فخري بريطاني أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون .

القرنين الثالث والرابع للهجرة . فهذا الضرب من السلوك والمعاملة عمّق الهوّة بين الفئات الاجتماعية وأجّج الفتنة وحال دون عملية الانصهار الكلّي في الدولة الإسلامية .

مبدأ عدم التمييز :

(لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان ، دونما تمييز من أي نوع ، ولا سيما التمييز بسبب العنصر ، اللون ، الجنس ، اللغة ، الدين ، الرأي ، الأصل الوطني والاجتماعي ، الثروة ، المولد ، أو أي وضع آخر ...) .

المادة الثانية من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان :

إن المبدأ القائل أن لجميع البشر حقوقًا متساوية ، ويجب أن يعاملوا بصورة متساوية ، يمثل حجر الزاوية في مفهوم حقوق الإنسان ، ويستند إلى تساوي الأفراد في الكرامة الإنسانية المتأصلة في كل فرد ، لكن هذا الحق الطبيعي في المساواة لم يتوفر قط بصورة كاملة لجميع البشر ، لا في الماضي ولا في الحاضر .

فالتمييز بصورة أو بأخرى كان دائمًا مشكلة منذ بداية الجنس

البشري ، وقد مورس ضد السكان الأصليين والأقليات في كل مكان ، من غابات الأكوادور إلى جزر اليابان ، والمخيمات الإسكانية في جنوب داكوتا ، وضد اليهود وسكان أستراليا الأصليين وغجر الروما في أوروبا ، كما يحدث ضد العمال المهاجرين واللاجئين وطالبي اللجوء في أمريكا الشمالية وأوروبا ، وكذلك بين مختلف القبائل في أفريقيا ، ويتعرض له الأطفال المقهورون أو الأطفال الذين يخضعون لسوء المعاملة ، وكذلك النساء اللواتي يعاملن وكأنهن أقل قيمة من غيرهن من البشر ، كما يتعرض له المصابون بفيروس مرض الإيدز ، وكذلك من يعانون من أنواع العوق الجسدي أو النفسي أو الذين لديهم توجهات جنسية تختلف عن غيرهم .

بل إنه يلاحظ حتى في اللغة التي نميز من خلالها أحيانًا أنفسنا ، عمدًا أو بغير عمد عن غيرنا ، وهو يظهر بأشكال عديدة يمكن الافتراض بأن كل فرد قد تأثر به بدرجات مختلفة .

تركز هذه الوحدة التعليمية على بعض أشكال التمييز الأكثر خطورة وضررًا ، التي تقوم على أساس العنصر ، أو اللون ، أو

الأصل الأثني ، ونعني بذلك العنصرية والتمييز العنصري وما يتعلق بها من مواقف تقوم على كراهية الأجانب وعلى التعصب .

لقد أُسيء استخدام الفروق البيولوجية منذ فجر التاريخ لتبرير وجود أعراق سامية وأعراق دونية ولتصنيف البشر بالتالي وفقا للعرق ، فاستخدمت نظريات(تشارلز داروين) عن التطور وبقاء الأصلح ، لتبرير نظرية التفوق العرقي تبريرًا «علميًّا» وتجلت أشكال للتمييز والعنصرية في نظام الفئات الاجتماعية ، إن اضطهاد اليهود في جميع أنحاء العالم ، كان أمرًا شائعًا في فترات ما قبل تاريخ العنصرية وكان الحكم الاستعماري الأسباني ، ولا سيما خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أول من أدخل مجتمع الفئات العرقية الحديث في العالم الجديد (قارة أمريكا الجنوبية) حيث أصبح نقاء الدم مبدءًا ساميًّا ، وكان ضحايا هذا النظام هم الهنود الأمريكيين والمجلوبين من أفريقيا ، وقد اعتمدت القوى الاستعمارية هذه البنى واتخذتها أساسًا لمجتمعاتها الاستعمارية .

كان تعبير الزنجي في العالم الجديد مرادفًا لعبد ينتمي إلى عرق دوني بالمقارنة مع رق السيد الأبيض ، وفي أواخر القرن الثامن

عشر وأوائل القرن التاسع عشر تطورت الأيديولوجية العنصرية لتتخذ بعدًا آخر، فصار (الكوكلوكس كلان) بعد الحرب الأمريكية، يقومون بأعمال شغب عنصرية وبعمليات لإرهاب السود في ولايات الاتحاد، كما أن المستعمرين الأوروبيين استفادوا أيضا من هذه الأيديولوجية، ومن اتساع نطاق قبول الداروينية الاجتماعية في القرن التاسع عشر كي يرسخوا ويعززوا دعائم سلطتهم في الهيمنة على القارة الأفريقية، وقد شهد القرن العشرون أنواعًا متطرفة جدًّا من العنصرية تمثلت في الحق العنصري النازي في أوروبا، وفي التمييز العنصري المؤسسي لنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وفي عمليات الإبادة الجماعية القائمة على دوافع عنصرية وعرقية في يوغوسلافيا السابقة ورواندا.

واليوم، ونتيجة لهذه التجارب التاريخية، بات حظر التمييز أمرًا يقرّه العديد من المعاهدات الدولية والتشريعات الوطنية، ومع ذلك فإن التمييز على أساس العنصر، أو اللون، أو الانتماء الأثني، أو الدين، أو الجنس، أو التوجه الجنسي وغير ذلك، ما زال يشكل موضوع أكثر الانتهاكات تكرارًا لحقوق الإنسان في العالم.

التميز والأمن البشري :

إن توفير الظروف للناس كي يمارسوا ويوسّعوا نطاق فرصهم وخياراتهم وقدراتهم في أمان ، يشكل أحد الأهداف للأمن البشري ، والتمييز على أي أساس كان يعيق الناس عن الممارسة المتساوية لحقوقهم وخياراتهم ، ولا يسفر فقط عن عدم الاستقرار على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي ، وإنما يؤثر أيضا في احترام الذات والتصميم الذاتي والكرامة الإنسانية للفرد الذي يتعرض للتمييز .

كما أن التمييز العنصري وانتهاك حقوق الأشخاص الذين ينتمون إلى المجتمعات الضعيفة ، أو الأقليات ، أو فئة العمال المهاجرين ، ينبغي أن يعتبر سببًا لنشوب نزاعات خطيرة ، ومصدر تهديد للسلام والاستقرار الدوليين ، وإن الاعتراف بالكرامة المتأصلة والحقوق المتساوية لجميع أفراد الأسرة البشرية ، على النحو المنصوص عليه في ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم .

وبالتالي فإن التغلب على واقع أشكال اللامساواة القائمة على أساس العنصر ، أو الجنس ، أو الدين ، أو اللغة ، ينبغي أن يحظى

بأولوية عالية في جدول أعمال الأمن البشري .

فاعل التمييز ـ الدولة أم الفرد :

المجال المهم الذي يجب النظر فيه يتعلق بالمعتدي أو الفاعل في النظام الدولي لحماية حقوق الإنسان ، وكذلك الآليات القضائية لعدم التمييز تهيمن عليها تقليديًا فكرة تأمين حماية الفرد من تدخل الدولة .

وبالتالي فإن الدول كانت دائما هي الأطراف الفاعلة الرئيسة (سلبًا وإيجابًا) في حين أن التمييز بين الأفراد ظل إلى حد ما من غير تنظيم ، ولم يتغير هذا التصور إلا مؤخرًا تحت تأثير التطورات الجديدة في مجال مكافحة العنصرية ، والتمييز على الصعيد الدولي ، مما أدى إلى توافر فهم أشمل للتمييز وإلى مراعاة أن العديد من حوادث التمييز باتت ترتكب على أيدي أطراف فاعلة خاصة لا علاقة لها بالدولة .

(لو استيقظنا صباح يوم ووجدنا أننا جميعًا من عرق واحد ، ونؤمن بعقيدة واحدة ، وأننا من لون واحد ، فإن الظهيرة لن تمر قبل أن نجد أسبابًا أخرى لاعتماد أحكام مسبقة تجاه الآخرين) «جورج آيكن» .

المعايير الدولية

لقد أدت الدروس المستخلصة من عهود العبودية والاستعمار ، وعلى الأخص من فترة الحرب العالمية الثانية ، إلى إدراج مبدأ عدم التمييز في العديد من الدساتير الوطنية والمعاهدات الدولية ، وتمثل الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري ، المبرمة في عام ١٩٦٥م ، أهم معاهدة دولية عن التمييز العنصري ، وهي تستند إلى مبدأ الكرامة والمساواة ، وتدين جميع أشكال التمييز ، وتطلب من الدول أن تستخدم كل الوسائل الملائمة للقضاء على التمييز العنصري ، وقد صادقت عليها إلى الآن ١٦٥ دولة في العالم ، وأثبتت جدواها كأداة لمكافحة التمييز .

وهناك مستويات مختلفة للواجبات إزاء مبدأ عدم التمييز يمكن تطبيقها على الدول ، وعلى القطاع الخاص ، وعلى مستوى الأفراد من بعض النواحي :

واجب الاحترام :

يُحظر في هذا السياق على الدول أن تتعرف على نحو يخالف الحقوق ، والحريات الأساسية المعترف بها ، وبعبارة أخرى ، فإن على الدولة ألَّا تفعل شيئًا في هذا الصدد ، نظرًا لعدم وجود تحفظات قانونية صريحة بشأن كل من هذه الحقوق والحريات .

واجب الحماية :

تقتضي هذه المسئولية من الدولة أن تحمي الأفراد من أي انتهاكات لحقوقهم ، وتتطرق هذه المسئولية فيما يتعلق بالتمييز ، إلى مسألة العنصرية بين الأفراد ، فتقتضي من الدول أن تكافح على نحو نشط ممارستهم للتمييز العنصري في المجتمع ، ومع ذلك فإن هذا الواجب يبقى موضع جدل كبير ؛ لأنه يمس المجال الشخصي للأفراد ، وما زال لا يوجد توافق في الآراء بشأن حدود الالتزام بالوفاء بهذا الواجب .

واجب الأعمال :

يقتضي هذا الواجب من الدولة أن تعمل على أن يتم بأفضل شكل ممكن أعمال الحقوق المكفولة ، وذلك عن طريق تدابير

قانونية ، وإدارية ، و قضائية ، ووقائعية ملائمة ، وتطلب المادة الخامسة من الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز من الدول الأطراف ، اتخاذ إجراءات لحظر التمييز العنصري ، والقضاء عليه وتأمين هذا الحق لكل فرد .

واجبات القطاع الخاص (المنظمات غير الحكومية ، وسائل الإعلام) :

إن لدى القطاع الخاص بالإضافة على الحكومات ، قدرة هائلة على مكافأة التمييز والعنصرية ، وتشكل الأطراف الفاعلة من القطاع الخاص أكبر جزء من المجتمع ، والتصدي للتمييز والمواقف العنصرية يمكن أن يتم في العادة بأكبر قدر من الفعالية ، من داخل المجتمع المدني من خلال العمل انطلاقًا (من القاعدة نحو القمة) .

آفاق للتفاعل بين الثقافات وقضايا مثيرة للجدل :

إن العنصرية والتمييز العنصري يمثلان مشكلة عالمية تتجلى مظاهرها بطرق متنوعة ، مع أن كلمة العنصرية ترتبط بشكل تلقائي بالتمييز الذي يمارسه الرجل الأبيض ضد الأجناس الأخرى ، لا يوجد أي مجتمع يمكنه الادعاء بأنه خال من أي

شكل من أشكال العنصرية ، ولاشك أن معاداة السامية ، والتمييز العنصري ، وأوهام التفوق ، تبرز كظواهر في الغرب أكثر مما في المناطق الأخرى ، إلا أن هذا لا ينفي وجود العنصرية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

وعلى سبيل المثال لا يحق للكوريين في اليابان أن يشغلوا وظائف عامة ؛ وذلك بسبب أصولهم الكورية ، وكانت الأقلية الصينية الأصل في أندونيسيا لا تملك حتى وقت قريب ، الحق في الاحتفال علنًا بعيدهم التقليدي في رأس السنة الجديدة .

أما نظام الفئات الاجتماعية الهندية ، الذي كثيرًا ما يوصف بأنه «فريد من نوعه في مسار تطوره التاريخي» فإنه يُعرّض فئة المنبوذين في الهند لأنواع خطيرة من التمييز ، تشتمل على عمليات اغتصاب جماعية وتنظيم مذابح تقوم بها الفئات الاجتماعية الأعلى ، وهناك مثل(أغلبية الهان الصينية) التي تعود أقليات مثل المنغوليين ، بأنهم (برابرة قذرون وبدائيون ومتخلفون) .

وليس مثال البلدان الأفريقية أفضل حالًا من ذلك ، فقد أخرج آلاف الآسيويين من شرق ووسط أفريقيا بسبب سياسات

عنصرية قاسية ، وعلى سبيل المثال فإن قانون التراخيص التجارية في كينيا وأوغندا وزامبيا ، جعل مجالات معينة من النشاط التجاري وقفًا على مواطني هذه البلدان مع السماح للآسيويين بمزاولة هذا النوع من النشاط إذا كانت لديهم تراخيص خاضعة للتجديد سنويًا ، كما يجدر عدم نسيان حالات التمييز بين القبائل المختلفة إذ يواجه أفراد القبائل التي تشكل أقلية بالمقارنة مع قبيلة الأغلبية الحاكمة ، أنواع المضايقات العرفية التمييز وأشكال الحرمان من وسائل العيش في حياتهم اليومية ، وفي أوروبا يمثل التمييز ، ضد الغجر الرومان الذين يقدرعددهم ثمانية ملايين نسمة يعيشون في أنحاء القارة الأوروبية ، إحدى أخطر المشكلات التي تعانيها أوروبا في مجال حقوق الإنسان ، وإن كانت هذه المشكلة تواجه الإهمال ويتم التستر عليها ، وقد كان هؤلاء الغجر طوال معظم تاريخهم يعتمدون الترحل كنمط للحياة ويُجبرون على الانصهار في المجتمعات المحلية ، ومنعتهم بعض البلدان من استخدام لغتهم ، وكانت تبعد الأطفال عن والديهم ، ولا يزال هؤلاء يعانون اليوم من التمييز في جوانب مختلفة في حياتهم ، مثل العمالة ، أو السكن ، أو التعليم ، أو

العدالة ، أو خدمات الرعاية الصحية .

وثمة جانب آخر مهم ومثير للاهتمام ظهر خلال المؤتمر العالمي الثالث لمناهضة العنصرية في دوربان ، في عام ٢٠٠١م ، يتعلق باختلاف في فهم كلمة «العنصرية» بين أفريقيا من ناحية ، وأوروبا وأمريكا الشمالية من ناحية أخرى .

فأثارت محاولة البلدان الأوروبية لحذف كلمة «العنصر» من نص البروتوكول ؛ نظرًا لعدم صحتها علميًّا ، وأيضا نقدًا شديدًا من جانب الوفود الأفريقية ، ووفود الكاريبي التي رأت أن البلدان الغربية لا تسعى إلى التخلص من هذا الدليل على انتهاء عهود الاستعمار إلا عندما لا تعود فائدة في تحديد «فئات سامية» من البشر .

وتمثل أحد الأمور الأخرى ، التي استثارت المشاعر خلال المؤتمر العالمي في عدم اتفاق مختلف المجموعات على ما إذا كان ينبغي اعتبار معاداة السامية شكلًا من أشكال العنصرية أم لا ، وذلك بناء على ما إذا كان اليهود يُعتبرون جماعة دينية أم اثنية ، وقد ظلت هذه المعضلة مع غيرها بلا حل ولا تزال تثير الكثير من النقاش في محافل دولية شتى .

التنفيذ والرصد :

كون التمييز يشكل أحد أكثر انتهاكات حقوق الإنسان تكرارًا ، يدل هذا على مدى العمل الذي لا يزال القيام به في هذا الصدد ، وإن تطبيق المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان ؛ هو من حيث المبدأ مسئولية تقع على عاتق الدولة ، ولذلك ينبغي على الدول أو الدول الأطراف أن تبرم وأن تنفذ المواثيق المعينة بمكافحة التمييز العنصري ، بيد أن التطبيق الفعلي للمعايير الدولية لا يكون مضمونًا ما لم تكن هناك نظم فعّالة للرصد ، وآليات قوية لتطبيق الأحكام .

وبالإضافة إلى بيان واجبات الدول الأطراف ، أنشأت الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري اللجنة المعينة بالقضاء على التمييز ، التي كانت أول هيئة من هيئات معاهدات الأمم المتحدة ترصد وتستعرض عمليات تنفيذ الاتفاقية ، وتشجع على تنفيذها بقوة .

ويتألف النظام الذي أُنشئ من ثلاثة أنواع من الإجراءات : تقديم الشكاوي بين الدول ، وهي مفتوحة لكل الدول الأطراف ؛

وإجراءات عن الحق في تقديم عرائض بلاغات من جانب أفراد أو مجموعات ، يدّعون أنهم ضحايا انتهاكات في هذا المجال ، وذلك ضمن نطاق النظام القضائي لكل دولة من الدول الأطراف .

وثمة أداة مهمة للرصد تتمثل في أمناء المظالم في مجال مكافحة التمييز أو مكافحة العنصرية ، الذين يعملون على الصعيد الوطني ويضطلعون بدور مهم في توثيق حالات التمييز ، وفي الإعلان بشأن التشريعات الوطنية والدولية ، وفي العمل على إيجاد حلول ممكنة .

وخلال العقود الماضية أصبحت الآليات والصكوك الدولية تستخدم على نحو متزايد ، لرصد وتطبيق مبادئ مكافحة التمييز ، وقد ظلت الاستراتيجيات الوقائية ، مثل نظم الإنذار المبكر ، وآليات الزيارات الوقائية ، وإجراءات العمل العاجل ، والإعلام على مستوى القواعد الشعبية ، والتعليم ، لا تحظى بالتقدير الكافي مما أدى إلى إهمال أنجح أشكال الاستجابة إزاء قضايا التمييز والعنصرية ، وإذ إن هذه الاستراتيجيات تعني بمعالجة الظاهرتين في جذورهما .

مستويات المغايرة وقوة التمثيل

١ ـ الأسود والمغايرة المضاعفة :

لقد اضطلعت مرجعية التاريخ ومرجعية الأنساق الثقافية بدور كبير في توجيه المتخيل العربي الجمعي ، وفي طريقة تركيب تلك الصور الانتفاضية والتبخيسية للزنوج والسود بوجه عام ، وهي كذلك المرجعيات التي نصبت هذا الأسود بوصفه الآخر المختلف كل الاختلاف عن العربي من حيث اللون والعرق ودرجة التحضر واللغة والدين وحتى الجنس النوعي ، أي أنهم ليسوا بشرًا تامين ومكتملين ، إنهم في درجة وسطى بين البهائم والبشر ، فهم نصف بشر ونصف حيوان ، لهم من البشر الشكل والهيئة فقط ، ولهم من الحيوان التوحش ، والهمجية ، وتشوه الخلق والخُلق ، وانعدام النظام ، والدين ، واللغة وغيرها .

إن مستويات الاختلاف هي التي خلقت ما نسميه هنا بـ

«المغايرة المضاعفة» بين العربي والأسود ، أي أننا لسنا أمام اختلاف بسيط ، كما هو الشأن بين العرب والفرس ، أو بين العرب والهند والصين ، أو بين العرب والترك ، وحتى بين العرب والروم ، بل إننا أمام اختلاف مركب من عدة طبقات ، بحيث لم يجد العربي أية وشائج قربى تصل بينه وبين هذا الأسود .

لقد كانت هذه المغايرة المضاعفة ذات تأثير مزدوج في المتخيل العربي ، فمن جهة كان المتخيل العربي بحاجة إلى افتراض هذه المغايرة الكلية بينه وبين الأسود ؛ وذلك لتسويغ استمرارية نظام الرق والعبودية ، وتسويغ المعاملة القاسية لهؤلاء السود بوصفهم سلعًا تباع وتُشترى ، أو شيئا يُمتلك ويحق لمالكه أن يفعل به ما يشاء من ضرب ، وإرهاق ، وتفريق بينه وبين أحبابه وأزواجه .

من جهة أخرى كانت هذه المغايرة المضاعفة ذات نفع للعربي المسلم ؛ من أجل أن تزيح عن كاهلة وطأة الشعور بالذنب وتأنيب الضمير تجاه هذا الأسود .

إن النظر إلى الأسود بوصفه حيوانًا أو بشرًا من درجة أدنى وأقرب إلى البهائم والوحوش ، يخفف من الذنب الذي يستشعره

المرء فيما لو اعتبر أن من يعاملهم بهذه الصورة القاسية بشر مثله ، والعربي المسلم يعي أن الإسلام كرم الإنسان بوصفه إنسانًا : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] [الإسراء : ٧٠] . ومن هنا كان الإسلام ملتزمًا بمثل الإخاء الإنساني ومبادئ العدل والمساواة والحرية واحترام حرمة الشخص البشري ، مهما كانت لغته ولونه ودرجة تحضره .

ومن هنا أيضًا كانت أعراض اللون ، واللغة ، ودرجة التحضر عاجزة عن أن تقوم بدور المبرر لتلك المعاملة القاسية ولتلك العلاقة غير الإنسانية بين المالك وعبده ، ومن هنا جاءت الحاجة إلى البحث عن تغاير أقصى بين العربي والأسود ، تغاير يطال هذه المرة المقوم الجوهري لإنسانية البشر ، وذلك ليتم للعربي المسلم ما أراده من تخفيف شعوره بالذنب تجاه السود .

إن المقوم الجوهري لإنسانية البشر ليس مفهومًا محددًا ونهائيًا ، بل هو مفهوم نسبي خاضع للتغيّر من مرحلة إلى أخرى ،

---

(١) الإسراء : ٧٠.

ففي لحظة تاريخية كان العقل هو المقوم الجوهري للإنسان ، أي ما به يكون الكائن إنسانًا ، وفي لحظة كان الدين هو جوهر الإنسان ، وأحيانا يكون الإنسان ماثلًا في اللغة أو الاختلاف أو الأيديولوجيا أو الرمز ، وقبل ذلك أن الشكل والهيئة هما جوهر الإنسان ، أي «أن الإنسان حيوان مشّاء ذو رجلين» . كما كان «التمدن» أو «التحضّر» هو جوهر الإنسان ، وليس ثمة ما يمنع أن تجتمع كل هذه المحددات في ثقافة من الثقافات تؤمن أن جوهر الإنسان يكمن في التحضر ، والهيئة ، والأخلاق ، والدين ، واللغة ، والعقل معًا .

غير أنه من المهم أن نستكشف جوهر الإنسان هذا ، لا في حقيقته المجردة المطلقة ، بل من منظور الثقافة التي ندرسها ومن منظور اللحظة التاريخية والسياقات الثقافية التي [illegible] هذه الثقافة من خلالها ؛ ذلك أن نظرة الثقافة إلى الآخرين تتوقف على الكيفية التي تفهم به هذه الثقافة هؤلاء الآخرين كبشر أو بهائم ، فتحديد نوع هذه الكائنات يعتمد على المعيار الذي تستنبطه هذه الثقافة ، وتعتمده لقياس إنسانية هؤلاء أو حيوانيتهم .

ومن هنا كان من الضروري النظر إلى هذه الأقاويل لا

بوصفها «مقولات معرفية» خالصة ، بل بوصفها معرفة تستبطن شكلًا من أشكال القوة والهيمنة ، أو بعبارة أخرى مظهرا من مظاهر تواطؤ المعرفة والقوة أو الهيمنة .

٢ ـ الأسود والحاجة إلى التمثيل :

لم يكن الأسود الزنجي هو الآخر الوحيد الذي عرفته الثقافة العربية الإسلامية ، لكنه يكاد يكون الآخر الوحيد الذي لم تجد هذه الثقافة معه من واسطة ، أو وشائج قربى ، أو قواسم مشتركة ، حقيقية أو متخيلة ، تخفف من حدة المغايرة وعنف الاختلاف ، لا على مستوى الدين كما حصل مع الفرس ، ولا على مستوى التحضّر كما حصل مع الهند والصين والروم ، ومن هنا ظل هذا الأسود هو المثال الحاسم للآخر المغاير بصورة كلية للذات العربية الإسلامية ، وسرعان ما تشكل حوله أرشيف ضخم من الصور ، والرموز ، والتصورات ، والأوصاف المتكررة ، والعبارات التي تؤكد على هامشيته ، وانحطاطه ، بل حيوانيته ، وكونه ذلك الكائن القصي والمهمش ، والصامت والغريب ، والمدهش ، والشهواني .

كذلك انتهى مصير الأسود الزنجي في الثقافة العربية الإسلامية ، وهي الثقافة التي مارست عليه عمليات الاستعراض والتمثيل ، ونصّبت نفسها مركزًا للكون وصاحبة الحق والامتياز في تمثيل الآخرين والكتابة عنهم ، وخصوصًا إذا كان هؤلاء الآخرون عاجزين عن تمثيل أنفسهم ، وذلك ما داموا لا يملكون أهم أداة من أدوات تمثيل الذات ، وأخطر وسيلة من وسائل وصف الآخرين ، وهي الكتابة واللغة كما هو شأن هذا الأسود ، فكل ما عنده إنما هو دمدمة وهمهمة ، كدمدمة البهائم وهمهمة السباع ، وأقوال لا ترتفع عن أقدار الدواب .

هكذا كما لو كان ثمة رغبة قوية لإخراس هذا الأسود ، وإبقائه يعيش في عالم الصمت المطبق ، يسمع دون أن يسمح له بالتكلم ، يُكتب عنه دون أن تكون لديه القدرة على الرد .

يكتسب تمثيل الآخر قوته من مساحة الحرية الكبيرة التي يتمتع بها ، وذلك حين يكون هذا الآخر موضوع التمثيل صامتًا أو عاجزًا عن النطق وتمثيل ذاته بذاته ، ومن هذا المنطلق فإن إخراس صوت الآخر الممثل يمثل مطلبًا عزيزًا على كل أنظمة التمثيل ، وهذا هو الذي يجعل التمثيل معدودًا في أنظمة القوة ، ومتورطًا

بأجهزة السلطة ، فكل سلطة تبحث عمّا يعزز وجودها ، وكل نظام قوة ، كما نعرف منذ (ماكس فيبر) ، هو في أمس الحاجة إلى إضفاء المشروعية على نفسه ، التي تكافح من أجل تمكين نفسها لا بوسائل العنف والإكراه الماديين فحسب ، بل من خلال العنف والإكراه الرمزيين ، ذلك أن القوة في الحياة اليومية الروتينية قلّ ما تُمارس بوصفها قوة مادية سافرة ، وبدلًا من ذلك ، فإنها تتحول إلى شكل رمزي ، ونتيجة لذلك فإنها تتمتع بنوع من الشرعية التي لم تكن تمتلكها من قبل .

وعلى هذا فإن أنظمة القوة والسلطة إنما تكتسب الشرعية من خلال الاستعانة بالعنف الرمزي وعمليات التمثيل ، وبما يسميه (لوي ألتوسير) «بأجهزة الدولة الأيديولوجية» وهي قريبة مما كان (ميشيل فوكو) يسميه «الانضباطان» أو «أجهزة الانضباط» ومؤسساته وأنظمته وقواعده ، وهي التي تشمل السجون ، والمستشفيات ، والمدارس ، والمصانع ، والصوامع ، والمعسكرات ، وغيرها من المؤسسات البيروقراطية التي تمارس أدوار الضبط ، والمراقبة ، والمعاقبة ، والإخضاع ، والتطويع على البشر أفرادًا وجماعات .

وعلى هذا فحيثما توجد سلطة توجد مطالبة بالمشروعية، وحيثما توجد مطالبة بالمشروعية، يكون اللجوء إلى بلاغة الخطاب العمومي بهدف الإقناع.

وبهذه الطريقة يمكننا القول بأنه ليس هناك تمثيل للآخرين غير مضطر إلى اللجوء إلى بلاغة الخطاب بهدف إقناع هؤلاء الممثلين بدونيتهم وتخلفهم وجهلهم، ومن ثم إقناعهم بأن ثقافة الممثلين هي الثقافة الكونية الأسمى. لكن كيف يتوصل خطاب التمثيل الى إقناع هؤلاء بدونيتهم وإيهام الذات بفوقيتها وتفوقها؟ يُجيب (بول ريكور) بأن ذلك يتم عن طريق الاستعمار المستمر للوجوه البلاغية والاستعارات، مثل السخرية والالتباس، والمفارقة، والمبالغة، وذلك في حقوق التمثيل المختلفة ودون أن يتنبه أحد إلى مجازيّة هذه التمثيلات.

لقد كانت الثقافة العربية الإسلامية، كأية ثقافة تسعى إلى تمثيل آخر خارجي عنها، كانت بحاجة إلى تمثيل الآخرين بهدف تشكيل الهوية وحراستها من الاختلاط بغيرها، وتشكيل الهوية يستلزم ترسيم الحدود الفاصلة بينها وبين هويات الآخرين. لكن السؤال هو من أين تبدأ حدود الهوية، وعند أية نقطة تنتهي؟ إن

المساحة التي تشكل فيها الهويات بمثابة مناطق اعتباطية ومتاحة للجميع ، ولكن نظرة الجماعات المختلطة لذاتها وللآخرين هو ما يفرض النفوذ على منطقة دون أخرى ، وهو ما يجعل الباب مفتوحًا لتوسعات مستقبلية .

فأي معنى لاعتبار جماعة من البشر تعيش بالقرب منا بمثابة آخرين لنا ولجماعتنا التي تنتمي إليها ؟ ثم لماذا ينقلب هؤلاء الآخرون إلى مجالنا ليكونوا جزءًا منا في لحظة تاريخية مختلفة ؟ إن هذه العملية لا تتم بمعزل عن التمثيل ، فنحن بحاجة إلى معرفة الجماعات المختلفة من أجل معرفة هويتنا الخاصة ، وذلك لا يتم إلا بجعل الآخرين موضعًا لوعي الذات وتمثيلها في بلاغة الخطاب .

كثير من أجناس السود وأصناف الزنج عاجزة عن تمثيل نفسها ؛لأنها لا تملك كتابات مدونة ، ولم تتمكن من تطوير ضرب من ضروب الخطوط والأقلام خاص بها ، وذلك على خلاف بقية الأمم من عرب وفرس وهند وسند وصين وعبرانيين وأرمن وسريان ، وهي الأمم التي كان لها كتابة بقلم ابتكرته هي أو استعارته من أمم أخرى .

وإذا كانت الكتابة هي ميزة الأمم المتحضرة ، وإذا كان القلم هو قريب العقل والحكمة ، فهم لم يكن لديهم لا قلم ولا كتابة كالأمم المتحضرة .

٣ ـ خطاب الاستفراق وتشكل الصور النمطية عن السود :

لقد قدمت الثقافة العربية الإسلامية تمثيلات متعددة لثقافات مختلفة ، لكن ما يُميز تمثيلات السود في هذه الثقافة هو أنها تتسم بتواتر واطراد واستفاضة لم يكن لها نظير في تمثيل هذه الثقافة للآخرين .

لقد احتفظ المتخيل العربي بصور متباينة لكل من الصين والهند والفرس والروم والصقالبة والبلغار وغيرها ، لكن أيًّا من هذه التمثيلات لم يكن بحجم تمثيلات السود التي تمتد على مساحة شاسعة من مدونات هذه الثقافة ، كما أنها لم تكن تمتلك تواترًا واطرادًا استثنائيين من زمن بعيد حتى العصر الحديث . ولأنه أصبح من البديهيات القول بأن لجريان الزمن فعله في التمثيلات ، ولتقدم التاريخ تأثيره فيها ، إلا أن هذا لا يكاد ينسحب على الصور النمطية التي شكّلها المتخيل العربي عن السود ، فالمرء يشعر

أنه يقف أمام تمثيل راسخ ومتماسك وتاريخي ، وكأنه يقاوم الزمن ويترفع على تقدم التاريخ وتغيير السياقات .

ومن دلائل هذا التواتر والاطراد في تمثيلات الأسود في المتخيل العربي ، أنك لا تجد اختلافًا مميزًا وذا شأن في هذه التمثيلات بين ما كتبه مؤلف في القرن الثالث الهجري ، وبين ما كتبه آخر في القرن الخامس ، أو السادس ، أو السابع ، أو الثامن .

لقد أصبح لهذه التمثيلات تقليد ثابت مفروض على كل من يريد الحديث عن السود أو الكتابة عنهم ، وأصبح لهذا التقليد لغته الخاصة ومجازاته المميزة ، وعلى هذا فإن أي حديث يراد له النجاح ، و أيّة كتابة يراد لها الذيوع والانتشار والقبول الجماعي ، فإن السبيل إلى ذلك هو الالتزام بهذا التقليد الجماعي ، فإنه يعرض نفسه للرفض ، والمواجهة ، والسخرية ، وهذا ما حدث مع أبي العباس الناشئ الأكبر (٢٩٣هـ) وأبي العباس محمد بن خلف (٣٠٩هـ) .

فهذا الأخير خالف العُرف في التأليف وخرج على الإجماع حين ألف كتاب «السودان وفضلهم على البيضان» فلم يلق غير

السخرية والتهكم، فجلال الدين السيوطي يقول فيه: ولا أستكثر عليه، فإنه ألف كتاب «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» فإذا فضّل الكلاب على بني آدم، لم يكثر عليه أن يفضل السود على البيض. وأما أبو العباس الناشئ فقد ألّف رسالة في «تفضيل السود على البيض» وكانت العاقبة أن أتهم بالجنون والهوس، ووصف السيوطي هذا التفضيل بمن «عمل مفاخرة بين الذهب والزجاج».

إن الثقافة العربية الإسلامية لا تشكو من نُدرة في نصوص هذه الكتابات عن السود، بل هي تتمتع بوفرة لافتة في هذه النصوص، وهي وفرة منتشرة ومبعثرة على حقول كثيرة ومتباينة، غير أن هذا التبعثر والانتشار إنما ينطوي على قدر كبير من الانتظام، والتماسك، والانسجام، في النظرة الموحّدة إلى السود، وفي طريقة الكتابة والتحليل والتفسير، كما في الافتراضات واللغة والصور المجازية المستخدمة.

(وحين نتمكن من إثبات منظومة تبعثر ما من هذا النوع، داخل عدد معين من العبارات، وعندما نقف على شكل ما من

أشكال الانتظام يتخذ صورة نظام أو اقتران أو مواقع أو مجاري عمل أو تحول بين الموضوعات وأنواع التعبير والتصورات والاختيارات الفكرية، عندئذٍ سوف نقول من باب الاصطلاح: إننا أمام تشكيلة خطابية[1].



(١) ميشيل فوكو، حفريات المعرفة.

لعنة السود وأمثولة النيء والمطبوخ والمحترق

اعتمد المتخيل العربي في تفسير ظاهرة السواد وغيرها من الخصال الجسمانية السابقة، على شبكة ضخمة من المعارف المتداولة والمعتمدة الموثوقة آنذاك من علوم الدين والكلام، والجغرافيا والتاريخ، والتنجيم والفلك، والطب وعلم الملاحة وغيرها، وتم توظيف هذه المعارف في تكوين أهم التفسيرات الكبرى التي ظهرت في هذا السياق لتفسير ظاهرة السواد على جهة الخصوص، وذلك من حيث ظاهرة غريبة، وغير عادية، وغير سوية، ومرضيّة؛ ومن هنا فهي تستلزم التفسير والتأويل.

وقد عرف المتخيل العربي تفسيرات عديدة لسواد البدن، بعضها كان متأثرًا بمفاهيم الطب ويرى أن السواد مرض أو عرض لمرضٍ ما، وبعضها كان متأثرًا بمفاهيم التنجيم ويرى أن لسواد البدن علاقة بتأثيرات النجوم والكواكب على المخلوقات.

غير أن هذين التفسيرين تم إدماجهما في صياغة أهم تفسيرين عرفتهما الثقافة العربية الإسلامية لظاهرة السواد ، وهما التفسير التاريخي التوراتي والتفسير الجغرافي الطبيعي :

التفسير الأول :

يذهب في تفسيره لظاهرة السواد مذهبًا تاريخيًّا ، يُستمد من الإرث التوراتي الذي تسرّب إلى الثقافة العربية الإسلامية من خلال الإسرائيليات ، ويرى هذا التفسير أن السواد لعنة إلهية حلّت بذريّة حام بن نوح على أثر دعوة نوح على ابنه بالعبودية والسواد .

التفسير الثاني :

فيذهب مذهبًا جغرافيًّا متأثرًا بالإرث البطليموسي ، وذلك من خلال تقسيم الأرض إلى أطوال وأعراض ، ومن خلال تبني تقسيم الأرض والمواضع العامرة منها إلى سبعة أقاليم ، يبدأ الإقليم الأول من الجنوب ، حيث السود الزنوج ، وينتهي السابع في الشمال ، حيث يأجوج ومأجوج وهمج الشمال .

إذا كان التفسير الأول يرتكز على أساس أسطوري ، فإن الآخر يتركز على أساس استعاري مجازي ، يستحضر «مثلث الطبخ» لدى (ليفي شتراوس) بطريقة مجازية ، فإذا كان المرور من الطبيعة إلى الثقافة يتم من خلال مثلث الطبخ بأن ينتقل «النيء» إما ثقافيًّا إلى مطبوخ ، وإما طبيعيًّا إلى «متعفن» فإن التصور العربي الإسلامي قد استحضر هذا النموذج المطبخي ليرصد ظاهرة جغرافية كونية تُعبّر عن مدى اعتدال الذات ومدى فساد تكوين الآخرين .

فبالاستعانة بالتصور (البطليموسي) عن الأرض وأقاليمها المعمورة ، تم تصوير الأرض كطعام ، والشمس كموقد نار ملتهبة ، وبالنظر إلى عدم تعرّض هذه الأقاليم السبعة إلى هذا الموقد بدرجة متساوية ؛ فإن النتيجة هي الحصول على أطعمة مختلفة ومتباينة ، بعضها لم تمسّه النار بدرجة كافية فخرج نيئًا ، وبعضها تعرض لحرارة شديدة فخرج محترقًا نتيجة لمسامته الشمس على الرءوس ، وبعضها تعرّض لحرارة معتدلة فخرج مطبوخًا ناضجًا .

وعلى هذه الاستعارة تم توزيع الأقاليم السبعة ، فالإقليم الأول (الزنوج) محترق ، والسابع (يأجوج ومأجوج) نيء ، والإقليم الرابع (معظم بلاد الإسلام) معتدل وناضج ، وبقية الأقاليم (الثاني

والثالث والخامس والسادس) تتوزع من حيث الاعتدال أو الانحراف، من حيث النضج أو الاحتراق بحسب قربها من الموقد الشمسي أو بعدها عنه.

وعلى الرغم من التعارض الصريح بين التفسيرين، إلا أنهما يشتركان في كونهما ينطويان على نظرة دونية من السواد، من حيث الاعتقاد بأنه ظاهرة غير سوية، بل هو انحراف عن الاعتدال، وتعبير عن التشوّه الخُلقي والخلقي، كما أن كلا التفسيرين يصدر عن اعتقاد بأن بين الفرد وبين محيطه المكاني وأصله التاريخي شبكة كبيرة من التداخلات، بحيث يتأثر الإنسان في التفسير(التاريخي/ التوراتي) بأصله العرقي، في حين أنه يتأثر بمحيطه وموقعه الجغرافي بحسب التفسير (الجغرافي/ الطبيعي) وفي التفسيرين فإن هذه التداخلات دائمًا ما تكون ذات اتجاه واحد في التأثير من الموقع الجغرافي والأصل التاريخي إلى الفرد، وعكس هذا الاتجاه غير وارد، فالفرد أضعف من أن يؤثر في أصله التاريخي وموقعه الجغرافي، إن الثبات والرسوخ من صفات الأصل والموقع، أما الفرد فهو كائن هشّ يتغيّر ويتقلّب ويتأثر، وذلك بحسب ما يقتضيه هذا الأصل وهذا الموقع.

السواد والعبودية/ الأصل التوراتي والقراءة العربية

ترجع جذور التفسير الأول إلى أصل توراتي ارتضته الثقافة العربية الإسلامية ، وذلك على الرغم من الشكوك التي أثيرت حوله من قِبل ابن خلدون وغيره ، كما سوف نرى ، ويذهب هذا التفسير إلى الاعتقاد بأن جميع البشر يرجعون إلى أصل واحد هو آدم أبو البشر ، ومنه تناسل الخلق حتى وصل إلى نوح ، فكان الطوفان المدمّر في زمنه ، ولم ينج من أبناء نوح بعد الطوفان إلا ثلاثة ، هم سام ، وحام ، ويافث ، وعن هؤلاء الثلاثة تفرعت الشعوب والأمم على الأرض ، فسكن حام في الجنوب ، ويافث سكن في الشمال ، واختار سام وسط الأرض موضعًا لسكنه ، وبحسب رواية التوراة يتزامن هذا الحدث مع أحداث خراب برج بابل ، فحين دمّر الرب برج بابل اختلفت ألسنة الناس ، ومن ثم تشتتوا في أرجاء الأرض الواسعة ، الغريب في الأمر أن حدث الطوفان وخراب برج بابل بحسب الرواية لا يقدمان أي تفسير

لسواد أبدان البشر ، ولا يقدمان أي سبب لا تاريخي ولا إلهي لظاهرة السواد .

وعلى هذا فقد كانت رواية التوراة مملوءة بالثغرات والفجوات ، وكان على القراءة العربية أن تبدأ أولًا بسد هذه الثغرات ، وإصلاح هذا الخلل ، وذلك لإعادة صياغة حبكة هذه الحكاية ؛ من أجل أن تسير حكاية الطوفان وخراب برج بابل في اتجاه يخدم أبناء سام ، والعرب منهم ، ويرفع من شأنهم ، وفي المقابل يحط من شأن الحاميين والسود والزنوج منهم .

كان على هذا المتخيل أن يعيد قراءة التوراة وأن يعيد تأويلها من أجل التمكن من سد الفجوات الموجودة في الرواية التوراتية عن الطوفان ، و خراب برج بابل ، وكان لابد من إعادة تحبيك حكاية الطوفان وخراب بابل التي وردت في التوراة بطريقة تتناسب مع ما اختزنه المتخيّل العربي من صور ، وتمثيلات ، وأحكام سلبية انتفاضية ، بشأن السود والزنوج .

إن الاتفاق بين المرويات قائم على صدور اللعنة من قِبل نوح تجاه ابنه حام ، غير أن الاختلاف حاصل في سبب تحديد سبب

اللعنة ، وفي تحديد مشمولات اللعنة :

العبودية فقط أم العبودية والسواد معًا ، فلما كان نص التوراة خاليًا من الإشارة إلى السواد ، لجأ المتخيل العربي إلى إضافة السواد مع العبودية ليتم ربط اللعنة بالسواد والسود .

لقد أضاف المتخيل خصلة السواد والتشوّه ضمن مشمولات اللعنة مع العبودية ، فاللعنة في نص التوراة وفي النصوص العربية التي نقلت عن التوراة بصورة حرفية محصورة في العبودية ، غير أن الروايات العربية أضافت السواد إلى العبودية ؛ ليكونا معًا من مضمون دعوة نوح ولعنة الله التي حلّت بهم على أثر هذه الدعوة ، (ابن الأثير) يذكر أن السواد في نسل حام إنما كان «لأن نوحًا نام فانكشف سوأته فرآها حام فلم يغطها»[1] و(القزويني) ينقل «أن نوحًا عليه السلام دعا على ابنه حام فاسود لونه»[2] أما (المسعودي) في «أخبار الزمن» فإنه يساوي بين حام ويافث في لعنة العبودية ، ولا يسلم من دعاء نوح غير ابنه سام .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ص ٦١.
(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢.

يقول : «إن نوحًا عليه السلام نام فانكشفت عورته ، فرآها حام فضحك ولم يغطه ، وسكت يافث ، ولم ينكر عليه ، فصاح سام عليهما ، وعلم ذلك نوح فدعا على حام أن يكون ولده سودًا مشوهين عبيدًا لولد سام ، ودعا على يافث أن يكون ولده عبيدًا لبني سام ، وأن يكونوا أشرار الناس»[1] .

لقد دعا نوح على ابنه يافث ، بحسب هذه الرواية ، بأن يكون وِلده عبيدًا لبني سام ، وأن يكونوا أشرار الناس ، أما حام فكانت دعوة أبيه ضده أن يكون ولده عبيدًا لبني سام كأولاد يافث ، وسودًا مشوّهين ، وهو ما امتاز به أولاد حام عن أولاد يافث الذين امتازوا بكونهم شرار الناس .

غير المتخيل العربي ، جمع كل تلك اللعنات في ذرية حام ، فهم عبيد مشوّهون وسود محترقون ، كما أنهم شرار الخلق كما جاء في الحديث : «شرار الناس أسود كالقير»[2] . وكما ينقل القزويني بأن الزنوج هم «شرار الناس ، ولهذا يقال لهم : سباع الإنس»[3] .

---

(١) أخبار الزمان ص ٨٣.
(٢) تفسير الجلالين ص ٨٧٥.
(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٥.

إن هذه الإضافات ليست من نص التوراة ، كما أن العبودية والسواد والتشوّه لم يرد في نص التوراة ؛ إنما هي من إضافات المتخيل العربي ، ومن جملة قراءته للتوراة ، وذلك بما يخدم أغراضه ويدعّم تصوراته وأحكامه تجاه الآخرين ، وخصوصًا ما يتعلق منها بالسود والزنوج .

فقد كان هذا المتخيل في حاجة ماسة إلى الربط بين السواد والعبودية ، وبينهما وبين دعوة نوح على ابنه حام ؛ وذلك لتكون العبودية في السود من ولد حام بمثابة حالة طبيعية ، بل بمثابة تحقيق لأمر إلهي مقدّس ، أو إنجاز لدعوة نبوية مقدّسة .

لا يخلو هذا التفسير لخصلة سواد البدن في السود من تناقضات ، كما أنه لا يسلم من تعارضه مع الاعتقاد الراسخ في الثقافة العربية الإسلامية ، وهو أن الذي يجعل من الإنسان إنسانًا إنما هو تمثّله للأعراف والأنساق الثقافية ، كالدين ، والسياسة ، والاخلاق ، والعادات والتقاليد ، وهو الاعتقاد الذي أسهم أيضًا في إخراج السود من حظيرة الإنسانية ، واعتبرهم مخلوقات في عداد الوحوش والبهائم .

فبحسب هذا التفسير التاريخي الذي يرجع إلى التوراة، سيكون السود بشرا من ولد واحد من أهم أنبياء الله الذين حفظوا النوع البشري من الانقراض.

إن السود بشرٌ من ولد آدم؛ حام، وقد حلّت بهم لعنة مقدسة فكانوا سودًا وعبيدًا لأبناء سام، ولكنهم لم يكونوا حيوانات من حيث الأصل، كما لم يكونوا بشرًا بلا تاريخ، وعاجزين عن ابتكار ثقافة خاصة بهم، بل إن (المسعودي) يذكر أن حامًا هذا قبل أن تتلبسه اللعنة، كان «من أجمل البرية وأتمهم كمالًا وأطيبهم ريحًا»[1]، وكما ينقل (ابن قتيبة) عن (وهب بن منّبه) أن حام بن نوح كان «أبيض حسن الوجه والصورة، فغيّر الله عز وجل لونه وألوان ذريته من أجل دعوة أبيه»[2]. وسواء وردت مثل هذه الإشارات التي ينقلها المسعودي وابن قتيبة أم لم ترد، فإن التعارض بين التفسير الثقافي والتفسير التاريخي تعارضٌ قائم، فالأول يعتبرهم حيوانات أو بشرًا مشوّهين من حيث الأصل، في

---

(١) أخبار الزمان ص ٨٣.

(٢) المعارف ص ١٦.

حين أن التفسير الثاني لا يعتبرهم حيوانات ، كما لا ينظر إليهم على أنهم بشر مشوّهون وممسوخون من حيث الأصل ، إن التشوّه والمسخ حالة طبيعية أصيلة في السود ، بل هي حالة طارئة ومن عواقب لعنة حدثت بعد قرون من خلق البشر .

يبقى هذا التعارض قائمًا ، لكنه يجب أن يزول أو أن يُسوّى أو يتم تجاهله ما دام الأمر يتعلق بمنح السود ميزة لا يستحقونها ، وما دام الأمر يتعلق بالحفاظ على سلامة المتخيل العربي الجماعي من أي تناقض قد يشوّش عليه ، أو يشكل في صحة تصوراته عن هؤلاء السود .

وقد التقَتْ هذه الرغبة بمحو التعارضات مع حاجة ماسة إلى تبرير ظاهرة الرق والعبودية في هذه الثقافات ، فلا يجب أن ننسى حاجة هذه الثقافة إلى المواءمة بين وجوب هذه اللعنة في العبودية والسوادّ ، وبين «متطلبات الفعل الاجتماعي بين أصحاب الحضارة العربية الإسلامية وعبيدهم السود ، ومن متطلبات هذا الفعل الصور النمَطية ، والتصورات المسبقة القائم على اعتبار التلازم بين العبودية والهمجية»[1] ، وبين العبودية والسواد ،

---

(١) العرب والبرابرة ص ١٨١.

بحيث يكون كل أسود همجيًا ، وكل أسود همجي عبدًا بالفطرة كما يقول (ابن بطلان) وكما يفهم من الحديث المسهب في هذه الثقافة عن توحّش السود وحيوانيّتهم ، أو بفعل لعنة إلهية مقدّسة كما ورد في الروايات العربية الإسلامية المتأثرة بنص التوارة .

إن التوراة كما يقول «مادهو بانكيار» ليست مرشدًا سليمًا إلى التاريخ ، وابن خلدون نفسه قال ذلك ، لكن حين يتعلق الأمر بالسود فلا مانع من أن يكون ذلك سليمًا ، وذلك ما دام هذا التاريخ التوراتي قادرًا ، مع بعض الزيادات والإضافات والتحبيكات الضرورية ، على تقويم الدليل أو التبرير المقدس لعبودية السود والزنج ، إذ «ليس القول بأن الزنوج هم أحفاد حام ، إلا تبريرًا للعبودية»[1] .

لقد اطّلع المتخيل العربي على رواية التوراة وقرأها كنص متشكل ، وكان عليه أن يعيد صياغة هذه الرواية ، وذلك بوضعها في حبكة سردية جديدة تخدم مقاصده ، وتدعم تصوراته عن السود والزنوج ، وبالاستعانة بنظريات القراءة والتلقي يمكننا القول بأن التوراة كانت نصًا مفتوحًا أمام القراءات العربية الإسلامية التي

(١) الوثنية والإسلام ص ٥٩.

كانت تملأ فجواته وتعيد صياغتة وتصنيعه وإنتاجه وتحبيكه ، بما يتناسب مع حاجات هذه القراءات ومقاصدها ، وأُفقها التاريخي وسياقتها الثقافية .

لقد كانت القراءات ترهن نص التوراة وتحييه ، بما يلائم أفق هذه القراءات التاريخية والثقافية الذي عبّر عنه ابن خلدون حين قال : «إنما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العُجم»[1] . غير أن هذه الحبكة الجديدة لنص التوراة لقيت اعتراضات تقوم على اعتبارات دينية من خلال التشكيك في صحة رواية التوراة ، وإما على اعتبارات جغرافية طبيعية تدقق النظر فيما تقتضيه طبائع البلدان والأهوية ، وتأثيرها في ألوان البشر وأخلاقهم .

فعلى سبيل المثال يذكر ابن الجوزي (٥٩٧هـ) . أن ما يروى أن نوحًا انكشفت عورته فلم يغطها فاسود (يقصد حام) ، (فشيء لا يثبت ولا يصح)[2] ، بل إنه يذكر أنه ليس هناك سبب ظاهر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٤٨.

(٢) ابن الجوزي : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش ص٥٣.

لسواد ألوان السود ، لا جغرافيًا ولا تواتريا ؛ إذ «الظاهر الألوان أنها خُلقت على ما هي عليه بلا سبب ظاهر»[1] .

وكذلك يذكر عبد الرؤوف المناوي (١٠٣١هـ) أن ما روي من «أن نوحا انكشفت عورته فلم يغطها حام فدعا عليه فاسود ، لم يثبت»[2] .

وإذا كانت هذه المرويات لم تثبت من ناحية السند والمضمون ، فإنها كذلك لا تثبت أمام ما تقضيه طبيعة المكان والمناخ ، فشمس الدين الدمشقي مثلا يذكر الحكاية التوراتية عن سواد حام ، لكنه يعقب على ذلك بقوله : «وأما الحق فإن طبيعة بلادهم اقتضت أن يكونوا على ما هم عليه من الأوصاف المخالفة للبياض»[3] . أما ابن خلدون فقد جمع بين ضعف الدليل الإسنادي في رواية التوراة مع ما فيها من غفلة عن طبيعة البلاد ومناخها ؛ ولذا وصف حكاية التوراة عن حام بأنها حكاية واهية متكلّفة ، وواحدة من خرافات القصاص وأوهام النسابين .

---

(١) ابن الجوزي : تنوير الغبش ص ٣٥.
(٢) فيض القدير ص ١١١.
(٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٣٥.

«وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ، أن السود هم أولاد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه ، وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدًا لولد إخوته لا غير .

وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فإن الشمس تسامت رءوسهم مرتين في كل سنة قريبة أحدهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسودّ جلودهم لإفراط الحر ، ونظير هذين الإقليمين مما قابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس ، شمل سكانها أيضًا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال»[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٤.

تعبر عن الاعتراضات عن صراع قائم بين التفسيرين المعتمدين في الثقافة العربية الإسلامية لظاهرة السواد وما يستتبعها من تشوّه خُلقي وخَلقي، وهذا الصراع ليس محصورًا في تفسيرات السواد، إنما هو صراع قد يظهر في أية لحظة ومع أية ظاهرة، سواء كانت السواد أم البياض، الانحراف أم الاعتدال، التدين أم الإلحاد، التأنس أم التوحّش، إنه صراع بين التفسير التاريخي والجغرافي، بين التفسير الزماني والمكاني، بين التفسير الديني والدنيوي، بين التفسير الأسطوري الخرافي، والعلموي الوضعي.

وإذا كان التفسير الأول منتشرًا في جملة واسعة من المدونات العربية الإسلامية، فإن حال التفسير الثاني يختلف، فهو أيضًا منتشرًا على متن ضخم من مدونات الثقافة العربية، بل قد يوجد الإثنان معًا في موضع واحد، دون شعور من المؤلف أو القارئ بتعارضهما أو تناقضهما؛ وذلك لأن الغاية من وراء هذين التفسيرين واحد، والقصد الجماعي موحّد، وهو تبرير عبودية السود، وتخفيف عبء الشعور بالذنب عند ملاك العبيد من أسياد الثقافة العربية الإسلامية، وذلك حين يستغلون عبيدهم

استغلالًا بشعًا وظالمًا ، فهم عبيد بالفطرة ، أو بفعل لعنة إلهية مقدسة ، أو بمقتضى ظروف بلدانهم ومناخها الحار الذي أحرق أبدانهم ، وأدمغتهم ، وعقولهم ، وأخلاقهم ، وطبائعهم ، كما أحرق أشجارهم وحيواناتهم ، أي أنهم كانوا سودًا وعبيدًا بفعل حتمية دينية أو حتمية طبيعية .



نظرية الأقاليم السبعة
تدرج الطبائع واستراتيجية الاستثناء

إذا كان التفسير التاريخي الذي يستند على رواية التوراة قد تعرض إلى بعض المشاكل والنقد من قبل ابن خلدون أو الدمشقي وغيرهما ؛ فإن التفسير الجغرافي والطبيعي سيحظى بمصادقة شبه كاملة من قبل جميع المنتجين للمعرفة والمستهلكين لها في الثقافة العربية الإسلامية ، من أطباء وكلاميين وجغرافيين ومنجّمين وملّاحين وأدباء ومؤرخين وتجارٍ وحكامٍ وسوقة من عامة المجتمع وغيرهم ، وبلغ هذا الإجماع درجة حملت (علي بن رزين الكاتب) على أن يشترط في نديم الملوك أن يكون ملمًّا بـ «أسماء البلدان في الأقاليم السبعة»[1] وملمًّا بميزات كل إقليم ومزاج أهله .

---

(١) علي بن رزين الكاتب ، آداب الملوك .

ظهرت نظرية الأقاليم السبعة أو ما ظهرت في حقل الجغرافيا ؛ إلا أنها سرعان ما تم تداولها بين حقول معرفية شتّى استقدمتها من حقل الجغرافيا بوصفها حقيقة علمية ملموسة لا مجال للجدال فيها ، وقد تم الاستفادة منها والاستدلال بها في بعض قضايا المعارف العلمية ، كالطب كما فعل (ابن سينا) حيث تحدث عن تأثير الشمس في اعتدال مزاج الأمم أو انحرافه ، أو كما قال بعض «أهل المعرفة» في شأن الحجامة والفصد ، وحاجة الأقطار الحارة إليها ، فالبلاد الحارة تغيّر «المزاج جدًّا كبلاد الزنج والحبشة ، فلذلك يسخن المزاج ويجف ويحرق ظاهر البدن ، ولهذا اسودّت أبدانهم ومال شعرهم ودقت أسافل أبدانهم ، وترهلت وجوههم وخرج مزاج أدمغتهم عن الاعتدال ، فتظهر أفعال النفس الناطقة فيهم من فرح وطرب وخمد ، والغالب عليهم البلادة لفساد أدمغتهم ، وفي مقابلها في المزاج بلاد الترك»[1] ، وكما استعان الأطباء بهذه النظرية ، فقد استعين بها أيضًا في مجال عملي آخر ، وهو الملاحة كما فعل الملاح العربي

(١) فيض القدير ص١٨١ أحمد بن ماجد .

المعروف (أحمد بن ماجد) حين تحدث عن برّ الكانم ، الذي تملكه ذرية سيف بن ذي يزن ، وهم «أقوام بيض على جنوبي السودان ، لبعد الشمس عليهم ، كبياض الترك ، وبُعد الشمس عنهم للجنوب . وأما سواد السودان فاحتراقهم بالشمس ؛ لأنهم قريب خط الاستواء بالقرب من الشمس طول الزمان»[1] .

إن هذا التفسير استبقي حتى العصر العثماني ، وذلك على الرغم من مخالفته وتعارضه الصريح مع الخبرة الملاحية آنذاك .

يتأسس هذا التفسير لظاهرة السواد على تقسيم الأرض ، إلى أقسام : مسكون وغير مسكون ، وعامر وغير عامر ، ويرجع المسعودي هذا التقسيم إلى الحكماء الذي قسّموا الأرض إلى «جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقسموا ذلك إلى قسمين : مسكون ، وغير مسكون ، وعامر وغير عامر ، وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها في وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات»[2] ، كما أن الماء محيط بها من كل

(١) كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد ص ١٩٠.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ص ٨٦.

الجهات، فالأرض «نصفها مغطى بالبحر المحيط الأعظم، والنصف الآخر مكشوف، مثلها مثل بيضة غائصة نصفها في الماء، والنصف الآخر ناتئ من الماء، وهو النصف المكشوف»[1].

وهذا النصف المكشوف من الأرض ينقسم إلى مسكون عامر، وغير مسكون خَرِب، وإذا كان مركز الأرض هو وسط الفلك، فإن مركز القسم المسكون العامر سيكون وسط الأرض وفي سرّتها، فلا هو في الجنوب ولا في الشرق ولا في الغرب؛ إنه في وسط الأرض وفي قلبها، وبذلك ستكون أطراف الأرض مجرد أماكن خربة غير صالحة للسكن؛ والسبب يرجع إلى طبيعة المناخ في هذه الأماكن «فما تناهى في التشريق وتحج منه نور المطلع فهو مكروه لفرط حرارته وشدّة إحراقه، فإن الحيوان يحترق بها، والنبات لا ينبت، وما تناهى في التغريب أيضًا مكروه لموازنته التشريق في المعنى الذي ذكرناه، وما تناهى في الشمال أيضًا مكروه لما فيه من البرد الشديد الذي لا يعيش الحيوان معه، وما تناهى في الجنوب أيضًا كذلك لفرط الحرارة، فإنها أرض محترقة

(١) رسائل إخوان الصفا ص١٦٣.

لدوام مسامتة الشمس إيّاها»[1] . وعلى هذا فإن الأماكن الصالحة للسكن والعيش قليلة ومحصورة في وسط الأرض .

تجدر الإشارة إلى أن هذه الأماكن الصالحة للسكن ليست على درجة واحدة من قبول العمران البشري المعتدل ، فالمعمور «من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحرّ في الجنوب منه والبرد في الشمال ، وما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحرّ والبرد ، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلًا»[2] ، وهذا الوسط المعتدل هو على وجه التحديد ، أواسط الإقليم الثالث والرابع والخامس ، فهذه هي الأقاليم المعتدلة ، والرابع أكثرها اعتدالًا وعمرانا ، وأهله أقرب إلى اعتدال المزاج ، وفيهم أساطين الحكمة والفنون والعلوم ، ومنهم الأنبياء الصالحون الجامعون للأخلاق الكاملة والفضائل الجامعة[3] .

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٩.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٢.

(٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٣٦٠.

إن تقسيم الأرض إلى أقاليم معتدلة وأخرى منحرفة يقوم أساسًا على نظرية يونانية وبطليموسية على وجه الخصوص ، وقد عرفت بـ«الأقاليم السبعة» وتقوم على تقسيم المسكون من الأرض إلى سبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة وتقسم هذه الأقاليم «بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول ، فالإقليم الأول أطول مما بعده ، وهكذا الثاني إلى آخرها ، فيكون السابع أقصر ؛ لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض ، وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي»[1] .

وتبدأ حدود الإقليم الأول من خط الاستواء الذي يحده من الجنوب ، وليس وراء هذا الإقليم إلا القفار والرمال وشيء يسير من العمران يسميه ابن خلدون «بعض عمارة إن [illegible] فهي كلا عمارة ، ويلي ـ أي الإقليم الأول ـ من جهة شمالية الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال ، وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥.

إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب ، إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في الجنوب»[١] .

إن هذا التقسيم قائم على خطوط طول وعرض وهمية اتفاقية كما يقول البيروني وإخوان الصفا والقزويني وابن خلدون وغيرهم ، فهذه «القسمة ليست الطبيعية ، لكنها وهمية وضعها الأولون الذين طافوا بالربع المسكون من الأرض ، ليعلموا بها حدود الممالك والمسالك»[٢] .

كما أن التدقيق في هذه القسمة يكشف أن هذا التقسيم الوهمي لا يقوم على نظام الطبيعة فحسب ، بل هو يقوم كذلك على أسس اتفاقية ثقافية اعتمدت على أخلاق البشر وأديانهم ، كما اعتمدت على صورهم وألوانهم ، والدليل على ذلك أن هذه الأقاليم السابعة ، إنما تتدرج من الجنوب إلى الشمال بموازاة تدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط كما يقول ابن خلدون ، وهذا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢.
(٢) آثار البلاد ص ١٢.

التدرج يشمل صور البشر وألوانهم وطبائعهم، وأشجارهم، وحيواناتهم، وجميع ما يتكون فيها.

فألوان البشر تتدرج في هذه الأقاليم من السواد إلى السمرة إلى البياض إلى الشقرة، فأهل الإقليم الأول سود، وأهل الإقليم الثاني ألوانهم بين السمرة والسواد، وأكثر أهل الاقليم الثالث سمر، في حين أن الإقليم الرابع وهو الإقليم الذي يضم معظم ممالك الإسلام وبلدان العرب، فألوان أهله بين السمرة والبياض، والإقليم الخامس أكثر أهله بيض، وألوان أهل الإقليم السادس بين البياض والشقرة، وآخر الأقاليم وهو الإقليم السابع فألوان أهله مائلة إلى الشقرة[1].

وبموازاة تدرج الألوان هناك تدرج في أحجام البشر وأشكالهم من الضخامة وطول القامة إلى الاعتدال إلى قصر القامة، فسود الجنوب ضخام وطويلو القامة، ففي جزائر أندمان أناس يأكلون الناس أحياء، في حين تميزت أجسام أهل الأقاليم المعتدلة الثالث والرابع والخامس، بالاعتدال بالطول، فلا هم ضخام طوال ولا

(١) انظر رسائل إخوان الصفا ص ١٧١.

قصار أقزام ، بل حسان الوجوه معتدلو القامة ، وهم من بين جميع البشر أعدل أجسامًا وألوانًا»[1] .

وبناء على ما سبق ، يمكننا القول بأن «صورة السود» في المخيل العربي لم تكن تخلو من غموض والتباس واختلاط ، والثابت أن أفريقيا ظلّت قارة مجهولة ، وأن اتصال الرحالة العرب المباشر لم يشمل إلا الأجزاء الشمالية وأطراف الساحلين العربي والشرقي ، أما «القلب الأفريقي فلم يتعرف عليه العالم إلا في القرن التاسع عشر»[2] ، أي مع اشتداد حركة المنافسة الاستعمارية بين الدول الغربية .

وفيما يتعلق بكتب «المسالك والممالك» التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية ، فإن أغلبها لا يشتمل إلا على القليل والشاذ فيما يتعلق ببلدان السود في جهة الجنوب ، فهي «بلاد كثيرة الجنوس مختلفة ، من الحبش ، والزنج ، والنوبة ، والتكرور ، والزيلع وغيرهم ، فإنه لم يقع إلينا من أخبار بلادهم إلا القليل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٢.

(٢) أفريقيات ص ٣١٠.

النادر؛ لأن غالب كتب المسالك والممالك إنما حققوا بلاد الإسلام، ومع ذلك فلم يحصوها»[1].

وإذا لم يتمكن هذا المتخيل من خلال كتب المسالك والممالك، ومن إحصاء بلاد الإسلام وتحقيق أخبارها، فإنه لم يتمكن من معرفة بلاد السود إلا القليل النادر من أخبارها، وما لبثت هذه الأخبار القليلة النادرة التي اختزنها المتخيل العربي عن السود، ما لبثت أن أوقعته في شبكة من التعارضات والمآزق حين ذهب يبحث عن تفسير يسوغ من خلاله دونية السود وحيوانيتهم، فتعارض الحتمية الفلكية (الكونية) مع الحتمية الطبيعية البيلوجية، كما تعارضت هاتان الحتميتان مع الحتمية التوراتية التي تقول بسريان لعنة السواد والعبودية في ذرية حام بن نوح إلى أبد الآبدين.

ومن قبل ذلك ومن بعده، بقيت هذه الحتميات الثلاث في تعارض مع التجربة الملاحية فيما يتعلق بالساحل الأفريقي، أو توزيع البلدان بحسب نظرية الأقاليم السبعة التي استبقيت في العصر العثماني، وذلك على الرغم من مناقضتها الصريحة للخبرة

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب ص ٤٦٨.

الملاحية «وهي المناقضة التي لم تنتظر العهد العثماني للبيان ، بل التي كانت واضحة من أول أمرها»[1] . غير أنها استُبقيت لحاجة المتخيل العربي الإسلامي إليها ، هذا المتخيل الذي كوّن خزّانًا ضخمًا من الصور عن الآخرين بالاعتماد على هذه النظرية .

وهذه الحتميات الثلاث كانت تتعارض ، وبصورة صارخة ، مع شمولية الدين الإسلامي وتسامحه ، واحترامه لكرامة الإنسان دون إعتبار للونه وعرقه ولغته ، كما أن المنتجين لهذه الحتميات تجاهلوا الكثير من الإشكالات الدينية والكلامية المترتبة على الإيمان بهذه الحتميات ، وأبرز هذه الاشكالات مشكلة الجبر والاختبار ، أفعال العباد ، وما إذا كانت مخلوقة أو غير مخلوقة ، وأفعال الله تعالى وتنزيهه عن خلق الشرور وغيرها .

إن القول بأن الشمس أحرقت أبدان السود ، لا يمكن أن يُسلّم به إلا بعد الحسم في تلك الإشكالات الكلامية السابقة ، وأبرزها مسألة الفاعل القادر في هذا الكون ، فهل الذي فعل السواد في العباد : الشمس أم الله تعالى ؟

---

(١) العرب والبرابرة ص ٤٤.

فإذا كان الله تعالى هو الفاعل القادر الأوحد في هذا الكون ، فإن السواد من خلقه وتكوينه ، وعلى هذا فإن كان السواد شرًا منبوذًا فإن فعل الله غير منزّه عن خلق الشرور ، وإذا كان الله منزهًا عن خلق الشرور ، فمن الجحود النظر إلى السواد على أنه شرّ منبوذ .

وعلى هذه الرؤية ، فإن الشر والعبث والفساد والمعصية والفجور والظلم ، وكذلك الإيمان والطاعة وعمل الخير إنما هي من فعل العباد ، وما دامت هي من فعلهم وجب أن يجري عليها ما يجري على أي فعل اختياري من عقاب أو ثواب ، لكن ذلك لا يجري على صور البشر وألوانهم وهيئاتهم ، فليس من العدل أن يعذب الله سبحانه وتعالى : «العباد على طولهم وقصرهم وألوانهم وصورهم ، لأن هذه الأمور من خلقه فيهم ، فلو كان الكفر والفجور فعل الله لم يجز أن يعذبهم على ذلك ولا ينهاهم عنه ، ولا يأمرهم بخلافه ، فلما أمر الله العباد بالإيمان ونهاهم عن الكفر ، ولم يجز أن يأمرهم بأن يفعلوا طولهم وقصرهم وألوانهم وصورهم ، علمنا أن هذه الأمور فعل الله ، وأن الطاعة

والمعصية والإيمان والكفر فعل العباد»[1] .

إن المقصود بمثل هذا الجدول الكلامي عند الشريف المرتضى هم الجبرية الذين قالوا : إن أفعال العباد مخلوقة ، وإن العباد كالحجارة تقلب وتدحرج ، وكالأبواب تفتح وتغلق وإن لم تفعل شيئًا ، وهؤلاء لا يقولون بوجوب أن يجري الثواب والعقاب على ألوان البشر وصورهم ؛ لأنهم خلقة الله وتكوينه ، وما دامت هذه من خلقة الله وفعله ولم يجب عليها ثواب ولا عقاب ، فلزم أن يكون الكفر والإيمان من أفعال العباد لجريان الثواب والعقاب عليها .

وبهذه الطريقة يخلص الشريف المرتضى إلى الغاية المقررة سلفًا ؛ وهي أن أفعال العباد غير مخلوقة ، «ولو كانت مخلوقة لكانت من فعله تعالى ، ولو كانت فعلًا له لما توجه الذم والمدح على قبحها وحسنها إلى العباد ، كما لا يُذمون ويُمدحون بخلقهم وصورهم وهيئتهم»[2] .

وعلى هذا التصور ، فإن سواد أبدان البشر ليس شرًا ولا نقصًا

(١) الشريف المرتضي : رسائل الشريف المرتضي ص ٢٠٤.
(٢) المصدر ذاته ص ١٣٥.

ولا تشوهًا ، ولا يمكن النظر إليه على أنه كذلك ؛ لأنه من خلق الله وفعله ، وفعل الله منزّه عن الشر والنقْص ، وفيْ هذا نقض للحتمية التوراتية التي تقرن السواد باللعنة والعبودية والتشوّه ، كما أن فيها نقضًا جذريًّا للحتمية البيلوجية والفلكية معًا ؛ لأن سواد البشر من فعل الله ، فلا هو تشويه بفعل الشمس ولا هو نحس بفعل الكواكب ، إذ لا فعل للكواكب في أهل الأرض ، «وقد فزع المتكلمون من الكلام في أن الكواكب لا يجوز أن تكون فينا فاعلة»[1] .

لأن الفاعل لابد أن يكون حيًّا قادرًا ، وهي ليست كذلك بحسب قول المرتضى الذي يعضده بحجج كثيرة .

أما صورنا وهيئاتنا فهي من فعل الله ، وأما سواد الأبدان أو «الأُدمة ـ السمرة ـ فليست تؤثرها الشمس على الحقيقة في وجوهنا وأبداننا ، وإنما الله تعالى هو المؤثر وفاعلها بتوسط حرارة الشمس ، كما أنه تعالى هو المحرق على الحقيقة بحرارة النار ، والهاشم لما يهشمه الحجر بثقله ، وحرارة الشمس مسودة للأجسام من جهة معقولة مفهومة»[2] .

---

(١) المصدر ذاته ص ٣٠٢. (٢) المصدر ذاته ص ٣٠٤.

وهي إنما تفعل ذلك بتوسطها بين الله تعالى وهذه الأجسام ، وإلا فإن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، وأما الطبيعة فهي مسخرة لله تعالى «لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته»[1] .

وما دام الأمر كذلك ، لم يجز نسبة فعل الإحراق والتسويد للشمس على وجه الحقيقة ؛ لأن الفاعل على وجه الحقيقة هو الله تعالى ، وما دام سواد الأبدان من فعل الله وخلقه فهو إذن منزّه عن وصفه بالشر والنقص والتشوّه ، وحتى لو نسب فعل التسويد إلى الشمس فهي نسبة مجازية كنسبة الإحراق للنار ، ونسبة إلحادية كنسبة الإهلاك للدهر في قول من قال : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[2] ، وعبد القادر الجرجاني لا يعد هذه النسبة من المجاز ، بل هي كذب وجحود ؛ لأنها عند قائلها حقيقة ، «هي كذب وباطل ، وإثبات لما ليس بثابت ، أو نفي لما ليس بمنتف ،

---

(١) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ص١٠٦.
(٢) الجاثية : ٢٤.

وحكم لا يصححه العقل في الجملة بل يرده ويدفعه ، إلا أن قائله جهل مكان الكذب والبطلان فيه أو جحد وباهت»[١] .

أما أبو حامد الغزالي فإنه يعد الدهريين والطبيعيين من الزنادقة[٢] ، والسبب أن الفاعل الحقيقي في هذا العالم هو الله تعالى فهو الحي القادر ، ومن ليس له هذه الصفات لا يُمكن أن يؤثر في وجود الأشياء والحوادث ، فقد «كان العقل قد بين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة استحالة أن يكون لغير القادر تأثير في وجود الحادث ، وأن يقع شيء مما ليس له صفة القادر»[٣] .

على الرغم من النقض الجذري الذي قام به مثل هذا الجدل الكلامي لجملة الحتميات الثلاث «الفلكية ، والبيولوجية ، والتوارثية» ، إلا أن هذا الجدل بقي في إطاره النظري الحجاجي ، ولم يتعمّق في وجدان المجتمع ، بل لم يتعمق ـ أو قل تجاهله ـ في حقول المعرفة المختلفة من جغرافيا وفلك وطب

(١) أسرار البلاغة : ص ٣٣٢.
(٢) انظر المنقذ من الضلال ص٩٦ـ ٩٧.
(٣) أسرار البلاعة ص ٣٢٥.

وعلم البحار وعلم الحيوان والفلسفة وغيرها، ويمكن أن ندلل على ذلك من خلال تحليل «صورة السود» واستكشاف دلالاتها المتناثرة في نصوص واحد من أعظم المؤلفين في الثقافة العربية الإسلامية، وأكثرهم إنتاجا في حقول الأدب وعلم الكلام، والحيوان، والسياسة، والاجتماع، ومن الأوائل الذين وضعوا هذه الثقافة على بداية مرحلة خطيرة من التعارضات وصراع الأضداد، ومن أكثر الكتاب استعانة بالوجوه البلاغية كالتشبيه والتمثيل والاستعارة والسخرية والالتباس والمفارقة والمبالغة، كل ذلك من أجل إقناع الآخرين بدونيتهم وانحطاطهم وحيوانيتهم.

ذلك هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٠-٢٥٥هـ) الذي توفي قبل اندلاع «ثورة الزنج» بشهور، وهي الثورة التي أثارت قلقًا في الدولة العباسية استمرّ أربعة عشر عامًا، وذهب ضحيتها من القتلى ما قدّر بمئات الألوف من القتلى، وهي ذاتها الثورة التي خرّبت في العام ٢٥٧هـ، البصرة موطن الجاحظ ومسقط رأسه.



الجاحظ والسودان : بلاغة التمثيل وجدلية الفخر والهجاء

يعد الجاحظ واحدًا من أبرز الكتاب في الثقافة العربية الإسلامية ، وأكثرهم غزارة في التأليف في العصر الوسيط ، وأكثرهم التصاقًا بقضايا المجتمع وما يجري لمختلف طبقاته ومراتبه ، ولذا فإنه أوضح من يمثّل طبيعة الكتابة عن الآخرين ، وطريقة النظر إليهم في تلك الفترة التاريخية التي تفجرت فيها العصبيات الثقافية والمفاخرات ، والمثالب بين ثقافات مختلفة ، وهذا على الرغم من انصهار بعضها في نسيج الثقافة العربية الإسلامية ، وإن ظل بعضها لم ينصهر كلية في هذا النسيج الموحد .

وقد أسهم الجاحظ في إثارة الجدل حول هذه النزاعات ، وانخرط في كثير من المفاخرات والمثالب ، فألف عدة كتب

ورسائل في هذا الشأن من بينها «مناقب الترك» و«فخر السودان على البيضان» و«العرب والموالي» .

لقد كان الجاحظ خاضعًا لتجاذبات قوية من قبل ذاكرتين بقيتا تتنازعان داخله دون حسم أو تسوية لصالح إحداهما ، فمن جهة أولى ، لا يبدو الجاحظ فخورًا بانتمائه إلى السود الذين هجاهم هجاء مقذعًا في أغلب كتبه ورسائله وما عدا رسالة «فخر السودان على البيضان» ، وهي رسالة لها خصوصية سنتعرض لها لاحقا ، ويبدو أن حضور ذاكرة الجاحظ الفردية القريبة في وعيه كان يجلب لها التصاغر ، وهو ما يقود إلى رغبة في التجاهل أو النسيان أو الإنكار لهذه الذاكرة ولهذا الأصل ، ومما يروى عن الجاحظ قوله : «نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى عرفني أهلي»[1] .

كانت مؤلفات الجاحظ تتضمن ذاكرتين متعارضتين ، ذاكرة السودان الأقلية المهمشة ، وذاكرة العروبة والإسلام المهيمنة ، وقد تنبه كثيرون إلى هذا التعارض أو الازدواج الحاصل في معظم مؤلفات الجاحظ .

---

(١) محمد أحمد الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٥٢٧.

إذ سواد الزنجي هو الأصل ، وكل أسود غيره سيكون فرعًا وتابعا له ؛ ولذا فعند حديث الجاحظ عن أي حيوان أسود ، يصبح استحضار الزنجي أمرًا لا مفر منه ، حتى لو كان هذا الحيوان الأسود هو الأصل في السواد كالغراب .

لا تقف حدود التشبيه والتمثيل بالزنجي عند الجاحظ عند هذا القدر ، وهو لا يقيد حريته في الكتابة عن الزنج والسود بأي قيد ، وحين ندقق علاقة الجاحظ بالزنجي نكتشف أن الاقتران المعقود في مخيلة الجاحظ ، ليس بين الزنجي والحيوان الأسود فحسب ؛ بل هو اقتران عام بين الزنجي والحيوان ، كما لو كان الزنجي حيوانًا من الحيوانات ، أو شيئا عديم القيم بين الأشياء .

يضع الجاحظ العقل واللسان والبيان والتبين في مكانة خاصة ، فهي التي تميز بين الإنسان والحيوان ، فالإنسان حيوان ناطق بياني ، في حين أن الحيوان كائن حي أعجم فاقد للبيان والتبين ، وفي اعتقاد الجاحظ يعدّ اللسان «اللغة» أو البيان واحدًا من أهم الأنساق الثقافية التي تجعل من الإنسان إنسانًا ، وهو اعتقاد ليس خاصًا بالجاحظ يجعل من الإنسان إنسانًا ، في هذه

الثقافة ، إنما هو تمثله للأعراف والتاريخ والفن والعادات والتقاليد ، وهو اعتقاد أسهم في إخراج السود من حظيرة الإنسانية ، وفي اعتبارهم صورًا ممثلة أو بهائم مهملة .

لم يكن الجاحظ في نظرته إلى السود والزنوج يختلف عمن عاصره أو جاء بعده ، فالسود والزنوج عنده وعند الآخرين بهائم أو سباع متوحّشة وهم عراة وحمقى ، غير أن الذي يثير الإشكال في موقف الجاحظ من السود والزنوج هو أنه صاحب أول رسالة تؤلف في الفخر بالسودان وتفضيلهم على البيضان .

واضح كيف أن الأمر لا يتطلب أكثر من قلب للحجة والقياس ، وقوة الحجة وصحة القياس لا تتطلبان وجود موضوع الحجة والقياس في الواقع بقدر ما تتطلب قوة برهانية واستدلالية واقناعية ، أما سلامتها الافتراضية فيمكن البرهنة عليها من خلال وسائل الجدل والمغالطات ، والجاحظ أوفر من حاز هذه الصفات ، فهو جدلي واسع العلم بالكلام وكثير التبحّر فيه ؛ ولذا لم يتعذر عليه تحويل الدليل وقلب القياس وتحريف البرهان لصالح ما يريد أو ما يطلب منه ، حتى لو تعارض هذا مع ما سبق أن قرّره

وجزم بصحته ، والدليل على هذا التعارض تفسير الجاحظ لسواد البشر .

فرأي الجاحظ فيما عدا رسالة «فخر السودان على البيضان» ، أن سودان البشر إنما كانوا مشوّهين وفاسدي المزاج والتكوين بسبب حرارة الشمس التي أحرقت جلودهم وعقولهم ، وأفسدت مزاجهم وتكوينهم ، غير أن هذا التفسير يجب تعديله ليتناسب مع مناقب السودان ، و من هنا سوف يرفض الجاحظ الحتمية الدينية ذات الأصل التوارتي والتي تذهب إلى أن سواد السودان إنما كان لعنة إلهية ، وتشويهًا لهم بسبب دعوة صدرت من نبي الله نوح على ابنه حام ، لكنه سيبقى متبنيًا للحتمية الطبيعية التي جعلت سواد السود قدرًا لهم لقرب بلادهم من الشمس ، غير أن هذا التبني يستوجب دحض مفاهيم التشويه والاعتدال ، ودحض الأحكام القيمية التي اقترنت بهذه المفاهيم ، وهذا ما فعله الجاحظ .

وعلى هذا سيكون سواد السود من فعل حرارة الشمس وقرب بلادهم منها ، لكن هذا السواد لا يستلزم دلالة انتقاصية ،

وهذا القرب من الشمس لا يستوجب معالجته مفاهيم التشوّه ، وفساد التكوين ، والمزاج والمسخ والعقوبة الإلهية .

يقول الجاحظ على لسان السودان :

«إن الله تعالى لم يجعلنا سودًا تشويهًا بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا ، والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سودًا ، وكل من نزل الحرّة ، والسواد والبياض إنما هما من قِبَل خلقة البلد ، وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قِبل قرب الشمس وبعدها ، وشدّة حرّها ولينها ، وليس ذلك من قِبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير» .

وعلى هذا الفهم ليس للسواد قيمة سلبية ، كما ليس للبياض قيمة إيجابية ، فما إفراط سواد السودان إلا كإفراط بياض البيضان ، وإفراط حمرة الحمران ، وكذلك إفراط السُّمرة المتولدة بين هذه الألوان والتي جعلها الجاحظ فيما سبق اللون الأصفر الخاص بأهل إقليم بابل ، وانطلاقًا من تصنيف البشر على أساس ألوانهم ، سوف يتمكن الجاحظ من إثارة أبرز أشكال الجدل العقلي في هذه الرسالة ، وذلك حين تعرض لشرح الحديث الذي

روي عن الرسول ﷺ، وهو قوله: «بُعثت إلى كل أحمر وأسود».

أن الرسول ﷺ بُعث إلى الناس كافة، وبحسب نص الحديث فإن الناس لا يخرجون عن هذين الوصفين، فإما أن يكونوا سودًا، وإما أن يكونوا حُمرًا، فإذا كان السواد وصفًا مقصورا على الزنج وغيرهم من أجناس السود، فإن الرسول ﷺ قد بُعث إليهم حين عناهم بقوله: «الأسود»، فبقى إذن تحديد الصنف الثاني المقصود بالبعثة وهو الأحمر، كما بقي تحديد إلى أي الصنفين ينتمي العرب الذين بُعث النبي ﷺ فيهم أول ما بُعث.

«فإن كانت العرب من الحُمر، فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة، وفارس وخراسان، وإن كانت من السود، فقد اشتقّ لها هذا الاسم من اسمنا، وإنما قيل لهم وهم أُدمٌ وسُمرٌ سُودٌ، حين دخلوا معنا في جُملتنا، كما يجعل العرب الإناث من الذكور ذكورًا»[1].

---

(١) فخر السودان على البيضان ص ٢١٠.

وهذه المماثلة بين السود والذكور ، وبين العرب والإناث ، إنما كانت تذهب إلى جعل العرب تابعين للسود بقصد البعثة ، فإذا لم يكن العرب حُمرًا ؛ فإنهم إما أن يكون خارج قصد البعثة من حيث إنهم لا حمر ولا سود ، وإما أن يدخلوا في عداد السود ، وعلى هذا الوجه الأخير سيكون الزنج هم السود الخلّص المقصودين بالبعثة وبالأصالة ، والعرب أشباه الخلّص المقصودين بالتبعية .

إن حديث الجاحظ عن الخلّص وأشباه الخلّص سوف يكشف العلاقة الخفية بين هذه الرسالة وبين رسالته في «محاجّة الصرحاء والهجناء» ، كما سوف يكشف السبب الذي حمل ذلك الشخص الذي قرأ هذه الرسالة الأخيرة على أن يطلب من الجاحظ أن يكتب له رسالة عن مفاخر السودان .

فالجاحظ قد تحدث في رسالة «محاجة الصرحاء والهجناء» عن السود ، وهو يقصد بهم العرب أو السود أشباه الخلّص بحسب تعبيره في رسالة «فخر السودان على البيضان» ، فهل كان الجاحظ يقصد الجمع بين العرب والسود الذين لم يتحدث عنهم في «محاجة الصرحاء والهجناء» ؟

وهل أخر الجاحظ الحديث عن السود الخلّص متعمدًا كما يقول ؟ أم أنه أُحرج حين تنبّه شخص إلى قصده ؟ هل أراد الجاحظ أن يردّ عن نفسه أية شبهة باتهامه بالشعوبية وذلك حين جمع بين العرب والسود ؟ فقد كان وصف العرب بالسواد من وسائل الشعوبيين للانتقاص من شأن العرب ، وزراية بالإسلام ، حيثُ إنهم ربطوا بين الإسلام والسواد ، وكانوا يصفون الإسلام بأنه «الدين الأسود» ، والمجوسية بأنها «الدين الأبيض»[1] .

وقد سبق (لابن غرسية) وهو أحد الشعوبيين من نصارى الأندلس ، أن وازن بين العرب والعجم ، ففخر ببياض العجم على سمرة أو سواد العرب ، كما عقد مقايسة بين هاجر القبطية أم إسماعيل وأم العرب العدنانيين ، وبين سيدتها سارة أم العجم ، وبعض الشعوبيين وصف هاجر باللخناء ، «وبنو اللخناء عندهم : العرب ، لأنهم من ولد هاجر وهي أمة»[2] .

إذا كان العرب يرجعون إلى إسماعيل وهو ابن هاجر

---

(١) انظر السود والحضارة العربية ص١٦٥-١٦٦.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ص٣٥٧.

القبطية ، فإن العرب يمتّون بسبب قوي إلى السود الحاميين ؛ لأن القبط بحسب المؤرخين العرب ، من ذرية حام بن نوح ، فهم أولاد قوط بن حام ، أو مصرام بن ينصر بن حام بن نوح ، والجاحظ نفسه ينقل أن «القبط جنس من السودان ، وقد طلب منهم خليل الرحمن الولد ، فولد منهم نبي عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه السلام ، وطلب النبي ﷺ منهم الولد ، وولد له إبراهيم ، وكنّاه به جبريل»[1] .

وعلى هذا أيضا سيكون السود هم الحاميين الخلّص ، في حين أن العرب هم السود الحاميون أشباه الخلّص ، فهل كان الجاحظ يهدف إلى هذا المغزى حين قرن بين السود الخلّص وبين العرب السود أشباه الخلّص ؟ وهل كان الشخص الذي قرأ «محاجة الصرحاء والهجناء» قد تنبه إلى هذا المعنى ، فأراد أن يستجلي رأي الجاحظ ، أو أن يحمل الجاحظ على الفصل بين العرب والسود ؟

وهل كانت رغبة هذا الشخص صادقة أم كان يحتال على الجاحظ ويغشه وينصب له شراكه وفخاخه ؟ وهل تنبه الجاحظ

(١) فخر السودان على البيضان ص٢١٨.

إلى قصد هذا الشخص حين خاطبه بقوله : «وذكرت ـ أعاذك الله من الغش ـ كتابي في محاجة الصرحاء للهجناء» ؟ هل استجاب الجاحظ لهذا الطلب خوفا من الاتهام بالشعوبية ، وهو الذي نقل قصيدة الحيقطان التي كانت «تحتج بهما اليمانية على قريش ، ويحتج بها العجم والحبش على العرب»[1] .

هل حقق الجاحظ رغبة ذلك الشخص حين قرن بين السود والعرب في رسالة «فخر السودان على البيضان» كما قرن بينهما من قبل في رسالة «محاجة الصرحاء والهجناء» ؟ ثم هل كانت هذه الرسالة جادّة وصادقة وذات مدلولات واقعية وتحريضية ؟ وهل لهذه الرسالة دور في تفجّر «ثورة الزنج» في شهر رمضان من العام ٢٥٥هـ ، بعد وفاة الجاحظ في محرم من العام ذاته ؟ أم أن الغرض منها لم يتجاوز إثبات القدرة الحجاجية والقوة الجدلية عند الجاحظ ، وذلك بالاستفادة من كل ما حضره من مفاخر السودان ؟

قد نجيب عن هذه الأسئلة بالنفي أو الإيجاب ، لكن أيًّا من النفي والإيجاب لن يحسم جملة التعارضات الحاصلة في ذاكرة

(١) فخر السودان على البيضان ص ١٨٢.

الجاحظ وكتاباته التي بقيت في تنازع دائم بين طرفين متعارضين : بين فئات المجتمع المهّمشة ونخبه المهيمنة ، بين الأمم المنحرفة عن الاعتدال ، والأمم المعتدلة ، بين السود والعرب ، بين العرب والموالي ، بين العرب والعجم ، بين الصرحاء والهجناء ، وبين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وبين القحطانية والعدنانية ، بين الزيدية والعثمانية ، بين البخلاء والكرماء ، لقد تفنن الجاحظ في ذكر مناقب الترك والعدنانية والقحطانية والعرب والموالي البيضان والحمران والسمران ، فقد كتب كتابًا في مفاخرة قحطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف[1] ، وكتب في الرد على النصارى .

وفي سياق هذه الاحتجاجات لفضل أمة من الأمم أو لنقصها ، كان الجاحظ ـ مع استثناءات قليلة ـ يموّه على القارئ ، كان كمن يخلط الكلام في الخفاء بينه وبين الآخرين ، وذلك ليواري آراءه واعتقاداته خلف حشد من أقوال الآخرين ، بحيث

---

(١) الجاحظ : رسالة النابغة : رسائل الجاحظ ص ٢٢.

يختلط رأيه بآرائهم ، وقوله بأقوالهم ؛ لئلا يكون من السهل التعرف على آرائه واعتقاداته بصورة جازمة حاسمة .

وعلى سبيل المثال فإن الجاحظ في رسالة «فخر السودان على البيضان» لم يكن يتحدث باسمه إلا في افتتاحية الرسالة وخاتمتها حين كان يخاطب ذلك الشخص المجهول بصورة مباشرة بضمير الفرد المتكلم ، يقول في الافتتاحية :

«تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته ، أعاذك الله من الغش ، أنك قرأت كتابي في محاجة الصرحاء للهجناء ، وردّ الهجناء ، وجواب أخوال الهجناء ، وإني لم أذكر شيئًا في مفاخر السودان ، فاعلم حفظك الله أني إنما أخرت ذلك متعمدًا ، وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخرة السودان ، فقد كتبت لك ما حضرني مفاخرهم»[1] .

ويقول في خاتمة الرسالة «فهذا جملة ما حضرني من مفاخر السودان ، وقد قلنا قبل هذا في مفاخر قحطان ، وسنقول في فخر

---

(١) المصدر نفسه ص١٧٧.

عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله»[1] .

لم يتحدث الجاحظ بضميره الخاص وبصورة صريحة إلا في هذين الموضعين من الرسالة ، أما في تضاعيف الرسالة فقد كان كعادته في أغلب مؤلفاته ، ينسب القول إلى غيره ، وهنا إلى السود أنفسهم ، فكل المفاخر التي أثبتها في رسالته إنما كانت مسبوقة بـ«قالوا» ـ أي السود ـ وقلنا ـ نحن السود ـ وقالت السود . فالسود هم الذين يتحدثون ، وهم الذين يفاخرون بأنفسهم ، في حين أن القول قول الجاحظ ، والأسلوب أسلوب الجاحظ ، بدليل تكراره في مواضع مختلفة من كتبه منسوبة إليه مرّة وإلى غيره من غير السود مرةً أخرى .

وسواء تكلم الجاحظ باسمه أم باسم الآخرين معروفين أو مجهولين ، فإنه في أغلب المواضع لم يذكر السود والزنوج بخير ، ولم يأتِ على فضيلة من فضائلهم أو مفخرة من مفاخرهم إلَّا ما جاء على لسان السود أنفسهم في مفاخرتهم على البيضان ، وحتى في هذه المفاخرة لم يتورّع الجاحظ عن بلاغته المعهودة في

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٥.

المماثلة بين الزنوج والحيوانات ، فقد شبه الزنج بالكلاب في طيب الأفواه وريقها .

وإذا كان لهذه الرسالة من قيمة لصالح السود ، فلكونها تمثّل المحاولة الأولى التي سمح فيها للسود بالحديث بضميرهم الخاص ، وهي الرسالة التي احتفظت بأهم ثلاثة قصائد ساخطة لثلاثة من شعراء السود الغاضبين : سُنيح بن رباح ، وعكيم الحبشي ، والحيقطان .

لقد كانت رسالة الجاحظ بمثابة الفرصة الأولى التي يمثل السود أنفسهم بأنفسهم ، ومن ثم يثبتون أمام الآخرين أنهم قادرون على تمثيل أنفسهم ووصف ذواتهم واستعراضها والمفاخرة بها ، وذلك بعد قرون ، وقبل قرون مديدة أيضًا ، من «مؤامرة الصمت التي قد ضربها الكتاب العرب عليهم»[1] وعلى صوتهم ، وذلك منذ أن أعتبر هؤلاء الكتاب ثقافتهم صاحبة الحق والامتياز في تمثيل الآخرين والكتابة عنهم ، وخصوصًا إذا كان هؤلاء الآخرون عاجزين عن تمثيل أنفسهم كما هو شأن السود

---

(١) السود والحضارة العربية ص ٢٠١.

الذين جُردوا في هذه الثقافة من أهم أدوات تمثيل الذات وأخطر وسيلة من وسائل وصف الآخرين ، وهي الكتابة واللغة ، فما دام كل ما عندهم إنما هو (دمدمة وهمهمة) كدمدمة البهائم وهمهمة السباع ، وما دامت خطبهم لا ترتفع عن أقدار الدواب ، فهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم ، وما داموا كذلك وجب إذن تمثيلهم والكتابة عنهم .



السود في الخطاب الإسلامي

أ ـ الإيمان :

لقد مزج التصور القرآني للشعوب ، ولعلاقاتها ببعض ، بين الوحدة والتنوع ، فهناك أرومة واحدة تجمع البشر ، وأصل واحد ينطلقون منه ، كما أن هناك تنوعًا عميقًا داخل هذه الوحدة ، وقد قابل هذا التصور النظري اعتراف عملي بالتنوع (العرقي والديني والثقافي) الذي زخرت به دار الإسلام وانطوت عليه ، فلم ير المسلمون فيه عائقًا للوحدة ؛ في المقابل هناك تنوع واختلاف بينهم وبين الآخر لم يدفعهم إلى القطيعة أو الحذر من التواصل ؛ لأنهم تعلموا من الإسلام أن هناك بالأساس اختلافًا بين الكائنات والناس واللغات والأديان ، وهو شرط للتعاون ، فالله خلق البشر من ذكر وأنثى ، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[1] . وأيضًا

(١) النجم : ٤٥.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[1] . ودينيًا قال : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2] . وخلقهم مختلفين ليتعارفوا ، إذ ناداهم بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3] . وهذا الاختلاف بين الشعوب يبدو ضروريًّا في هذا التصور ، لإغناء التجربة البشرية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[4] .

وقد كان الناس في الأصل أمةً واحدة ، تفرع النوع عنها ، حيث مرجعها جميعا إلى آدم ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ﴾ . ثم تفرقت إلى شعوب ، إلا أن هذا التفرق يجب ألا ينسينا ما يجمع بيننا من وحدة ، فقد أتى الإسلام كتذكرة واستعادة غير

---

(١) الروم : ٢٢.
(٢) التغابن : ٢.
(٣) الحجرات : ١٣.
(٤) الحج : ٤٠.

مسبوقة لهذه الوحدة ، التي يذخر بها هذا التنوع وذكّر الجميع أن مجال التفاخر الوحيد هو طريق التقوى ، وليس التفاخر بالأنساب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ .

وقد ذكر نبينا محمد ﷺ في خطبة الوداع : «يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى» . شملت هذه الدعوة إلى المساواة والأخوة الإنسانية ، بما فيهم البيض والسود ، فالفضائل تأسست هنا على قاعدة قرابة الفرد إلى الله وإلى جماعة المؤمنين ، عن طريق إظهار ورعه وتقواه ، أما اللون والجنس والمراتب الاجتماعية ، فهي مسائل ثانوية أمام هذا القياس الجديد للقيمة .

فقد تبوأ الكثير من الشخصيات السوداء أو الحبشية في العهدين النبوي والراشدي ، مرتبة روحية فائقة في إطار تاريخ نهضة الإسلام الروحية والخلقية ، واحتلت مركزًا صلبًا للغاية داخل الجماعة المؤمنة ، وأضحت رموزًا لا يُستغنى عنها في الرواية

الدينية لبزوغ الإسلام ، لما في السيرة النبوية ، أمثال (بلال) مؤذن الرسول ﷺ ، وسعيد بن جبير الذي قال فيه الناس : «كلنا محتاج إليه» و(عطاء بن رباح) ، وآل ياسر الذين خاطبهم النبي ﷺ أثناء اضطهاد قريش لهم : «صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة» ، وهؤلاء كانوا جميعهم عبيدًا عند قريش ، آمنوا بالإسلام ، ودفعوا ثمنًا باهظًا دفاعًا عن إيمانهم أمام اضطهاد قريش لهم ، قبل أن يتحرروا .

لقد تكررت تلك النزعة المساواتية ، التي آخت بين السود وغيرهم ، عن طريق التأليف النظري ولا سيما عند أبرز الفقهاء المسلمين ، الذين عكسوا وجهة النظر الدينية تجاه السود والجنس الأسود ، ولا سيما الأحباش الذين كانوا الأسبق في الاحتكاك بهم من غيرهم من السود ، ومن أبرزها : «تنوير الغبش في فضل السودان والحبش» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ - ١١٩٣م) و«رفع شأن الحبشان» ، للإمام السيوطي (٩١١-١٥٠٥م) .

وكان الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ) قد ألّف رسالة باسم «فخر السودان على البيضان» ، أبرز فيها فضائل السود ومحاسنهم

وصفاتهم الإيجابية ، وتبعه ابن المرزبان في الحقبة نفسها برسالة «فضل السودان على البيضان» .

فالسيوطي ينسب إلى النبي ﷺ قوله : بأن «الخلافة في قريش ، والحكم في الأنصار ، والدعوة في الحبشة»[١] ، فالدعوة التي تُنسب وظيفتها هنا ، إلى السود الأحباش هي شأن خطير في الدين الإسلامي ، تتعلق بمصير ذاته ، وبمدى انتشاره ، وبالدعوة يرتبط مباشرة (الأذان) الذي لابد أن يذكّر الجميع بمؤذن الرسول ﷺ ، الحبشي الأسود (بلال) ، فالوظيفتان الأساسيتان في مسجد المدينة المنورة كانتا (الإمامة) و(الأذان) ، الأولى لرسولنا الكريم ، والثانية لبلال بن رباح الحبشي ، وله الفضل في الأذان فوق الكعبة ، كما أنه أذن في بيت المقدس عند دخول المسلمين إليها في عهد عمر بن الخطاب[٢] .

ويروى أن النبي ﷺ قال لرجلين ، أحدهما حبشي وثانيهما قبطي ، كانا يتنابذان ، ويعيّر أحدهما الآخر بجنسه : «إنما أنتما

(١) جلال الدين عبد الرحمن (السيوطي) . رفع شأن الحبشان ص ١٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩.

من آل محمد»[1] . ناكرًا التفرقة التي يعلنونها لصالح إخوة الإيمان الإسلامي .

وروى المحدثون أنه عندما دخل المسلمون مكة فاتحين ، أذّن بلال على ظهر الكعبة ، فقال بعض الناس ـ يستكثرون الأمر على بلال ـ : (هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ! ؟) فأنزل سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ .

ب ـ العمران والحضارة :

لم تقتصر نظرة العربي المسلم إلى الآخر الأسود على المقياس الديني وحسب ، بل اتخذ له معايير أخرى ، في مقدمتها المعيار العمراني ـ الحضاري ، فواقع التنوع الثقافي والقومي الذي زخر به الاجتماع السياسي الإسلامي ، والمفاهيم المساواتية الدينية وقبولها لفكرة التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب دينيًا ، وللأجناس الأخرى العجمية ، أفضت إلى سيادة موقف نسبي من الآخر

(١) المصدر نفسه ص١٣٨.

الداخلي ، ومن ثم الآخر الخارجي ، والمبدأ الأساسي الذي وجه تلك النظرة النسبية إلى الآخر ، داخلية كانت أم خارجية ، هو أن الفضائل والمثالب موزعة على الأمم ، لا تخلو منها أمة من الأمم[1] .

لهذا نجد أمامنا الكثير من كتب الجغرافيا الإقليمية : المسالك والممالك ، والمصنفات البلدانية ، ولا سيما تلك التي اختصت بدراسة وصفية للجغرافية البشرية لإقليم أو لمدينة معينة ، تحت اسم «كتب الفضائل» ، اهتمت كلها بإبراز مميزات كل إقليم وما يحتوي من فضائل ومثالب تميزه عن الأقاليم والمدن الأخرى .

لقد أدرك الجغرافيون العرب ، أصحاب المصنفات الأخرى الفروق الداخلية ضمن دار الإسلام ؛ وأعطوا لكل إقليم من أقاليمهم صفة خاصة ، ومهروا في تعقب معرفة الخصائص التي تميّز هذا الإقليم عن ذاك ، ثم نقلوا هذه المنهجية وطبقوها في دراساتهم على الأمم الأخرى خارج دار الإسلام ، فاتسمت وجهتهم بالنسبية الحضارية ذاتها ، إذ بينوا ما تملكه كل أمة من

---

(١) الظاهر لبيب : الآخر في الثقافة العربية ص ٢١.

الأمم ، الأبرز في العهد الوسيط ، من جوانب حضارية وعمرانية خاصة ، بالإضافة إلى ما تملكه من خصائص سلوكية ، ولعل هذا التصور النسبي ـ التكاملي للحضارات الكونية يعود جزئيًا إلى النظرة الدينية المساواتية ذاتها ، التي يتعايش فيها الاختلاف مع الوحدة .

ولقد تكاملت هذه النزعة السلوكية ، ذات المنابع الإسلامية ، بنزعة إنسانية عند أبرز ممثلي الثقافة العربية في القرن الثالث والرابع الهجريين ، كالجاحظ والتوحيدي ومسكويه ، الذين لخصوا وجهة نظر الثقافة العربية تجاه الآخر ، وأتى الجغرافيون والرحالة ليضيفوا على هذه النزعة الطابع العملي والواقعي ، وذلك في دراستهم للأقاليم ، إذ أعطوا لكل إقليم سمة خاصة تجمع فضائله ومثالبه ، ولم ينسوا ما يشتهر به من فاكهة وحيوان ، ونقلوا هذا المنهج بدورهم إلى دراساتهم للأقاليم خارج دار الإسلام .

ج ـ العامل السياسي والاجتماعي والتاريخي :

كان للعامل السياسي ، وأيضًا الاجتماعي والتاريخي ، أدوار أخرى في تلوين صورة الأسود في المخيلة العربية ، فإلى جانب صورة النجاشي الزاهية الحامي لهجرة المسلمين الأولى ، ولخطاب

المساواة الإسلامي الذي ساوى بين الأبيض والأسود ، وربط خط النجاة بالتقوى ، هناك في المقابل حوادث صادمة للذاكرة العربية القديمة ، ويأتي في مقدمة الحوادث الصادمة للذاكرة العربية القديمة ، استعمار الحبشة القديم لليمن ، ومحاولة غزو أبرهة الحبشي للكعبة في عام الفيل ، بالإضافة إلى تأثير الموقع الاجتماعي الذي اتخذه السود في الحياة الاجتماعية العربية ، حيث اختلطت صورتهم بصورة الرقيق ـ العبد الذي يقف في أسفل السلم الاجتماعي .

إذ لا تزال تتردد في الذاكرة العربية عملية القهر الحبشي لأبناء اليمن ، وانطلاقهم عبر اليمن إلى نجران ، ثم تواصل هجومهم بقيادة أبرهة على مكة ، فيما يذكر العرب بعام الفيل ، وهو عام (٥٧٠ـ٥٧١م) الذي ولد فيه نبينا محمد ﷺ ، ثم كانت ثورة يوسف بن ذي يزن اليمني على الأحباش ، وهو الذي تحول مع الأيام إلى بطل للسير الشعبية التي تحمل اسمه ؛ وإلى جانب عنترة الأسود البطل المجيد في السيرة الشعبية الأخرى ، وهاتان الصورتان تعكسان التجاذب السلبي والإيجابي في أحكام العرب عن السود ، وهو يظهر جليًا في التقابل الذي تحتويه صورتا النجاشي وأبرهة

الحبشي المتناقضتان في الوجدان العربي الإسلامي .

يضاف إلى ذلك تكاثر ظاهرة الرق ، الذين كان أغلبهم من السود إلى جانب العبيد البيض المجلوبين من أوروبا ، ولا سيما أوروبا السلافية والبلقانية ، حيث احتل السود من العبيد المكانة الدنيا في السلم الاجتماعي الإسلامي الجديد ، بعد أن أصبح للعرب إمبراطورية كونية تمتد من الصين إلى حدود فرنسا ، فإنه وخارج المثال القرآني الذي ضّيق نطاق هذه الظاهرة إلى أبعد الحدود ، وحض على التحرر منها ، فقد تكاثرت وتزايدت أعداد الرقيق وتجارتهم إلى حد كبير ، فإن توسع العمران ومظاهر الحضارة والسلطان عمّق النزعة الدنيوية على حساب النزعة الدينية والمثال القرآني ، صار الرق من جراء ذلك مكونًا أساسيًّا من مكونات الاجتماع السياسي الإسلامي ، وإن كان قد غلب على هذا الرق الطابع المنزلي .

ولكن هذه الظاهرة تطورت بطريقة لا تتفق مع المثال النبوي الإسلامي عن المساواة والأخوة البشريين ، صحيح أن الإسلام لم يحرّم ظاهرة الرق على الإطلاق ، إلا أن القرآن والحديث النبوي شجعا على إبطال هذه الظاهرة إن كان على طريق حصره في باب

واحد ، وهو الناتج عن الحرب ، أو في اعتبار تحرير الرق (الرقبة) نوعًا من العبادة أو الكفارة عن الذنوب .

لكن سياق الحياة الاجتماعية الإسلامية ابتعدت عن صورة المثال ، حيث تغلغل الرق في مصادره الأفريقية والأوروبية في الحياة العربية الإسلامية ، حتى إنه دخل في سوق البيع والشراء ، وتجاوز النوافذ الشرعية ، إلا أن نشاط هؤلاء الرقيق قد غلب عليه الطابع المنزلي ، مع استثناءات قليلة ، وهو ما نشاهده من استخدام للزنج في سواد البصرة بشكل كثيف ، لاستصلاح الأراضي .

ومن السمات المميزة الأخرى للرق في البلاد العربية ، هو أنه كان أساسًا من مظاهر البذخ ، بينما كان له في الأمريكتين (أساس اقتصادي وطيد ، إذ كانوا يجلبون الرقيق أساسًا للعمل في المزارع التجارية ، لذلك فإن الزنوج في الشرق قد امتصوا في السكان المحليين ، كما أن اعتناقهم الإسلام يحل أية مشكلة اجتماعية)[١] .

فضلًا عن ذلك ، فإن النخب المملوكية التي حكمت مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية ما يقارب ثلاثة قرون ، وورثوا السلاطين

---

(١) تاريخ الجغرافيين في الأندلس ص ٢٣١.

الأيوبيين ، كانوا في الأساس رقيقًا استجلبوا من البلقان والقوقاز ، تم دمجهم في الجيش بعد اعتناقهم الإسلام ، وارتقوا في سلّمه حتى وصلوا إلى مواقع القيادة العسكرية والسياسية والسلطان .

لقد احتلت الوجهة الدينية الإسلامية الموقع الأعلى في القبّة الثقافية التي هي منبع القيم والأحكام والمعايير ، وشاركها في المزاحمة على الاستحواذ على المرجعيات المسيطرة والموجهة المعيار الإقليمي أو الفلكي أو السلالي ، بالإضافة إلى تأثير العوامل الاجتماعية السياسية ، فضلًا عمّا يخلقه الجهل لبعض العوالم من ضرورات لملئها بالتصورات الممكنة ؛ إلا أن العرب بما فيهم جغرافيوهم ورحالتهم ، لم يرسموا حدودًا ثقافية فاصلة تفصلهم عن السود ، فالعالم الجغرافي الذي يفصلهم عن السود : الصحراء الكبرى ، البحر الأحمر(القلزم) ، شلالات النيل ، يبدو مفتوحًا على عالم مألوف لديهم ، يجدون فيه نقاطًا وبقاعًا يتجاوز فيها المهاجرون العرب «تجارًا ورجال دين» مع السود «المسلمين والوثنيين» ، وعندما أطلقوا صفة «وحشية» على بعض الجماعات السوداء ، فقد عنى هذا المفهوم لديهم ما يقابل مفهوم «العمران» ، فالتوحش نفسه وجده جغرافيونا ومؤرخونا في ديار الإسلام

نفسها لدى الجماعات البدوية ، ولم يروجوا لمركزية عرقية ، حيث أعطوا البيئة المكان الأول في التأثير في اللون ، وكما قال ابن حوقل مكررًا قول الكندي : «إن البيضان إذا تناسلوا في بلد السودان سبعة أبطن عادوا في سحنتهم وبسوادهم ، وإذا توالد السودان في بلد البيضان سبعة أبطن ، عادوا في صورتهم وخلقهم من البيضان»[١] .

أما المفهوم السلالي فهو بالإضافة لمعارضته المبدأ الإسلامي ، فإن كان موضوعا للتنازع داخل الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين ، ولم يصلوا إلى وفاق حول تحديداته وقيمته المعيارية .



(١) أبو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض ص ١٠١.

الإسلام والتفرقة

المسئولية :

الخطورة الكبيرة في قضية العنصرية هي أنها تجعل الإنسان مسئولًا عن ظاهرة ليست من صنع يده : لماذا أنا بهذا اللون أو ذاك ؟

والإسلام لا يبدأ قضية المساواة الإنسانية من مستوى البشرة ، وإنما هو يبدؤها ـ كدين ـ من مستوى الخلق والوجود نفسه .

يقول الله تعالى : ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] .

الإسلام يؤمن بإله واحد . وهذا التوحيد هو الذي تصدر عنه الوحدة الضرورية الحتمية لجميع البشر . وحدة لا أحمل فيها إلا مسئولية عملي ، وأتساوى فيها مع كل إنسان آخر عبر التاريخ وعلى امتداد الأرض .

ومن هذه الزاوية ، تأتي نظرة الإسلام إلى خلق الإنسان وما يرتبط بهذا الخلق من مسئوليات وتبعات .

قصة الخلق ومسئولية الإنسان :

وفي قصة الخلق في الإسلام تجربتان واضحتان :

١ ـ الأولى قصة كائن ـ هو آدم ـ خلقه الله سبحانه وتعالى من مادة هذه الأرض ثم نفخ فيه من روحه فاستوى بشرًا سويًّا . يقول الله تعالى : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ . هذا الأب الأول علمه الله الأسماء وأعطاه علمًا لم يعطه لملائكته ، وسأل ربنا آدم فيما علمه إياه فأجاب أمام الملائكة وسجدوا له بأمر الله . وفي هذا نقرأ قول الله : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣١-٣٣] . وفي آية

أخرى : ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر : ٣٠-٣١] .

هذه إذن تجربة ناجحة : تعليم واستيعاب وبرهنة عملية على هذا الاستيعاب ، تجربة آدم الأولى كما يصورها القرآن الكريم كانت نجاحًا جاء من بعده سكنى الجنة على أساس من إلزام أوامر الله والبعد عن نواهيه .

٢ ـ تأتي بعد هذا تجربة ثانية هي أكله من الشجرة التي حرمها الله عليه . وتصوير القرآن الكريم لهذه التجربة الثانية يستحق الوقوف من عدة اعتبارات :

(أ) أن الأمر الإلهي لم يكن موجهًا إلى آدم وحده وإنما إلى آدم وزوجه معًا . وأن الشيطان لم يقنع حواء ، وهى بدورها أقنعت آدم بالأكل من الشجرة ، وإنما كان الإقناع للاثنين معًا فهما يتحملان مسئولية عملهما ، وفي هذا نقرأ قول الله متحدثًا عن آدم وزوجه معًا : ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ

هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف : ١٩-٢٢] .

(ب) أن الدافع القوى الذي دفعهما إلى الأكل كان الطموح الذي يتعدى به الإنسان حدود الأمر الإلهي . لقد رغبا في أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين .

لقد كان الموقف صراعًا في نفسيهما بين صريح الأمر ، وبين الطموح الذي يتعدى ذلك الأمر . لقد أكرمهما الله معنويًّا بالعلم ، وماديًّا بالجنة ، فتطلعت الأنفس إلى ما ليس من طبيعة الإنسان .

ولا تزال هذه القضية عميقة الأثر في الحياة البشرية : التزام الحدود أو الخروج عنها ، محاولة الإنسان الصعود إلى ما فوق البشرية بما يحمل هذا من التنكر لبشريته القائمة .

أليس هذا هو جوهر القضية العنصرية : أن يتنكر الإنسان لجوهر الإنسان في نفسه أو غيره ؟ ويحاول أن يكون هو شيئًا آخر ؟ فإذا لم يستطع حاول الهبوط بغيره ليكون أقل منه ؟ وهو في دنيانا يحاول أن يتذرع بالوسائل التي يبرهن بها على التفرقة فلا يجد أمامه أوضح من اللون .

ومن هنا كان استخدام القرآن الكريم لهذا التعبير البعيد الغور ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ . ذلك الغرور الإنساني الذي حاولا به الصعود إلى أعلى كان طريقه إلى الهبوط إلى أسفل .

علاقتنا بالقصة :

نتابع القصة في القرآن فنقرأ توبة الأبوين : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

لقد كانت هذه هي المدرسة الأولى للإنسانية ، مدرسة فيها تجربتان من نجاح وفشل ، وتمتد يد الله الحانية لترفع الأبوين من قسوة التجربة ، ونقرأ قول الله : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه : ١٢١، ١٢٢] .

إذن فالقصة الأولى قد انتهت : نجاح وخطأ وتوبة وقبول توبة . وإخبار من الله للأب الأول وزوجه بعد أن مرا في التجربتين ليبدأ قصة طويلة يكون فيها آدم «خليفة الله في أرضه» .... ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ .. خليفة برغم الخطأ الذي حدث ، والأخطاء التي ستحدث ، نتيجة لتجارب الإنسانية في سيرها الطويل ، ومدى تمسكها أو ابتعادها

عن شريعة الله القائمة على الحق والعدل والرحمة .

فقصة الإنسان على الأرض ـ في تصور الإسلام ـ ليست عقوبة ولا قصاصًا ـ وإنما ـ كإنسان ـ لا أتحمل فيها نتيجة خطأ آدم ، كما أن آدم لم يتحمل نتيجة إغواء الشيطان ، وبناء على ذلك فإن كل إنسان منا يفتح مع ربه ومع المجتمع صحيفة جديدة بيضاء ليس فيها ـ في تصوير الإسلام ـ خطيئة ، وليست في حاجة إلى فداء .

الأب الأول وزوجه لهما قصة مع الله مستقلة عن قصتي كإنسان ، إلا من جانب واحد هو مدى استفادتي من التجربتين اللتين مرا فيها ... وهاتان التجربتان تمثلان صراعًا مستمرًا في النفس الإنسانية بين الالتزام والطغيان .. بين العدل والظلم ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ .

ولقد كرر الله في القرآن الكريم قبول توبة آدم أكثر من مرة : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] .

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه : ١٢١-١٢٢] .

المسئولية الفردية :

وكثير من الآيات التي تؤكد المسئولية الفردية ، التي تضع الناس جميعًا ـ سواء تعاقبوا أو تعاصروا ـ تضعهم جميعًا على مستوى المسئولية الموحد أمام الله وأمام المجتمع . ولنقرأ في هذا قول الله وهو يدعو إلى البر بالناس :

١. ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٣٣-٤٢] .

٢. ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤] .

٣. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

٤ . ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦] .



الإنسان والبيئة الطبيعية

حياة الإنسان ـ على الأرض ـ كما يصور القرآن الكريم ليست عقوبة ، وإنما مهمة نبيلة وصفها الله بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٥] . وهي حياة تتنازعها قوتان من امتثال الله والطموح الذي يحاول به الإنسان أن يرتفع فوق ذاته ، ولا يخرج هذا ـ في مضمونه ـ عن التنكر لإنسانيته . في نفسه أو غيره .

ومن طبيعة هذه المهمة ، وهي خلافة الله ، أن تكون العلاقة بين الإنسان والميدان الذي يعمل فيه علاقة حب وخير .

فالقرآن الكريم ينص على أن الله قد خلق الكون لنا :

١. ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩] .

٢. ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن : ١٠] .

٣. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

فكل ما حوله من هذا الكون الكبير إنما هو مسخر له، والأرض أمامه ممتدة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

بل إن القرآن ليجعل الإنسان جزءًا من مادة الأرض: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. فالإنسان ليس غريبا عنها ولا مطرودًا إليها. وهو يعيش عليها ثم يثوى في جوفها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

١. ويعبر الرسول ﷺ عن هذا فيقول: «تمسحوا بالأرض، فإنها بكم برة»[1]. من أجل ذلك لا تقوم العلاقة في الإسلام بين

(١) الطبراني في المعجم الصغير عن شيخه حملة بن محمد ص٨٣.

الإنسان والكون على أساس من العداوة والاستغلال والهدم والتخريب ، وإنما تقوم على أساس من استخراج خيراتها في تآلف وتناغم ومودة .

٢. ويمتد هذا الأساس في التآلف ليشمل مادة الأرض نفسها . فأبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في وصيته ليزيد بن أبي سفيان وهو على رأس جيش متجه إلى الشام : «لا تقطع شجرًا مثمرًا ، ولا تخرب عامرًا ، ولا تحرقن نخلًا ولا تغرقنه»[1] .

٣. وهو ينهى عن تعذيب الحيوان فيقول : «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فدخلت فيها النار»[2] .

والعبرة العميقة في هذا أن الهرة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها إذا كانت حبيسة ، وتصرف الإنسان مع من هو أضعف منه هو أوضح دليل على أخلاقه . والإنسان يمكن أن يخشى من هو أقوى منه أو يجامل من هو في مثل منزلته ، أما حقيقة أخلاقه

---

(١) موطأ الإمام مالك تحقيق فؤاد عبد الباقي ٤٤٧ـ٤٤٨. وانظر أيضا نيل الأوطار للشوكاني ٧: ٢٤٨ـ٢٤٩.

(٢) البخاري ٦: ٢٥٤ـ٢٥٥ من رواية عبد الله بن عمر .

فتبدو في مثل هذا الموقف .

٤ . ويعطينا الحديث التالي مثالًا آخر للرحمة : «بينما رجل يمشي . فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا الكلب الذي بلغ بي . فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له» .

قالوا يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجرًا ؟

قال : «في كل كبد رطبة أجر»[١] .

٥ . حتى ما تأكله الطير من حقل يقول فيه الرسول ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٢] .

٦ . واعتبر الحاكم في أرض الإسلام نفسه مسئولًا عن ماشيتها رعاية وتعبيد طريق ورفقًا بها ، فيقول عمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثاني : لو أن عناقًا (عنزًا) ذهب بشاطئ العراق

(١) البخاري ٣: ١٤٦-١٤٧ من رواية أبي هريرة .
(٢) رواه مسلم في صحيحه عن جابر ٣: ١١٨٨-١١٨٩.

لأخذ بها عمر يوم القيامة[١] .

ويحدد الخليفة عمر بن عبد العزيز ثقل الأحمال التي تحملها الإبل على شاطئ النيل ... يفعل هذا وهو في الشام فيقول : بلغني أن بمصر إبلًا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل[٢] .

وانعكست هذه الرحمة على الحيوان في أرض الإسلام ، فكانت هناك أوقاف مخصصة لإطعام الحيوانات الضالة وعلاجها ، وشراء الحبوب الغذائية للطيور ، وما زال هذا التقليد متبعًا حتى الآن في الحرم المكي .. يشترى الناس القمح ويلقونه على أرض المسجد ليلتقطه الحمام الذي يعيش بأعداد كبيرة هناك آمنًا على نفسه ، قريبًا من الإنسان يعيش معه في سلام .

الإسلام ينهى إذن عن حبس الحيوان وتعذيبه ، أو التلهي برؤية دمائه وصراعه ، ولا أود أن أذكر الكثير من حب العربي

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزي ص١١٠ ط صبيح بالقاهرة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص١٦٦ ط الرحمانية مصر ١٩٢٧.

للإبل والخيل ، لقد كان يطلق عليها الأسماء الرقيقة ، وينشد فيها الأشعار ، ويتغنى بصداقتها والوفاء المتبادل بينهما .

هذه صورة للعلاقة بين الإنسان ومكونات البيئة الطبيعية : صخرية وجوية ونباتيه وحيوانية ، تنبع من أساس واحد ، هو أن الله خالق الإنسان والوجود ، فهو ـ كإنسان ـ ابتدعته يد الله ، والدنيا أبدعتها يد الله . وهم جميعًا آيات من قدرته ، وأمم أمثالنا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وأن عمله في الدنيا ـ امتثالًا لأمر الله ـ لا يختلف من حيث دلالته على قدرة الله عن حركة الأكوان . وجودها سجود دائم لله ، يصوره القرآن الكريم بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور : ٤١] .

والله يدعو إلى التأمل في هذا الكون ويستدل من هذا على وجود الله وقدرته ، فكل ما حوله مادة للإيمان :

١. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ

وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

٢. ويلفته إلى التأمل في عالم النبات فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

٣. ويلفته بعد هذا إلى التأمل في عالم الحشرات فيقول القرآن الكريم: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

٤. ويلفته إلى التأمل في عالم الحيوان: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ٧]. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨]، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

والتعقيب القرآني على مكونات البيئة أنها: آيات لقوم يتفكرون، ولقوم يعقلون، ولقوم يذكرون، ولعلكم تشكرون،

ولعلكم تهتدون . تعقيبات كلها شكر لله ، ودعوة إلى العمل الصالح في الدنيا .

أما الفروق التي بين هذه المكونات في حجومها وألوانها ووظائفها ، فلا تعدو ـ في نظر الإسلام ـ أن تكون أكثر من دليل على قدرة الله .. ونظرة الإسلام إلى الإنسان لا تختلف من هذه الزاوية عن نظرته إلى بقية مكونات الوجود .



الإنسانية أسرة كبيرة

نفس واحدة :

في القرآن الكريم نداءات من الله يوجهها إلى الإنسان كإنسان ، توضح له السبيل إلى حل قضاياه الكبرى . ومن أهم هذه القضايا نظرة الإنسان إلى جميع إخوانه في الإنسانية .

وتأسيسًا على عقيدة التوحيد في الإسلام ، وهي جوهر الدين ، ينبغي أن تكون هناك وحدة في الإنسانية ... هذا ما قال به الإسلام وما انتهى إليه البحث العلمي ، وما ذهب إليه بيان هيئة اليونسكو عن قضية العنصرية .

ولنستمع إلى قول الله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] .

فالخالق واحد ، والنفس الإنسانية واحدة ، ومن هذه النفس

خلق الله زوجها ، ومن هذه الأسرة جاء الناس : رجالا كثيرًا ونساء . ثم يأمرنا الله بعد هذا أن نتقى أمرين : الله والأرحام ، والأرحام هنا دلالة على الصلة الإنسانية التي تربط الناس جميعًا بعضهم ببعض ، مهما تناءت الديار ، وتعاقبت العصور ، واختلفت الألسنة والألوان ، وتباين الوضع الاقتصادي والاجتماعي . نحن مأمورون بأن نتقي الله في أوامره ، والتطبيق الأول لتقوى الله هو رعاية الإخاء الإنساني الكبير ، الذي يعقب الله عليه بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ .

الألسنة والألوان :

ونحن كمجتمع إنساني كبير لم نحضر بدء الخلق ، ولم نر النفس الإنسانية الواحدة ، وإنما رأينا ألسنة مختلفة وألوانًا متعددة ، فما موقف الإسلام من هذا الاختلاف ؟

إن نظرته إليه ـ كما سبق القول ـ لا تعدو أن تكون نظرته إلى كل ما في الأنفس والآفاق من مجالات التباين .. وإذا كان حديثنا قد انصب من قبل على مكونات البيئة الطبيعية ، فقد كان هذا تمهيدًا للحديث عن الإنسان .. خليفة الله في أرضه ؛ ومن

أجله سخر له ما في السماوات والأرض وذلل له السير فيها .

وهو يذكر اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية ويعتبرها ـ جميعًا ـ أدلة على وجوده ، ووضعها بهذه الصورة ، دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة ، أعمق في الدلالة على أنها مجرد ظاهرة كغيرها من الظاهرات ، تجمعها كلها نظرة واحدة من التأمل الذي يعمق الإيمان في النفس ، ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة .

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم : ١٧-٢٤] .

وحديث القرآن الكريم عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس ، يماثل حديثه عن اختلاف الألوان في آفاق البيئة الطبيعية . وهو مظهر لقدرة الله ، له في النفوس قداسة واحترام ، وواجبنا حياله أن نعمل وفق أوامر الله ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] .

على أن الذي يستوقف النظر في الآيتين : الأولى التي تخبرنا عن اختلاف الألوان بين الناس ، والثانية عن اختلاف الألوان في الغطاء الصخري والنباتي وعالمي الحيوان والإنسان ؛ أن الأولى

تنتهي بقول الله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ . والثانية بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ .

هنا نلمس ربطًا بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمي فيها ، واطمئنانًا من القرآن الكريم إلى أن ما يكشف عنه البحث العلمي الموضوعي في هذا المجال لن يكون متعارضًا مع الأساس الذي تقوم الحياة عليه ، وهو أن يكون الناس جميعًا إخوة ـ فهم أبناء أب واحد ، وأن يعملوا في الحياة دون أن يكون لفروق اللون ـ بشرية كانت أو طبيعية ـ من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنساني من أجل حياة أفضل .

الفروق المكانية :

وانطلاقا من هذا الأساس ـ وحدة الإنسان ـ يعالج القرآن الفروق المكانية بين الناس . إنهم يعيشون شعوبًا وقبائل . ولكل شعب أو قبيلة موطن . وعليهم جميعًا أن يتعارفوا على أساس من تقوى الله .

وفي هذا يقول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

الإسلام ينظر إلى الإنسانية كأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها ، دون أن يكون للون فضل على آخر . ولكن لم يكن من اليسير على النفس وقتئذ أن تقبل هذا الإخاء الكبير الذي جاء به الإسلام ، بعد أن مزقتها العصبيات الإقليمية واللونية والطبقية ، وتراكمت فيه رواسب تاريخية أصبحت جزءًا أساسيًّا من التكوين العقلي للمجتمع . وكان على الإسلام أن يبدأ بتصحيح المفاهيم ـ في عالم الفكر أولًا ـ وينقل هذه المفاهيم من النفس إلى الحياة ليحدد أبعاد المجتمع الجديد على أساس عريض من الإيمان والأخوة الإنسانية والعمل الصالح .



الأنبياء فيها إخوة

الأنبياء أمة واحدة :

وتأكيدًا لمعنى الإخاء الإنساني عبر التاريخ ، نرى القرآن الكريم يأمر المسلم بأن يؤمن بجميع الأنبياء السابقين دون تفرقة بينهم فيقول الله : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

والقرآن الكريم لا ينص على أن الله قد ذكر كل الرسل في القرآن ، وإنما هو يقول عن الأنبياء : ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر : ٧٨] .

والإنسان في نظرته إلى الدين إنما يلتمس فيه المبادئ السليمة التي تقوم بها الحياة الإنسانية ، دون أن يظن أنه أحاط حتى بأسماء

الأنبياء ، فضلًا عن تفاصيل قصصهم ، فهو حين يرى أمامه عملًا صالحًا فعليه أن يقدره ويحترمه ، وإن كان من دين لم يرد نص صريح في كتابه الذي أنزله الله عليه .

ويأمرنا الله أن يكون هذا قولنا دائمًا ، ويؤكد هذا المعنى في أكثر من آية في القرآن : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

وفي القرآن سور كثيرة تمجد الأنبياء السابقين وتذكر ما لهم من فضل ، وجهادهم في سبيل الحق ، بل إن نحو ثلاثة أرباع القرآن يتكون من عرض لقصص الأنبياء من زوايا مختلفة أهمها ثلاثة : تثبيت المؤمنين على طريق الحق ، وبيان شدة الصراع الذي لقيه الأنبياء من أقوامهم ، والجزاء الذي يحل بالظالمين .. وبعبارة أخرى تكوين المؤمن والصراع الاجتماعي ونتائج الصراع .

ويدعونا القرآن إلى أن نقتدي بهذه النماذج الإنسانية على تباعد الأزمنة بينها والأمكنة ، ويعتبرهم جميعًا أمة واحدة ،

فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ويعقب على هذا بقوله مبينًا طبيعة الصراع مؤكدًا وجوب العمل لإقرار قيم الحق والعدل في الحياة فيقول: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣-٩٤].

وبرغم ما حدث بين أتباع الأديان من صراع عبر التاريخ، فإن مكانة الأنبياء جميعًا ظلت لها قداستها في أرض الإسلام. يقرءون ما كتب الله عنهم ويتقربون به إلى الله فيظل الشعاع النوراني الذي يربط بين الإنسانية يضيء القلوب، ويدعوها إلى الإخاء الإنساني الذي كافح من أجله الأنبياء والمصلحون.

إتمام لا بدء:

يصور النبي ﷺ الجهد المشترك بين الأنبياء جميعًا، وأنهم يعملون من أجل هدف واحد في مثال حسي فيقول: «إن مثلي

ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلَّا موضع لبنة في زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1] .

وحديثه عن الأنبياء يحمل دائمًا هذا الروح من الإخاء والزمالة التي دعا إلى تأكيدها في جوانب الحياة .

فهو يقول عن يوسف : «أتدرون من الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ؟ إنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[2] .

ويقول عن يونس : «دعوة ذي النون ، إذ دعاه في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب المناقب : باب خاتم النبيين ٥: ٤٠٧-٤٠٨. وقد أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل باب كونه عليه السلام خاتم النبيين ٤: ١٧٩٠-١٧٩١. وأحمد في المسند ١٣: ٤٣، ٢٣٤ طبع المعارف .

(٢) البخاري ٦: ٢٨٩-٣٠٠، وأحمد في المسند ٨، ٨٦ طبع المعارف ، وكلاهما من رواية ابن عمر .

(٣) أخرجه الترمذي عن سعد ٢: ٢٦٤ طبع المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٩٢،=

ويقول عن موسى: «رحم الله موسى أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1].

ويقول عن عيسى: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي»[2].

وكان يحس هذا الإخاء مع الأنبياء جميعًا في حياته اليومية، ففي رحلته إلى الطائف يدعو قبيلة ثقيف إلى الإسلام، ردته القبيلة ردًّا غير جميل وأغرت به السفهاء والغلمان يرمون قدميه بالحجارة ويصرخون فيه حتى لجأ إلى بستان يعمل فيه عامل نصراني، رق قلبه للرسول فأحضر له بعض الماء والفاكهة.. وسأله ﷺ: «من أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال الرسول ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى». ويعجب العامل

=والحاكم في المستدرك ٥: ٥٠٥ بدون ذكر لفظ الأخ، وكذلك أحمد في المسند ٥: ٥٧ طبع الحلبي.

(١) البخاري في صحيحه ٦: ١٨٠، ومسلم ٢: ٧٣٩.

(٢) البخاري في صحيحه ٦: ٣٥٤، ومسلم ٤: ١٨٣٧ كلاهما من رواية أبي هريرة.

ويسأله : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فيقول الرسول ﷺ : «ذاك أخي ، كان نبيًّا وأنا نبي»[1] .

هدف واحد وألوان متعددة :

وفي رحلة الإسراء والمعراج التي أسرى الله فيها برسوله عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف ، ثم عرج به بعد هذا إلى السماوات ورأى من آيات ربه الكبرى ، ثم عاد إلى موطنه ، وهي من التراث الذي تأثر به دانتي في الكوميدية الإلهية .

وفي هذه الرحلة يحدثنا الرسول عن لقائه بالرسل ، ويعطينا وصفًا لأهم ملامحهم : فمنهم من غلبت عليه الأدمة ـ أي : السواد ـ ومعنى آدم في العربية الأسود ـ ومنهم من كان أسمر اللون ، ومنهم من كان أبيض ناصع البياض ، يذكر هذه الألوان جميعًا دون أي تفرقة بينهم أو تفضيل على أساس من اللون ، ويذكر أن صلاة واحدة جمعتهم في هذه الليلة المباركة[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٦٢.

(٢) البخاري في صحيحه ٦: ٣٤٩.

هذه باقة من الأنبياء، لقيهم الرسول في ليلة الإسراء والمعراج، كما تحدث بعد عن أصحابه الذين آمنوا به على اختلاف ألوانهم ـ رسلا ومؤمنين ـ دون أية تفرقة بينهم.



الناس في الدين إخوة

الإسلام يستخدم لفظ «الجاهلية» للمجتمع السابق عليه . والجهل ليس ضد العلم ، وإنما هو أساسًا ضد العدل . الجهل هنا معناه الأساسي الظلم بكل ما يحمل من إخضاع العلم والحق لخدمة الأهواء .

وإلى هذا المعنى يذهب الشاعر العربي عمرو بن كلثوم قبل الإسلام :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي : لا يظلمنا أحد متعديًا حده فنضطر إلى رد الظلم بأشد منه !!

ومن هنا كان الإسلام يسمى التفرقة العنصرية بكل مظاهرها جاهلية :

الاعتداد بالأنساب والأوضاع القبلية والمستوى الاقتصادي .

والرسول ﷺ يخطب الناس فيقول : «يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية[1] وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾»[2] .

«كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان» (وهى الحشرات الصغيرة)[3] .

«إن أنسابكم هذه ليست بمسبَّة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم تملئوه ـ أي أن افتخاركم بآبائكم خروج على ما علمكم ربكم ـ ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى»[4] .

---

(١) عبية الجاهلية : (بضم العين وتكسر) نخوتها ، ورجل فيه عبية أي : كبر وتجبر .
(٢) الترمذي عن ابن عمر .
(٣) أورده ابن كثير في تفسيره ٨: ٣٠، عن البزار في مسنده عن حذيفة .
(٤) مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٤٥ـ ١٨٥. طبع الحلبي ، عن عقبة بن عامر .

ويقول ناصحًا صاحبه أبا ذر الغفاري رضي الله عنه :

«انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ـ من السيادة ـ إلا أن تفضله بتقوى الله»[1] .

وكان من دعائه ﷺ وهو يناجى ربه في آخر الليل : «اللهم إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة» .

ولكن هذا لم يكن يسيرًا على نفوس عاشت على إنزال الأوضاع القبلية منزلة تكاد تكون مقدسة ، يحتفظون بأنسابهم جيلًا بعد جيل بصورة يصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن نجد لها نظيرًا في أمة من الأمم .

فكيف ينقلهم الإسلام وينقل الإنسانية بهم ومعهم إلى هذا الطريق المستقيم من الإيمان والمساواة !!

في الدعوة :

لقد كانت هناك قبل الإسلام تفرقة في العبادة على أساس قبلي ، أو قل : على أساس عنصري ، ومهما يكن الدافع إلى هذه

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥: ١٥٨، عن أبى ذر الغفاري ، طبع الحلبي .

التفرقة ، فإنها لن تخرج ـ موضوعيًّا ـ عن كونها تفرقة ، كان على الإسلام أن يقضى عليها .

وتبدأ المساواة في الإسلام بعقيدة واحدة للجميع ، ليس فيها أسرار ولا تخصيص ، وإنما الدين للناس جميعًا . والله يخاطب رسوله فيقول : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وهو ليس رسولا إقليميا ولا عنصريًّا .

وهو يقول : «بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود»[١] .

ومن طبيعة هذه الدعوة العالمية ألا تعرف العصبية وهي من أهم أسباب الخلف بين الناس .

ولقد كانت من الجوانب التي هاجمتها قريش في الدعوة الإسلامية أنها أنزلت على رجل فقير ، ويسجل القرآن هذا فيقول :

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٢٦١، ط المعارف من رواية ابن عباس .

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

وسنعود إلى هذه الآية فيما بعد، وإنما الذي يعنينا منها هنا أن الفقر أو الوضع الاقتصادي كان من أسباب الهجوم على الإسلام في مكة.

ولم يكن العرب يتصورون وقتئذ ـ في الأغلب ـ أن هذه الدعوة خالصة، من أجل ذلك عرضوا على الرسول ﷺ كل الجوانب التي يرون فيها التميز ـ وهي أساس حياتهم ـ لينصرف عن الإسلام:

«إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا»[1].

ولكنه أعرض عن المال والمكانة الاجتماعية والحكم.. وبعبارة أخرى عن التمييز على أساس اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، ولم يرض منهم بغير الإيمان والإخاء الإنساني.

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٣١٣.

وبذلك أسقط الرسول ﷺ من أول الأمر من هذه العوامل التي تؤدي إلى التفرقة . ولنأخذ نماذج على ذلك من العبادات الإسلامية :

في العبادة :

والصلاة أبرز مظاهر العبادة في الإسلام .. تتكرر في اليوم خمس مرات ويجتمع الناس في صلاة الجمعة والعيدين، ثم يجتمعون في أضخم اجتماع في موسم الحج، وهم في المسجد يقفون صفوفًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، والصفوف الأولى من حق الذين يأتون مبكرين إلى المسجد، والإمام أقرؤهم لكتاب الله، والذي يؤذن للصلاة ينبغي أن يكون من خيار الناس . وكان المؤذن الأول لرسول الله ﷺ عبدًا حبشيًّا آذاه كفار قريش أذى بليغًا، وكانوا يلقونه على الأرض الملتهبة من شدة الحرارة ويضعون الحجر الساخن على بطنه؛ فاشتراه أبوبكر صاحب رسول الله ﷺ وأعتقه، فكان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني يقول : «أبوبكر سيدنا وأعتق سيدنا»[1] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١: ١٤٧ من قول عمر، والحاكم في المستدرك ٣: ٢٨٤.

وكان بلال حسن الصوت وهاجر مع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، وكان يؤذن له في مقامه وفي سفره ، وعندما فتح الرسول ﷺ مكة في العام الثامن للهجرة أمر بلالًا أن يؤذن على ظهر الكعبة ؛ فكان صوته أول صوت ارتفع فوقها بالأذان . ثم انقطع عن الأذان بعد وفاة رسول الله ﷺ ولم يؤذن إلَّا مرة واحدة ، بناء على رغبة المسلمين ، في المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

وبهذا كان صوت بلال الحبشي الأفريقي هو الصوت الذي ارتفع بالأذان فوق المساجد الثلاثة التي يقدسها المسلمون .

وكذلك في مجال العلم ، ففي عهد بني أمية ، وبعد وفاة كبار الفقهاء العرب الذين عرفوا باسم «العبادلة» الذين يحملون اسم عبد الله ، وهم أبناء عمر وعباس والزبير وابن العاص ، صار الفقه في معظم البلاد الإسلامية إلى غير العرب . فكان فقيه أهل مكة وإمام الحرم الشريف عطاء بن أبى رباح . وتصفه كتب التاريخ الإسلامي بأنه كان في سواد الغراب ، أعرج أفطس الأنف ، يقول عنه الإمام الأوزاعي فقيه الشام : كان عطاء أرضى الناس عند الناس . وقدم عبد الله بن عمر مكة فسألوه فقال :

تجمعون لي المسائل وفيكم ابن أبي رباح[1]؟ وكان إمام اليمن «طاوسًا» ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبي كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصري ، وفقيه أهل الشام مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني ، أما المدينة فكان فيها فقيه من قريش هو سعيد بن المسيب ، الذي رفض أن يزوج ابنته لابن الخليفة الأموي ، ورضى أن يزوجها من أحد تلاميذه لاطمئنانه إلى دينه وخلقه وإقباله على العلم[2] .

ولقد كانت قريش في الجاهلية تتشدد في أمر الحج ، وأهم مناسكه الوقوف بجبل عرفات ، ولكن قريشًا كانت لا تذهب إليه مكتفية بالوقوف عند مزدلفة ، وهي تدخل في حدود منطقة الحرم ، في حين أن عرفات خارجه ، وتأكيدًا للمساواة التامة بين الناس في أداء فريضته أمر قريشًا أن يكون وقوفها في عرفات دون أن تتميز على بقية المسلمين . وجاء هذا بنص القرآن الكريم : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟

---

(١) النووي تهذيب الأسماء واللغات : ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٩: ١٠٠ ط. السعادة ، القاهرة .

ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] .

وكانوا في مزدلفة يذكرون في الجاهلية أمجادهم وآباءهم ويتفاخرون بعصبياتهم ، فنهاهم عن ذلك وأمرهم بأن يذكروا الله الذي خلقهم وينتهوا عن التفاخر بالآباء والأجداد . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠] .



وفي المجتمع إخوة

١ ـ في نظام الأسرة :

الإسلام لا يجعل اللون أو الوضع الاجتماعي حائلًا دون تكوين الأسرة . وكل ما يشترطه هو التراضي والقدرة على تكوين البيت والقيام بأعبائه على أساس مستقر . هذا هو جوهر الكفاءة في الإسلام .

ويقول الرسول ﷺ : «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه ـ أي زوجوه ـ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير»(١) .

وقوله : «من ترضون دينه وخلقه» دليل على اعتبار الكفاءة على أساس من الدين والأخلاق(٢) .

---

(١) الترمذي ٢: ٢٠١ عن أبي حاتم المزني ، وابن ماجه في سننه ١: ٦٣٢.
(٢) الشوكاني : نيل الأوطار ٦: ١٢٧.

يقول الإمام مالك : الكفاءة في الدين لا غير[1] . وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم في الإسلام من السنة والشيعة . ويعبر الإمام ابن حزم الأندلسي عن هذا الخط الفكري الأساسي في الإسلام فيقول : «وأهل الإسلام كلهم إخوة : لا يحرم على ابن من زنجية لغية ـ الغية في اللغة ما لا يعتد به ـ نكاح ابن الخليفة الهاشمي ..» وقال أبو حنيفة : «إذا رضيت القرشية بالمولى ووفاها صداق مثلها أمر الوالي أن ينكحها ، فإن أبى أنكحها القاضي» . وقال مالك والشافعي وأبو سليمان كقولنا .. والحجة قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] .

ومن الناحية التطبيقية تزوجت أخت عبد الرحمن بن عوف ، وهي قرشية ، من بلال بن أبي رباح مؤذن رسول الله ﷺ ، وبلال كما سبق القول كان حبشيًا ، كما زوج أبو حذيفة (أحد كبار الصحابة) بنت أخيه لمولاه .

ذلك لأنه ليس من اليسير عمليًا على كل النفوس أن تقبل هذا

---

(١) ابن قدامة : المغني ٥: ٤٨٢.
(٢) ابن حزم : المحلى ١٠: ٢٤.

السمو ، الذي يدعوها إليه الإسلام ، فلا ترى إلا جوهر الإنسانية دون تأثر بوضع طبقي أو لونى أو عنصري ، وكان لابد من الممارسة والاستمرار حتى تتأصل هذه الأخلاق في المجتمع الإنساني .

٢ ـ في القضاء :

ويستوى الناس جميعًا في الإسلام أمام القضاء .. والقاضي نفسه لا يشترط فيه أي شرط عنصري أو لوني ، وإنما علمه وكفاءته وأخلاقه .. وبين يديه يجلس الجميع ليقضى بينهم دون تمييز .

وفي عهد رسول الله ﷺ سرقت امرأة من بني مخزوم «من أشراف العرب» ووجب إقامة الحد عليها . وكبر على نفوس بعض القرشيين أن يقام الحد على امرأة مخزومية ، وفكروا فيمن يستطيع أن يحدث رسول الله ﷺ في هذا ويحمل إليه شفاعة القوم ، وأجمعوا أمرهم على أسامة بن زيد ، وكان قريبًا إلى نفس النبي ﷺ حبيبًا عنده ، لمنزلته ومنزلة أبيه ، فأنكر الرسول ﷺ شفاعة أسامة ، على حبه له ، وانتهره قائلًا : «أتشفع في حد من حدود الله ...؟» . ثم قام فخطب الناس فقال : «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق

الضعيف أقاموا الحد عليه . وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1] .

وشكا يهودي علي بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب في خلافته . فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودي باسمه ، بينما خاطب عليًّا بكنيته فقال له : يا أبا الحسن ـ حسب عادته في خطابه معه ـ فظهرت آثار الغضب على وجه علي . فقال له عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهوديًّا ، وأن تمثل معه أمام القضاء ؟ فقال علي : لا ، ولكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه ، بل فضلتني عليه ، إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتني بكنيتي (والخطاب بالكنية كان أسلوبًا من أساليب التعظيم للمخاطب) .

٣ ـ في فرص العمل والأمن :

الإسلام يعطى كل فرد الحق في أن يمارس من العمل المشروع ما يروق له ، وتكون لديه الكفاية للقيام به .

---

(١) صحيح البخاري في كتاب الأنبياء: ٦: ٣٧٧-٣٧٨، ومسلم في كتاب الحدود : باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة في الحدود ٣: ١٣١٥ كلاهما عن عائشة رضي الله عنها .

والله يدعو الناس جميعًا إلى العمل والانتشار في الأرض وكسب الرزق ، فيقول : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

ويضع التنسيق الدقيق بين التوجه إلى المسجد لأداء الصلاة والانصراف منه بمجرد انتهائها طلبًا للرزق ، فيقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ٩-١٠] .

فهو حين يدعوهم إلى الصلاة يصفها بأنها «ذكر الله» وحين يدعوهم إلى العودة إلى أعمالهم يصف البيع بأنه «فضل الله» فهو في دخوله وخروجه يستجيب لأمر الله طاعة له في العبادة وفي طلب الرزق .

بل إن الإسلام ليدعو إلى طلب الرزق حتى في أثناء أداء فريضة الحج فيقول : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وروى عن ابن عباس أن قومًا قدموا على الرسول ﷺ فقالوا: إن فلانًا يصوم النهار ويقوم الليل، ويكثر الذكر، فقال: «أيكم يكفيه طعامه؟» فقالوا: كلنا ـ أي أننا نتعاون جميعًا على سد حاجته ـ حتى يفرغ لعبادته. فقال عليه الصلاة والسلام: «كلكم أعبد منه».

ولم ينقطع أبو بكر ـ الخليفة الأول ـ عن التجارة إلا بعد أن فرض له المسلمون من بيت المال ما يسد حاجته وحاجة من يعولهم حتى يتفرغ لأعمال الخلافة.

وحتى العمل ـ كما يقرره الإسلام ـ مكفول لكل إنسان دون عائق عنصري أو ديني أو طبقي.

فالدولة في الإسلام مسئولة عن توفير الرعاية والمعاملة الطبية التي تكفل انطلاق كل الطاقات في المجتمع.

يقول الرسول ﷺ: «من آذى ذميًا فقد آذاني»[1] (والذمي

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير ٢: ١٥٨ عن ابن مسعود.

هو غير المسلم ويعيش في ذمة المسلمين، أي: في مجتمعهم).

ويقول: «من ظلم معاهدًا ـ من له عهد مع المسلمين ـ أو أنقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة»[1]. ويقول عمر بن الخطاب في عهده إلى أهل بيت المقدس عقب فتح المسلمين له: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان:

أعطاهم أمانًا لأنفسهم في أموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبرئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم»[2].

هذا الأمان هو الأساس العريض الذي تنطلق منه الطاقات

---

(١) رواه أبو داود عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا من ظلم معاهدا، أو تنقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا خصمه» قال السخاوي في المقاصد. ص٣٩٢ـ٣٩٣. وسنده لا بأس به. هذا وقد رواه البيهقي في سننه ٩: ٢٠٤ـ٢٠٥ عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، عن آبائهم عن رسول الله ﷺ.

(٢) تاريخ الطبري: ٣: ٦٠٩ ط. المعارف. القاهرة.

عاملة منتجة دون عدوان على فرد أو حق المجتمع .

٤ ـ يحمي حياته وكسبه :

والمجتمع مسئول بعد هذا عن حماية الفرد وإنتاجه ، تستوى في هذا نفس المسلم وغير المسلم .

ولنأخذ مثالا على ذلك من حالة القتل العمد .

فالإسلام لا يفرق في القصاص بين أن يكون القتيل رجلًا أو امرأة ، بالغًا أو صبيًّا ، عاقلًا أو مجنونًا ... عالمًا أو جاهلًا ، غنيًّا أو فقيرًا ، مسلمًا أو ذميًّا ، أبيض أو أسود .. وذلك لعموم قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

ولا يفرق الإسلام بين أن يكون القاتل واحدًا أو جماعة ، بالغًا ما بلغ عددهم ، بل إن فقهاء الإسلام يقررون أن «أحق ما يجعل فيه القصاص هو قتل الجماعة بواحد ، لأن القتل لا يوجد عادة إلا على سبيل التعاون والاجتماع ، فلو لم يجعل فيه القصاص لانسد باب القصاص ، إذ كل من رام قتل غيره استعان بآخرين يضمهم

إليه ليبطل القصاص عن نفسه . وفي ذلك تفويت لما شرع له القصاص وهو الحياة» . وقد قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه جماعة في واحد ، وقال في ذلك قولته المشهورة : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعًا .

ويذهب طائفة من فقهاء الإسلام وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة النعمان إلى أن قتل المسلم بالذمي أبلغ منه في قتل المسلم بالمسلم ؛ لأن العداوة الدينية قد تحمل على القتل ، فكانت الحاجة إلى الزجر أمس ، وكان تحقيق الحياة في شرع القصاص من المسلم إذا قتل ذميًا أبلغ من تحقيقها في شرع القصاص من المسلم إذا قتل مسلمًا[1] .

والإسلام بهذا يحترم الحياة الإنسانية على الإطلاق ، ويحترم حق الإنسان في الحياة . وأنه وضع عقوبة القصاص لحماية الحياة دون نظر إلى جنس القاتل أو مكانته الاجتماعية أو الاقتصادية أو لونه أو دينه .

وعلى أساس من احترام الإسلام للحياة والعمل ، يحترم حق

---

(١) د . على عبد الواحد وافى (١٩٦٧) حقوق الإنسان في الإسلام ص٢٥٦-٢٤٧ ط . دار النهضة مصر . القاهرة .

العامل في أجره ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ : «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه ، وأعلمه أجره وهو في عمله»[١] . ويقول عليه الصلاة والسلام : «قال الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ..» . وذكر منهم : «رجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[٢] .

ويطبق هذا على جميع أنواع العمل المباح ؛ سواء في ذلك الأعمال الجسمية ، أو الأعمال العقلية ، أو أعمال التنظيم .



(١) أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة ١: ١٩٩. وقد أخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر في كتاب الرهون : باب أجر الأجراء ٢: ٨١٧.
(٢) البخاري ٣: ١١٨ في باب الإجارة .

نماذج بشرية

١ ـ في صدر الإسلام :

(أ) أول النماذج التي يذكرها المسلمون تأكيدًا لارتفاعه بالإنسانية فوق مستوى التفرقة العنصرية بلال بن أبي رباح الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ ، في مسجد المدينة ، كان الرسول ﷺ يؤم المسلمين ، وكان بلال يؤذن لهم . والإمامة والأذان هما الوظيفتان الرئيستان في المسجد .

ويقول فيه عمر بن الخطاب الخليفة الثاني : «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»[(١)] (يعني بلالًا) وهو ثلث الإسلام ، أي ثالث إنسان استجاب للإسلام .

(ب) ومن السودان (وهو اللفظ الذي كان يطلقه العرب على

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١: ١٤٧ من قول عمر ، والحاكم في المستدرك ٣: ٢٨٤ وصححه وأقره الذهبي .

من كان أسود البشرة) المقداد بن الأسود صاحب رسول الله ﷺ ، وكان من أجلاء الصحابة وقد شهد مع الرسول ﷺ غزوة بدر الكبرى ثم شهد المشاهد كلها . يقول المقداد : لما نزلنا المدينة عشرنا رسول الله ﷺ عشرة عشرة في كل بيت (أي : قسمهم إلى عشرات) قال : فكنت في العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ ولم يكن لنا إلا شاة نتجزأ لبنها[١] .

ومنهم جليبيب الذي يحدث الرواة أن رسول الله ﷺ خرج في غزاة ؛ فقال لأصحابه : «هل تفقدون من أحد ؟» فقالوا : نفقد فلانًا وفلانًا . ثم خرج فقال : «هل تفقدون من أحد ؟» . قالوا في الثالثة : لا . قال : «لكنى أفقد جليبيبًا اطلبوه» . فطلب في القتلى ، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتل . فأتى النبي ﷺ فوقف عليه فقال : «قتل سبعة ثم قتلوه . هذا مني وأنا منه» . قال : فوضعه على ساعديه ، ليس له إلا ساعدا النبي ﷺ ، قال : فحفر له ووضعه في قبره[٢] .

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٤: والحديث في مسند أحمد ٦: ٤ ط. الحلبي، والمعنى : نقتسم لبنها أجزاء بيننا ، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١: ١٥٩.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه ٤: ١٤٨٢ عن أبي برزة. والخبر أيضًا في=

٢ ـ عند مؤرخي وجغرافي الإسلام :

ولم يتخذ علماء الإسلام في التاريخ والجغرافيا والعمران موقفًا عدائيًا من أي جنس على أساس من اللون .

فالمسعودي ـ على سبيل المثال ـ عندما يتحدث عن الأجناس ويصل إلى السودان ويقصد بهم سكان أفريقية جنوب الصحراء ، يتحدث عن بلادهم في موضع فيقول : «والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم . يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغب في القرب من بارئهم ويبعثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه وصولته ، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم»[١] .

وهو حين يتحدث عن ملوك الصين يذكر ما عندهم من عدل وما يأخذون به أنفسهم من رعاية لحقوق التجار الغرباء الذي

=الإصابة ١: ٢٥٣، والاستيعاب ١: ٢٥٣، ومسند الطيالسي ص ١٢٥، وذكره الجاحظ في رسالة فضل السودان. انظر رسائل الجاحظ ص ٥٥، ٥٦.

(١) مروج الذهب ١: ٢٤٤.

يقصدون أرضهم[1] .

ونفس المنهج نجده عند ابن خلدون في «مقدمته» عندما يعرض لذكر الأجناس البشرية .

فهو يعرض الأجناس البشرية ، ولكنه لا يغالى في تأثير البيئة الطبيعية ولا ما يرتبط بها من صفات بدنية ، بل يوجه كل عنايته إلى البحث عن العوامل الاجتماعية ، ويسعى إلى إظهار أثر الحرفة وأسلوب الحياة ، ويعطى هذه العوامل الموقع الأول في تكوين الطبائع والسجايا .

ونظرية ابن خلدون في هذا ملخصة في وضوح ، في سياق دراسته للمشرق ومقارنته بالمغرب الإسلامي ، في أحد فصول الباب السادس من المقدمة . عند دراسته «تعليم العلم» يقول ابن خلدون عن أهل المشرق : «أهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم وفي سائر الصنائع ، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم ، أن عقولهم على

---

(١) مروج الذهب ١: ٨٥.

الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ... ويعتقدون أن التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية، ويتشيعون لذلك ... لما يرون من كسبهم في العلوم والصنائع، وليس كذلك، وإنما الذي فضل أهل المشرق من أهل المغرب، ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كلما تقدم في الصنائع فيظنه العامي تفاوتًا في الحقيقة الإنسانية، وليس كذلك»[1].

هذا الخط الفكري الذي يربط بين ما تتميز به الشعوب وبين الظروف الاجتماعية التي تعيش فيها، هو ما يؤكده البحث العلمي الحديث، وما تدعو إليه اليونسكو دون أي ربط بين هذه المميزات والصفات الطبيعية للإنسان.

٣ ـ القرآن ونظرته إلى اللون:

وأساس ذلك في الإسلام نظرة القرآن إلى اللون. ويمكن أن نقف عند كلمتين أو مادتين من كلمات القرآن: الأولى السواد، والثانية البياض.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٣٠ـ ٤٣٣.

فلقد جاء ذكر السواد في القرآن عشر مرات :

ثلاث منها بمعنى السيادة : الأولى في وصف سيدنا يحيى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ والمقصود هنا سيدنا زكريا ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] والثانية وصفًا لعزيز مصر في قصة يوسف : ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ والآية تقصد يوسف وامرأة العزيز ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف : ٢٥] . والثالثة في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب : ٦٧] .

وفي هذه المواضع نجد السيادة في الأولى مدحًا ، وفي الثانية عرضًا تقريريًّا دون مدح أو ذم ، وفي الثالثة ذمًّا .

وجاء السواد خمس مرات وصفًا لحالة تعترى الوجه لا باعتبارها صفة لازمة له : منها موضعان في سورة «آل عمران» عن اسوداد وجوه الكافرين يوم القيامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ

إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٦] .

ولهذا صلة بعذابهم دون نظر إلى لونهم الأصلي .

وموضع ثالث في سورة «الزمر» [الآية : ٦٠] لنفس الموقف ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ .

ثم مرتان وصفًا لحالة قوم تسود وجوههم إذا بشروا بالأنثى وذلك في قوله تعالى في سورة النحل [الآية : ٥٨] : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

وهو نوع من التفرقة بين الذكور والإناث عابه القرآن على المجتمع الجاهلي ، ثم قوله تعالى : في سورة «الزخرف» [آية : ١٧] : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أى : بالأنثى عندما وصفوا الملائكة بأنهن بنات الله ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

ويبقى بعد هذا موضعان جاء أولهما وصفًا لقطع من الجبال في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر : ٢٧] . والوصف هنا إظهار لقوله تعالى ، جاء مع ذكر الأجزاء البيض والحمر . والموضع العاشر في

وصف الليل : ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

وصفوة القول أن مادة «سود» جاءت في القرآن الكريم مبينة للسيادة ، وجات مدحًا لموقف ، وذمًّا لموقف ، ووصفًا لظاهرات كونية كتعاقب الليل والنهار ، واختلاف ألوان الصخور ، ثم وصفًا لبعض مشاهد القيامة ، أو حالة عارضة تعرو الوجه نتيجة انفعال النفس .

فلا نستطيع أن نقصرها على المدح أو الذم .. بل لا نستطيع أن نربطها بالمدح أو الذم . واللون الأسود بهذا ليس له في القرآن منزلة يختلف بها عن سائر الألوان .

فإذا انتقلنا إلى اللون الأبيض وجدنا نفس الصورة : جاء في القرآن في اثنى عشر موضعًا .

جاء البياض في سورة «يوسف» وصفًا لأشد حالات الحزن فما يخبرنا به ربنا عن يعقوب عليه السلام : ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٨٤] . وجاء وصفًا لوجوه المؤمنين في الآخرة مرتين : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا

ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٦-١٠٧] . والاسوداد هنا احتقانها من الحزن ، والابيضاض إشراقها من الفرحة . وجاء وصفًا لحور الجنة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات : ٤٩] . والمقصود به هنا بيض النعام ، وكانت العرب تضرب به المثل في صفائه ، وجاء وصفًا للفجر في قوله : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة : ١٨٧] . وذلك عند الحديث عن بدء الصيام . وجاء وصفًا للجبال : ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر : ٢٧] .

وجاء وصفًا لمعجزة يد سيدنا موسى ، وربطت الآيات بين البياض وأنه من غير سوء ـ أي : من غير مرض ـ وذلك في سورة الأعراف : ١٠٨، وسورة طه : ٢٢، والشعراء : ٣٢ وسورة النمل : ١٢، والقصص : ٣٢، ثم جاء وصفًا لشراب أهل الجنة : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات : ٤٥-٤٦] .

فاستخدام اللون الأبيض في القرآن أيضًا قد يدل على الحزن الشديد أو على الجزاء الطيب ، وقد يكون إظهارًا لقدرة الله في ظاهرة كونية أو صخرية . وقد يكون وصفًا للمرأة أو يد الرجل ، ويفيد الوصف بأنه من غير سوء .. فشدة البياض مرض كما نعلم .

وصفوة القول أن القرآن لا يخصص اللون الأبيض للمدح أو الذم ، ولا يربط بينه وبين مكانه في الحياة ، وإنما الحجة الكبرى في القرآن نجدها في المساواة بين الناس كما تبينها آياته . أما التقدم فعلى أساس من اتباع أحكام الله : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ولكن في القرآن حديث عن درجات الناس .. فكيف يعالج القرآن هذه القضية ؟

كرامة الإنسان عند فقهاء الإسلام :

تأسيسًا على ما سبق قوله يبدو كيف يؤكد الدين كرامة الإنسان . وأن المظالم يوقعها جنس بجنس ، أو لون بلون ، لا يمكن أن تستند إلى أساس من الدين . فالله يأمر بالعدل ، ويترك

للإنسان مجالًا واسعًا ليقيم شريعة الحق في أرضه ، ويقاوم الظلم بادئًا بأول حصونه :

الفكر الإنساني وما يرتبط به من مصالح طبقية أو طائفية أو عنصرية .

وأود هنا أن أذكر نصًّا للإمام الجليل ابن حزم الأندلسي ، وذلك في ختام دراسته الزكاة . وأهمية هذا النص أنه يعطينا صورة من التكامل الاجتماعي ، وحتى الفرد على الدولة والمجتمع كله . يقول : «صح عن أبي عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة ﷺ أن زادهم فَنى فأمرهم أبوعبيدة ـ وهو قائدهم ـ فجمعوا أزوادهم في مزودين ، وجعل يقوتهم إياها على السواء» .

وابن حزم عاش في منتصف القرن الخامس الهجري «الثالث عشر الميلادي» وحدثت صراعات كثيرة بينه وبين معاصريه ، واشتهر بآرائه السديدة التي أنصف بها المحرومين في المجامع ، وحدد العلاقة بين فئاته وبين الجهاز الحاكم . فيقول : «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات ـ أي : أموال الزكاة ـ بهم ولا في

سائر أموال المسلمين بهم»[1] .

ويحدد ابن حزم بعد هذا حق المواطن العادي الذي يعتبر حدًّا أدنى للمعيشة فيقول : «فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة» . ويستدل على هذا بقول الله في حوار يذكره القرآن عن أهل الجحيم : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدّثر : ٤٢-٤٤] . فقرن الله تعالى إطعام المسكين بوجوب الصلاة . ثم ذكر بعد هذا حديث رسول الله ﷺ : «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث . ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس» .

بل إن ابن حزم ليصل إلى ذرى رفيعة من ذرى العدالة ومنع استغلال الإنسان للإنسان ، فيفتي بحق الفقير في أن يقاتل دفاعًا عن الحياة ضد الجوع والعري ، مستندًا في هذا إلى ما سبق أن قاله

(١) المحلى ٦: ١٥٦-١٥٩. والزكوات جمع زكاة ، والفيء : الخراج والغنيمة تنال بلا قتال . انظر المعجم الوسيط ٢: ٧١٤.

الفقهاء من قبله : «من عطش فخاف الموت ففرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده ، وأن يقاتل عليه»[1] . يقول ابن حزم : «فأي فرق بين ما أباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه الموت من العطش ، وبين ما منعوه منه من القتال عن نفسه فيما يدفع به عنها الموت من الجوع والعري؟ وهذا خلاف للقرآن والسنن والاجتماع والقياس» .

فالعدل والإخاء الإنساني عنده ضرورة حياة ، والتفرقة عنده بين إباحة القتال من أجل الماء ومن أجل الطعام ، باب كبير من أبواب الظلم قد يؤدى إلى حروب جامحة ، تنفجر فيها الأحقاد ، ولكن لمصلحة من ؟ إن ابن حزم يؤمن أن دفاع الإنسان عن حقه واجب مقدس ولكن من الممكن ضبط البركان إذا تفجر ؟

مقاومة التفرقة ضرورة إنسانية :

من هنا يبدو أن محاولات الإنسانية في الصعود إلى مستوى الإخاء ، ومقاومة كل أنواع التفرقة العنصرية ضرورة يلتقى عندها

---

(١) المحلى بالآثار لابن حزم . كتاب الزكاة .

الدين ، والعلم ، ومصلحة الإنسانية في أوسع مفاهيمها .

ذلك لأن كرامة الإنسان الحقيقية لا تتوافر إلا إذا أتيحت له فرص العمل وبذلك الجهد في مجتمع يعطيه هذه الفرصة ، دون أن ينفى ذلك حق من يعجز عن العمل ، أو تقصر موارده عن الوفاء بالتزاماته ، في أن يعينه المجتمع على أن يحيا الحياة الطيبة .

وما يتبقى بعد بذل الجهد وتكافؤ الفرص والتكافل الاجتماعي من تفاوت ، فالقضاء الكامل عليه أمر فوق طاقة البشر ... وليس من المنتظر في مجتمع أن يتحول أفراده جميعًا إلى مخلوقات تتشابه في كل شيء .

الفروق المتبقية بعد التكافل الاجتماعي هي الدرجات التي ذكرها القرآن ، لا ظلم فيها . هي نواحي التفضيل التي يمكن أن نقرأ معها قول الله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

والعبرة العميقة أن الإيمان بالله ـ مع تكافؤ فرص الحياة ـ يزيل من النفوس قسطًا كبيرًا من الأحقاد ، ولا يدع محدود القدرة حاقدًا على موهوب ، ولا مسئولًا متجبرًا على من يعملون معه .

وإنما وراء الجهد إيمان يملأ النفوس رضًا وإخاء ومحبة . رضًا يأتي بعد بذل الجهد لا قبله ، على ألا يسمح المجتمع لطائفة من أبنائه في مواقع التوجيه ، والقيادة ، أو العلم ، أن تتحول إلى «طبقة» أو «مركز قوة» مستندة إلى أساس من المكانة الاقتصادية أو الاجتماعية أو العصبية العنصرية . وتحاول أن تحتكر خير المجتمع وتحول دون وصول خيراته إلى كل أبنائه .

وبعبارة أخرى : لا تحاول أن تنقل عبر الأجيال مكاسب حققتها على أساس من حرمان الآخرين ، فتزيد إلى التمزق الأفقي في المجتمع تمزيقًا رأسيًّا .. تصبح الأحقاد فيه ـ وراء المكاسب ـ أمرًا موروثًا ... فالطفل لا يولد بعصبية اللون ، ولكن المجتمع هو الذي يغرسها فيه . وهو يغرسها لما تحقق له من مزايا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية على حساب الآخرين . والإخاء هنا له مفهومان : أولهما أفقي على مستوى الجيل الواحد ، وثانيهما رأسي على مستوى الأجيال المتعاقبة . الإخاء له اتساعه المكاني وامتداده الزماني .



وداعًــا

«لا يستطيع أحد ركوب ظهرك .. إلا إذا كنت منحنيًا» حكمة خرجت من أعماق جسد تجرّع وتشبع من مرارة الأذى والاضطهاد ضد السود ، وفي مقولته «لدي حلم» كان مقصده لغة الإنسان (مارتن لوثر كنج) ، ردد الكثير بعد اغتياله بأن أحلامه قد اغتيلت ؛ لأنهم جازمون ، ليس هناك من ينتظر تحقيق الحلم ، وليس هناك من يعمل جاهدًا بتحويل حلم مارتن إلى حقيقة ، ولكن ستظل الروح بأحلام مارتن إلى أن تشرق علينا شمس تحقيقها ، وله مقولة دائمًا متصلة بنبضات القلب : «سأزرع شجرة التفاح ، ولو كنت أعلم أن نهاية العالم هي الغد» .

اقتباس من مكنون الحكمة الإنسانية الرفيعة مشكاة النبوة ، كانت أبلغ حين قال ﷺ : «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل» . تغذية للطموح في عمل الدنيا الذي يعلم ألا يثمر في حياته ، وبمجرد الفعل ستُحفظ

إنسانية البشر من التلاشي والانهيار ، قد يعيش المرء في زنزانة يراها ويلمس قضبانها ويحس بأنه محبوس ، وقد يعيش في زنزانة لا يراها ولا يلمس قضبانها ويظن بأنه حر ، وهو مُثقل بأوزار الحديد .

الحرية حلم ، حتى لدى الطائر حين يضرب شباك القفص ويرنو إلى الفضاء ، أو قط يموء ويتمسح بالباب يطلب الانعتاق من ذل القيد ، والعدالة حلم ، حين تذوب الفوارق المصطنعة ويتساوى الكل أمام سلطة الدنيا أو سلطة الآخرة .

الطريق الوحيد للوصول إلى الحق هو طريق المحبة ، فلا مناص لي من أن أعتبر كل ما بذلته من جهد في تصنيف هذه الفصول قد ضاع هباءً منثورًا ، وإذا كانت جهودي في هذا السبيل لم تثمر ، ولم تؤت أكلها ، أقذف برجائي على القارئ أن يذكر أن الخطأ في ذلك إنما هو في طريقة العرض ، لا في المبدأ نفسه .

جهودي في سبيل نشر المحبة مهما كانت خالصة مخلصة فهي بالضرورة غير كافية ، فاللمحات السريعة التي استطعت فيها أن أبين الحق ، لا يمكن أن تعطي صورة كاملة عن نور الحق المتلألئ ، أبين ولكن شيء واحد أستطيع أن أقوله في ثقة بعد كل

تجاربي ، هو أنه لا سبيل إلى رؤية الحق إلا بعد السمو إلى أقصى المراتب في محبة الجميع .

آمل وعلى أمل أن يرتقي المجتمع العربي من تلك الحقول الملوثة التي تملؤها الرجعيات والترسبات النابعة من مخلفات التاريخ ، لا زلنا نقدس بعض الموروثات التي باتت بدستورنا أشد من الحرام ، لا زلنا نعاني من التصلب الفكري الذي كان السبب في تأخر المجتمع ، لا زالت تتدفق ينابيع المبادئ الجاهلية ؛ ولا زال الكثير يرتوي منها رُغم إدراكه أنها غير صالحة .

تجاربي كانت تشد من أزري وتبعث في نفسي سرورًا عظيمًا ، ولها التقدير العظيم في داخلي ، لم أدّخر وسعًا لكي أسرد لكم قصة معاناتي بكل أمانة وصدق ، لذلك سهام جهدي كانت متجهة إلى تقصي الحق ، فكانت لا تنضب من المدد الروحي التي نفثت في نفسي السكينة ووهبت عقلي الهدوء والسلام .

أقنعتني معاناتي وتجاربي بأن هناك صفحات جاهلية تقلّبها الأجيال ، جيلًا بعد جيل ، ويعملون بمقتضاها حسب ما يروق لهم ، والاحتفاظ باقتباسهم كسلاح يُستعان به لحظة الاختلاف

مع ذوي البشرة السمراء أو السوداء، ونحن أمام ذلك السلاح نزداد عزيمة، العدوى لم تكون خطرًا علينا، بل الخطر هي الكائنات الناقلة لتلك العدوى، وخطرها ستتلوث منه البيئة الإنسانية بأكملها.

الناس جميعا يشتركون في خصائص جوهرية، مما يوحد القيمة المشتركة لديهم، ما يجعل الإساءة إلى أي فرد هي إساءة الى النوع البشري، ولعل التعبير المناسب لهذا المعنى هو (الكرامة الإنسانية) فعندما يشتم أحدهم إنسانًا فكأنه يشتم نفسه، وعندما يهين أحدهم إنسانا فكأنه يهين نفسه، وهذا ما كان المقصود بالعبارة الشهيرة القائلة: «الكلام صفة المتكلم» أي: الشاتم يشتم ذاته.

أعلم أن الطريق الذي أسير فيه قاصدًا منهج العدل والمساواة؛ وعِر وتملؤه الانحدارات الشديدة نتيجة الإيمان المفلس ببعض العقائد السوقية التي توارثتها الأجيال دون تمحيص، وحتى لا تتسع فجوة التمييز العنصري وتفاقم هذا النسق والنعرات وتجلي بعض المفاهيم والتي في استمرارها قد تسبب تمزقًا في انسجام

الوجدان الاجتماعي واختراق صفوف وحدته وتفتيت بنيته لجأت إلى تطريز ما استطعت من الأدلة للتحرر من أغلال العصور المظلمة ، أعلم أن شرذمة ممن توغل بدواخلهم هذا الداء المقيت والمتمسّكين بالآثار الرجعية البدائية التي تسيء لذوي البشرة الداكنة ، لا يروق لهم بعض ما ورد وسيحاولون عرقلة مسيرتي وينثرون الأشواك بهدف تعطيل اجتهادي في إماطة اللثام عن الحقائق ، سأكمل رحلتي حافي القدمين إلى بزوغ فجر البشائر في اقتلاع أنياب تلك المكتسبات المعاكسة لمبادئ العقيدة الصحيحة .

يقول نيلسون مانديلا في كتابة الشهير «رحلتي الطويلة من أجل الحرية» :

«إنني أؤمن أن في أعماق كل قلب بشري رصيد من الرحمة والسماحة ، لا يولد أحد وفي نفسه كراهية لأحد بسبب لونه أو أصله أو دينه ، فالكُره يُكتسب ، وما دامت لدى الإنسان قدرة على أن يتعلم الكُره فهو قادر على تعلم الحب ؛ لأن الحب أسهل وأساس على قلوب البشر من الكراهية والبغضاء ، كنت أرى لمحات السماحة والإنسانية لدى حراس السجن حتى في أحلك

الأوقات ، وعندما بلغ الأمر أشدّه بي وبزملائي ، وربما ظهرت تلك الإنسانية للحظات قصيرة ولكنها كافية لطمأنتي والرفع من معنوياتي ، فالخير جذوة في نفس كل إنسان تختفي أحيانًا ، وتُحجب أحيانًا ، ولكنها لا تنطفئ أبدًا» .



المراجـــع

١ ـ الباعث الحثيث، ابن الأثير.

٢ ـ موسوعة أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام «الجزء السابع».

٣ ـ محاربة التمييز العنصري ضد الأقليات بين الإسلام والقانون الدولي: أبو معالي نذير.

٤ ـ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٤٩.

٥ ـ الزيلعي أحمد بن عمر، مخلاف عثر في القرنين الثالث والرابع الهجري.

٦ ـ التاج المذهب شرح متن الأزهار دج ٤٣٤/ ٤.

٧ ـ أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية للدكتور عبد اللطيف عامر. أستاذ الشريعة ـ جامعة الزقازيق صفحة ٢٠٠.

٨ ـ بدائع الصنائع ج ٩.

٩ ـ نظرية الدولة الإسلامية : د/ حازم عبد المتعال الصعيدي ص ٢٥٧.
١٠ ـ كتاب : العتق ، كتاب شرح أخصر المختصرات ، للشيخ عبد الله بن جبرين .
١١ ـ الشيوعية والإنسانية ص ٣٤٨.
١٢ ـ أشرف السيد : حقوق الإنسان في مفهوم واشنطون (دار الفارابي ١٩٨٤م) .
١٣ ـ قرارات هيئة الأمم المتحدة : مجلة الأمم المصرية العدد : ٣٦، سنة ١٩٨٠م .
١٤ ـ محمود عباس العقاد : الإنسان والتقدم الاجتماعي .
١٥ ـ بحث للكاتب الإسلامي : إبراهيم المراغين .
١٦ ـ الإسلام والتفرقة العنصرية د/ عبد العزيز كامل ص٣٥ـ ٤٥.
١٧ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) .
* البخلاء (بيروت : دار الكتاب الحديث ١٩٩٤) .
* البرصان والعرجان (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٨١م) .

* كتاب الحيوان : لعبد السلام هارون (القاهرة مكتبة الحلبي) .

* رسائل الجاحظ : عبد الله مهنا : بيروت : (دار الحداثة ١٩٨٨م) .

١٨ ـ الأبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد) .

١٩ ـ المستطرف في كل فن مستظرف (بيروت ، مكتبة الحياة ١٩٩٣م) .

٢٠ ـ تمثيلات الآخر د/ نادر كاظم .





الفهرس

